آفاق عودة
الحضارة الإسلامية

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

خليل، عماد الدين
آفاق عودة الحضارة الإسلامية / أ.د.عماد الدين خليل ، أ.د. عبد الحليم عويس – ط١– القاهرة: دار النشر للجامعات، ٢٠٠٩.
٢٢٤ص ، ٢٤ سم.
تدمك ٨ ٣٠٠ ٣١٦ ٩٧٧
١- الحضارة الإسلامية
أ- عويس، عبد الحليم (مؤلف مشارك)
ب- العنوان ٩٥٣

حقـــوق الطبـــع:	محفوظة
الناشــــــــــر:	دار النشر للجامعات
رقـــم الإيـــداع:	٢٠٠٩/٣٤٩٦
الترقـيم الـدولي:	I.S.B.N: 977 – 316 – 300 – 8
الكـــــــــود:	٢/٢٧٢
تحـــــــــذير:	لا يجوز نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بـأي شكل من الأشكال أو بأية وسيلة من الوسائل (المعروفة منها حتى الآن أو ما يستجد مستقبلاً) سواء بالتصوير أو بالتسجيل على أشرطة أو أقـراص أو حفـظ المعلومـات واسترجاعها دون إذن كتابي من الناشر.



آفاق عودة
الحضارة الإسلامية

أ.د عماد الدين خليل   أ.د عبد الحليم عويس

بسم الله الرحمن الرحيم

(بين يدي الكتاب)

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الخلق أجمعين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته واهتدى بهديه إلى يوم الدين، وبعد.

فلم تعد ظروفنا – نحن المسلمين – منذ مطلع القرن الخامس عشر الهجري، الحادي والعشرين الميلادي تسمح بذلك الترف العقلي، والتناول غير الموضوعي الذي غلب على جانب كبير من خطابنا الفكري، بصورة تعكس انفصالًا حادًّا عن الهم الإسلامي العام.

وحسبنا أن عددًا كبيرًا من المحسوبين علينا والمتسبين إلى تراثنا وحضارتنا قد انسلخوا من هذه الحضارة، فأصبحوا يعيشون فيها وهم ناقمون عليها، ساعون إلى تذويب هويتها في الحضارة الأوروأمريكية... وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا.

ويكفينا أننا رضينا بالله ربًّا وبالإسلام دينا وبحضارة الإسلام الإنسانية طريقًا ننتمي إليه ونطوره، ونعيش فيه وله، ونتفاعل من خلاله مع الآخرين تفاعل الأنداد والأكفاء، لا تفاعل المنهزمين والعبيد...

يكفينا أن نحمل على ظهورنا عبء هؤلاء المنسلخين عن حضارتنا؛ لنتجه في كتابتنا- نحن الذين رضينا بالانتماء والهوية الذاتية وآمنا بأننا بديل حضاري لا يُقصي الآخرين، ولكن نتعلم منهم ونمحص ما عندهم – إلى الواقع دون تجاهل لذاكرة الماضي ودروسه، ودون تغافل عن تحديات المستقبل وآفاقه...

ولا بد لنا من أن نعيش القلق المبدع الذي يسمح لنا بصناعة الأمل وباختزال تجربتنا الفريدة وتقديمها كخمائر للمستقبل.. ولا بد لنا أن نرسم خريطة للتحديات الراهنة، محددين كيفية الانبعاث الحضاري الإسلامي في ضوء هذه التحديات... ولا سيما أن عصرنا لا يسمح بتجاهل ما عند الآخرين، ولا بوضع رءوسنا في الرمال كالنعام...

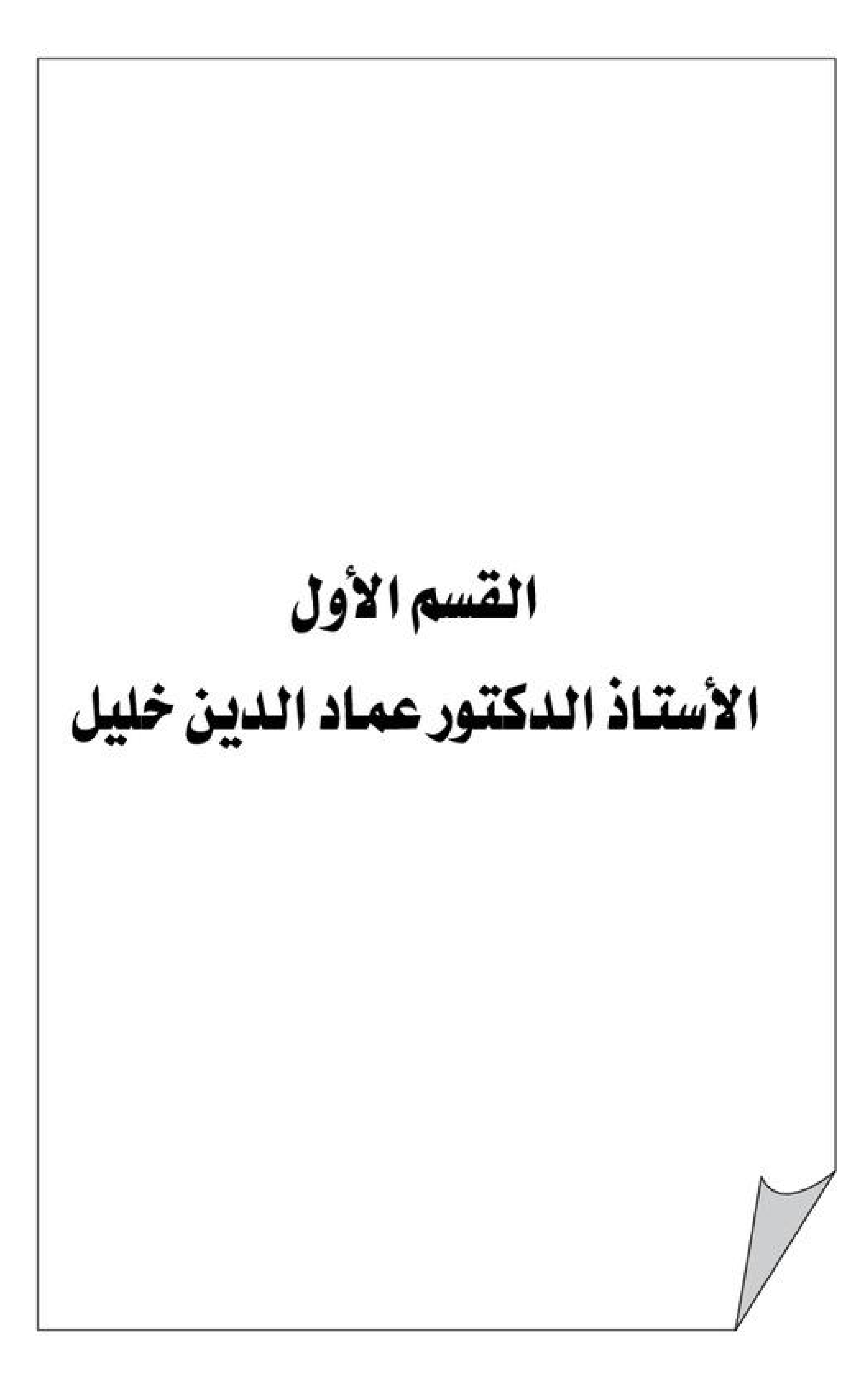
إن المستقبل يدعونا إلى وقفة صريحة مع ما يمليه علينا من مسئوليات تجاه أنفسنا وتجاه الإنسانية...

ومعروف أن لدينا الكثير مما يمكن أن نستعين به ونقدمه في معترك الصراع الحضاري، ولتحقيق ذلك لدينا آليات يجب أن نعيد النظر فيها... إن موقفنا من اللغات الأجنبية التي ستمكننا من تحقيق الحوار الحضاري العالمي يجب أن يتغير، فامتلاك اللغة شرط للقدرة على الحوار، وخطابنا الديني يحتاج منا أن نربطه – ونحن نخاطب المسلمين والعالم – بالوسطية الإسلامية، وبالقيم الإنسانية والحضارية ليس في أوقات السلم فحسب بل في الحروب والصراعات أيضًا.

وهناك الكثير مما ينبغي أن يشار إليه، لكن طبيعة هذه التوطئة لا تتحمل ذلك، وحسبنا أن نقول: إن هذا الكتاب يحمل إجابات عن بعض أسئلة الانبعاث الحضاري الإسلامي وأساليب التعامل مع الإنسانية في عصر العولمة وصدام الحضارات.

والله من وراء القصد

المؤلفان



القسم الأول

الأستاذ الدكتور عماد الدين خليل

أربعة عشر قرنا...

وأول ما يبده الفكر والوجدان أن يمضي على ظهور الإسلام أربعة عشر قرنا ونيف... لم يضعف ولم ينحرف ولم يضل الطريق.. بل يزداد قوة ومضيًا وعطاء وكثرة أتباع.. دين لا يمكن أن يقضي عليه خصومه أو يوقفوا حركته في عشر سنين أو عشرين – كما يتوهمون – تلك أمانيهم وظنونهم.. فبئست من أمان وخسئت من ظنون!!

أربعة عشر قرنا وأمة هذا الدين تجابه التحديات الخطيرة.. فتستجيب لها، وتخرج منها ظافرة مرفوعة الرأس.. عالية الراية.. قامتها فوق القامات، وأهدافها فوق الأهداف.

مشركو الوثنية بقيادة رجال الملأ من قريش... اليهود.. المنافقون.. مرتدو الوثنية بقيادة أدعياء النبوة والزعامات الكاذبة..نظم الطواغيت في بلاد كسرى وقيصر.. الصليبيون.. المغول.. المستعمرون القدماء.. والمستعمرون الجدد.. موجات إثر موجات، يتكسر عنقها الشرس اللجوج على صخرة هذا الدين فترتد زبدا وغثاء.. ولا يبقى إلا عطاء هذا الدين الذي ينفع الناس... أربعة عشر قرنا.. وهم يقاتلون هذا الدين في محاولة مديدة متواصلة لرد أبنائه عنه.. لا يرضون له أن يمضي إلى غايته التي رسمها له الله سبحانه، ولا لأبنائه أن يختاروا لهم طريقا غير طريقهم.

أربعة عشر قرنا ونداءات القرآن الكريم تحذر وتنذر،.. فما من لحظة سيلقى فيها السلاح ويكف الخصوم عن البغي والكيد:

﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة:٢١٧].

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة:١٢٠].

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الصف:٨].

والله متم نوره ولو كره الكافرون!!

فلتقر عين أتباع هذا الدين ولترغم أنوف خصومه.. فإن النصر لن يكون إلا لهذا الدين!!

تلك معادلة واضحة يقولها الله.. ويؤكدها التاريخ.. وتؤكدها أربعة عشر قرنا من الصراع الذي لا يرحم، والنتيجة الواحدة التي لا تتغير أو تتبدل مهما عظمت التضحيات وغلى الثمن وطال السرى - أن ينتصر الإسلام ويعلو.. وأن ينتشر نوره في الآفاق!!

* * *

هل ثمة من دين أو مذهب اجتاز رحلة الأربعة عشر قرنًا، أو حتى القرن والقرنين، دون أن تتشعب به المسالك وتنحرف الطرق وتضل الأهداف؟! عشرات الأديان والمذاهب.. قطعت خطوات قصيرة في الزمان والمكان.. وما لبثت أن تعرضت لأكثر من محنة، فلم تصمد لها، فتمزقت وتفتتت وانحرفت عن الطريق.. وعشرات غيرها أشبعها الوضاعون والكهنة والمرتزقة دجلا وشعوذة وترهات، لتحقيق مصلحة أو بلوغ حاجة.. قبل أن تقطع بعضًا من الطريق الطويل..

والإسلام هو الإسلام.. وكتابه هو الكتاب.. وسنته هي السنة.. وهدي خلفائه ورجالاته هو الهدي.. ليس ثمة إسلامان ولا كتابان ولا سنتان.. ليس إلا إسلام واحد وكتاب واحد وسنة واحدة.

يمضي على ذلك أربعة عشر قرنا.. أو أربعة عشر ألفًا من السنين!! فالأمر سواء..

فليطمئن أتباع هذا الدين الذين زاد عددهم على الألف مليون مسلم.. وليخسأ الخصوم الذين يتصورون، أو يصور لهم الذين يحركونهم من وراء ستار، في ساعة حلم شيطاني.. أن بمقدور قوة في الأرض أن تسحق هذا الدين.. أن توقف حركته.. ليطمئن الأتباع.. وليخسأ الخصوم.. فالله متم نوره ولو كره الكافرون !!

* * *

إن هذا الدين يحمل عوامل ديمومته واستمراره.. وهذا أمر بديهي.. فما دام الله سبحانه قد أراد له أن يكون الدين الأخير.. فمعنى هذا أنه سبحانه قد أمده بعناصر القوة والشمول والحيوية والديناميكية، مما يجعله قديرًا على التواصل مع أجيال البشرية المتعاقبة. جيلا بعد جيل.. وسواء مر على ظهور الإسلام قرن واحد أم أربعة عشر قرنا، أم مائة وأربعون قرنا.. فإن هذا الدين سيظل يحمل ما منحه الله سبحانه من قوة وحيوية.. قديرا على الصمود حيثما يجب أن يكون الصمود، بصيرًا بمطالب الحياة البشرية في كل مكان وزمان.. متمكنًا من الامتداد والانتشار هنا وهناك.

إنه دين الفطرة الذي يتعامل مع الإنسان على أنه إنسان، معجونة في تكوينه قوى الروح والمادة.. والطبيعة والغيب.. والثبات والحركة.. والغرائز والأشواق.. والفاني المحدود بالأزلي الخالد..

ويتعامل مع الطبيعة والعالم كشفًا عن سننهما ونواميسهما التي أودعها الله فيهما، وسعيا من أجل تحقيق الوفاق المرتجى بين الإنسان والعالم..

ويتعامل مع التاريخ على أنه حركة متجددة لا تعرف حرانًا ولا سكونًا.. إنه المنظور الإلهي المعجز الذي يعرف كيف يتعامل بهذا الدين مع الإنسان، والطبيعة، والتاريخ،.. وإنه لن يخشى أبدا على دين يعرف كيف يمد جناحيه لكي يغطي مطالب هذه الأقطاب جميعا..

فما دام الله قد صمم هذا الدين و (أكمله) على يدي رسوله الكريم، ليكون دين البشرية الأخير.. فمعنى هذا أنه قد أريد له أن يظل باقيًا ما تنفس إنسان على وجه البسيطة.. دائما ما طلعت الشمس من مشرقها.. خالدًا ما دامت السماوات والأرض!! ولن يُخشى عليه!!

* * *

قدرة فذة على مواجهة التحديات:

وعبر الأربعة عشر قرنا التي انقضت أثبت هذا الدين قدرة فذة على قبول التحديات وهضمها وتمثلها، سلمًا وحربًا..

لقد جُوبِهَ هذا الدين منذ فجره المبكر بردة شرسة قاسية.. فاستجاب لها وخرج منها أكثر صلابة وتوحدا، وانطلق إلى العالم غير عابئ بنذر كسرى وقيصر،.. فلما تم له الانتصار عليهما عبر فترة زمنية قياسية تثير التأمل والإعجاب.. عرف كيف يفتح صدره لتراث الأمم والشعوب ومعطياتها الحضارية.. عرف كيف يتعامل معها وفق معاييره الواضحة الحاسمة، فيأخذ ما يمكن أخذه ويرفض ما يتوجب رفضه.. إنه ها هنا في ساحات السلم والعطاء، كما هو هناك في ساحات الحرب والشهادة.. قدير على الاستجابة للتحديات، غير هارب منها أو ناكص عنها.. إنه دين التقدم والحركة والاقتحام.. ولن يتردد إزاء شيء أبدا.. سلمًا أو حربا.. وعلام التردد وهو يملك من عوامل القوة والأصالة والشمول ما يجعله قديرًا على أن يصهر كل ما يعترض طريقه بالنار التي تحرق والنور الذي يضيء؟!

وطيلة القرون التالية وهو يتعرض لتحديات قوى كانت في كثير من الأحيان تفوقه عدة وعددا.. ولكنه كان دائمًا المستجيب لتحديها، المتقدم لمجابهتها.. والمنتصر عليها في نهاية الأمر.. وليس ثمة من لا يعرف الذي فعله هذا الدين وأتباعه إزاء هجمات الصليبيين وغزوات المغول.. ردَّ الأولى على أعقابها واحتوى الثانية.. فإذا بالغالب القاهر يتقبل الانتماء للدين الذي تصور أنه غلبه.. ويخضع له ويطيع!! وهي تجربة تاريخية تكاد تكون (نادرة) بين التجارب.. أن يخضع الغالب للمغلوب!! ولكنها في حقيقة الأمر ليست نادرة.. فإن السر يكمن في عبقرية هذا الدين..

* * *

واليوم، وهو يطل على قرنه الخامس عشر، يجد نفسه محاصرًا بألف تحد وتحد... إن الاستعمار الجديد والمادية الملحدة يضيقان الخناق عليه بالغزو الفكري والتخريب الأخلاقي والتدمير الاجتماعي والاستنزاف الاقتصادي والصراع الإستراتيجي..

والصهيونية - التي فاقت أشد العنصريات في التاريخ صَلَفًا ووحشية وأنانية وغرورا - تضع كافة إمكاناتها جنبًا إلى جنب مع هذين الخصمين لسحق هذا الدين وإبادة أتباعه، أو إضعافهما وشلهما على الأقل..

وغير هؤلاء وهؤلاء عشرات، بل مئات من الضغوط والتحديات.. ترى.. هل سيقدر للإسلام هذه المرة أن يخرج من المعركة الطاحنة ظافرًا منصورًا؟

نعم!! وإنه لمن (البديهيات) في عمر هذا الدين ذي الأربعة عشر قرنا أن يخرج ظافرًا منصورًا حيثما وجد نفسه في وضع (المتحدى).. طال الوقت أم قصر.. فالعبرة - كما هو معروف - بنتائج الأمور وأخرياتها، لا ببداياتها الأولى حيث تغيم الرؤية وتنقطع أنفاس ذوي النفس القصير.. لقد ازداد الإسلام بمرور القرون قدرة على الرد.. وتراكمًا في الخبرات، مما سيهبه - ولا شك - فاعلية أكبر في المجابهة والاقتحام..

إنه يملك اليوم (خبرة) أربعة عشر قرنا من العمل والصراع والتجربة والعناء والمقاومة والاختبار.. ولن تذهب هذه الخبرة عبثًا بمجرد أن تصدق النية، ويصح العزم، ويخلص الإيمان..

ترى.. أيمكن القول بأن الإسلام يوم أن يستقبل قرنه التاسع عشر أو العشرين من عمره المديد، سيكون أكثر قدرة على الاستجابة للتحديات والتفوق عليها؟!

❊ ❊ ❊

وعبر مسيرته الحافلة ذات الأربعة عشر قرنًا.. كان الإسلام قديرًا - أبدًا - على التجدد والانبعاث، وكلما ادلهم خطب وذرت الفتنة قرنها، وكاد اليأس أن يأخذ بتلابيب النفوس والأرواح.. برز رجل أو انبعثت حركة.. فما يلبث هذا الدين أن يجد من ينطلق به إلى آفاق جديدة.. فيزداد قوة.. وتمكنا.. وأصالة..وعطاء.. حتى لقد أصبح من المسلم به أنه على رأس كل قرن هجري سيجيء من يقوم بالدور الموعود.. رجلا أو جماعة أو حركة.. فيمضي بالموكب المبارك إلى مواقع جديدة متجاوزا به المنزلقات والعقبات والأشواك!! إنه دين يحمل في تركيبه المعجز القدرة الأبدية الخلّاقة

على التجدد والانبعاث.. بل إن هنالك ما هو أعجب من هذه الظاهرة في تاريخ هذا الدين وتركيبه.. ذلك أنه حيثما خسر المعركة، أو انحسر وتراجع في جهة من الجهات، تحرك في جهات أخرى لكي يحقق أكثر من نصر فيعوض هنا ما خسره هناك.. ويكون في نهاية التحليل هو الفائز في حساب الخسائر والأرباح!!

إن الأربعة عشر قرنًا التي تشكل عمر هذا الدين غنية بالشواهد على هاتين الخصيصتين اللتين تميزان هذا الدين فيما تميز به من معالم وسمات.. القدرة على التجدد والانبعاث والقدرة على التعويض..وإنه ما من دين أو مذهب في التاريخ امتلك هاتين القدرتين بالسعة والديمومة والعمق التي امتلكهما بها هذا الدين العظيم..

ولن يغني الكلام هنا عن متابعة (شاهد)... التاريخ نفسه..

خبرة الماضي:

ونحن نوغل في القرن الخامس عشر الهجري.. باتجاه المليار وخمسمائة مليون عددًا من المسلمين.. نتذكر الدعوة في أيام محنتها الأولى.. زمن الأفراد القلائل المضطهدين.. المطاردين.. ونتذكر الرجل الأول الذي صنع المعجزة.. ونتذكر وعد الله بالنصر المبين ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴾ [غافر:٥١] .

إذن فقد صدق الله وعده.. ولن تكون أكاذيب الأرض كلها بقادرة على أن تعكس صدق هذا الدين وقدرته الأبدية على الانتصار..

لقد زرعت يا رسول الله، وزرع معك أصحابك وتابعوك بإحسان.. عبر عشرات السنين ومئاتها يحرثون الأرض ويلقون البذور.. ويزرعون.. وكانت أبصارهم وعقولهم معلقة بالله.. ما من كبيرة ولا صغيرة إلا وهم يتحركون بها من خلال رؤيتهم الإيمانية التي ترى وجود الإنسان في العالم امتدادًا لإرادة الله وقدره، وكانوا يريدون إعادة صياغة العالم.. وقلب تربته العفنة التي غطت على مساحاته.. قلبها من الأعماق، وإظهار التربة الجديدة .. التربة النقية؛ لكي تكون الثمار نظيفة قوية معطاءة ﴿ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ [الفتح:٢٩].

ولقد كان الحصاد عظيمًا حقًا ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ [إبراهيم].

ورغم أن العالم اختار أن ينقلب على صوتك المؤثر...أن يمرق عن صراطك المستقيم.. رغم أنه أعاد قلب التربة -ثانية- لكي يغطي جغرافية القارات كلها بالعفن والفساد فلا يتبقى ثمة ما هو نظيف طاهر.. رغم هذا وذاك.. فإن طائفة من أمتك ستظل تواصل الطريق، وسيظل أملها معلقًا بالله.. أن تعيد صياغة العالم ثانية وثالثة ورابعة إلى أن يتحقق النصر الموعود.. وهو لابد آت ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ [آل عمران].

إننا ونحن نوغل في القرن الخامس عشر المبارك بإذن الله، نتذكر أنه ما من قرن تصرم من هذه القرون الأربعة عشر، كان أتباع محمد عليه السلام فيه عاجزين عن الحركة.. عن أن يعملوا شيئا.. إنه ما من قرن إلا وتبرز منهم طائفة ترفع الراية، وتتحرك بإيمانها الفذ ويقينها الوضيء لكي تثبت مواقع هذا الدين وتمدها إلى الآفاق.

* * *

لقد كانت رحلة الأربعة عشر قرنا مسيرة صعبة قاسية، باهظة الثمن كثيرة التكاليف.. لكنها كانت في الوقت نفسه كثيرة العطاء... وإنه ليس ثمة جزاء كبير دون جهد كبير.. ولقد بذل أبناء هذا الدين، عبر كل قرن، الكثير والكثير.. جهدا وعرقا ودما ودموعا، فلم يذهب هذا كله عبثا... لقد أتى ثماره، وملأ الدنيا عطاء سخيًا...

الدعوة التي كانت تتحرك في طرقات مكة خائفة وجلة، أصبحت تقول كلمتها بمواجهة عروش كسرى وقيصر فتسقطها وتذلها... الصلوات التي كانت تقام سرًا في دار منزوية في أنحاء أم القرى.. صارت تقام على شواطئ الأطلسي وتخوم الصين.. يطمح أصحابها أن يجتازوا البحر والتخوم لكي لا تبقى مساحة في العالم لا تقام فيها صلاة ولا يذكر فيها اسم الله... المستضعفون في الأرض الذين كانوا يطاردون

ويضطهدون ويعذبون ويجلدون.. غدوا قادة العالم وساسته وحكامه.. كتاب الله الذي كان يُحكم بالقتل على قارئه أصبح دستور الدنيا ومرشدها..

لقد كانت مسيرة باهظة التكاليف حقًّا، ولكن الجزاء كان كبيرا!!

❁ ❁ ❁

إنه ما من أمة في الأرض تعرضت عبر مسيرتها التاريخية لما تعرض له أبناء هذا الدين... لقد تكالبت عليهم قوى العالم كله، منفردة حينا ومتجمعة أحيانا، وإنها لتختلف وتتنازع وتتناحر فيما بينها حتى إذا كان الأمر قتالا لهذا الدين فإنها تأتلف بقدرة قادر لكي تضرب عن قوس واحدة.. منذ معركة الأحزاب حيث تجمع اليهود والوثنية العربية والبدو والمنافقون.. وحتى الثلث الأول من القرن الخامس عشر الذي آذن بانقضاء، حيث تتجمع معسكرات الصهيونية والمادية والصليبية والاستعمار الجديد.. كان الإسلام هو هدف الخصوم والبؤرة التي تجذبهم إليها..

ولكنه كان دائما هدفا صعبا، وكانت دائما بؤرة شديدة الجمر تعرف كيف تحرق الأيدي التي تمتد إليها لكي تطفئ سراجها الوهاج..

واليوم.. وقد انقضى من القرن الخامس عشر الهجري ثلاثة عقود.. نتذكر طوابير الخصوم والأعداء.. حشود المهاجمين والغزاة والمستعمرين..

وإنها حقًّا لطوابير وحشود كثيفة لا نكاد نميز أولها من آخرها.. ولكننا كنا – رغم هذا التواصل الزمني الشرس لضرب الإسلام واستئصال شأفة المسلمين- كنا غالبًا المنتصرين، وتلك منة من الله.. يجب ألا نغفل عن شكرها لحظة واحدة..

إن هذا الدين يحمل سر بقائه المعجز وديمومته الفذة، ولن تستطيع قوة في الأرض أن تمحق كلمته من الوجود.. لقد حدث عبر الأربعة عشر قرنا الماضية أن هزمت كل الحشود والطوابير التي سعت لاغتيال هذا الدين، وبقي الإسلام صامدًا متفردًا ماضيا لتحقيق كلمته في العالم.

❁ ❁ ❁

إن رحلة الأربعة عشر قرنًا تمثل رصيدًا كبيرًا من تجارب الخطأ والصواب.. والواجب علينا كمسلمين أن نراجع أنفسنا ونعيد النظر في معطيات المسيرة الطويلة ويقينا فإننا سنتعلم الكثير والكثير.. وهل ثمة أكثر خبرة من التاريخ؟ هل ثمة أكثر عطاء ومنحًا من هذا الزمن المترع ذي العمر الطويل.. والذي يمكن بدراسته وفهمه أن نستخلص أبعاد التجربة ونكشف مؤشرات العمل والحركة عبر القرن الخامس عشر الذي نعيشه؟؟ إن أمة لا ترجع إلى نفسها لكي تنقد ذاتها، أمة غير جديرة بالحياة، وإن أمة لا تلتفت إلى ماضيها في نهاية كل شوط من الرحلة التاريخية الطويلة، أمة غير قادرة على المضي في المشوار إلى غايته..

إن الحفر والعقبات والمتاريس في طريق المستقبل كثيرة.. ويزيدها كثرة أننا أمة تكالبت عليها الأمم، فإن لم تستمد من تاريخها الهادي والدليل فقد يخشى عليها ما تنبأ به الرسول المعلم عليه السلام.. أن تغدو في مستقبلها القادم قصعة يزداد المولمون عليها.. إن هذا القرن ولا شك قرن الصراع الدولي الحاسم في ميادين العقيدة والإستراتيجية.. والإرهاصات واضحة بينة قد أخذت تطل برأسها منذ العقد الأخير من القرن الرابع عشر.. والخارطة العالمية لمواقع الأمم والشعوب ستزداد ألوانها عمقًا وتميزا.. ولن يكون لنا خيار في أن نتميز، نحن الآخرين، وإلا امتصَّنا هذا اللون أو ذاك وأصبحنا نبحث عن مواقع الأمة الإسلامية في العالم فلا نكاد نجد لها أثرا.. ثمة ظلال باهتة للأصفر ذات اليمين وللأحمر ذات الشمال.. وقد منحنا ديننا الصبغة التي تميزنا بين الأمم وتمنحنا الهوية واللون على خرائط العالم.. ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [البقرة].

إن هجمات القوى المضادة للإسلام، كما يبدو من المقدمات، ستزداد عنفًا وشراسة مع الأيام.. وقد تداعت علينا، متفقة أو غير متفقة، معسكرات المادية والصليبية والصهيونية والإمبريالية، ومن يدري فلعلها قد اعتزمت أمرا أكبر بكثير وأخطر بكثير من كل تخميناتنا وتوقعاتنا.. فلنكن على حذر ولنجعل من هذا القرن قرن النفير العام للدفاع عن الذات بمواجهة الإفناء المحتمل، ولتعميق ملامح الشخصية بمواجهة عمليات الطمس والتشويه..

* * *

إن (توينبي)، مؤرخ الحضارات المعروف، يقول: إنه من بين بضع وعشرين حضارة بشرية شهدها التاريخ، لم يتبق غير سبع، ستة منها - ومن ضمنها حضارتنا الإسلامية- مهددة اليوم بالابتلاع والتلاشي في كيان الحضارة الغربية.. وسواء صح هذا الذي استنتجه الرجل، بعد رحلة استقرائه ذات الثلاثين عاما، أم لا، فإن الذي يحدث على مستوى الواقع هو أن حضارتنا، أو بقايا حضارتنا بتعبير أدق، مهددة فعلا بالتفكك والتلاشي والزوال.. ولا ندري إن كان هذا القرن سيكون قرن الاحتضار أم الميلاد الجديد؟.

وسيكون القرار الأخير بأيدينا.. إنه قد مضى إلى غير رجعة زمن الإسقاط والهروب، يوم كنا نتخذ من الاستعمار مشجبا نعلق عليه كل هزائمنا ومتاعبنا، وكأننا لم نكن نحن بقابليتنا للاستعمار- كما يقول المفكر الجزائري مالك بن نبي رحمه الله- قد مكنا للاستعمار في نفوسنا وبلادنا..

إنه قد آن الأوان لكي نصحح المسار فنعترف بالخطأ مهما عظم من أجل أن نعد أنفسنا للمجابهة النهائية الحاسمة على كل الجبهات.. وحينذاك يمكن أن نسد كل ثغرة قد يتسلل منها الخصم في مشارف حدودنا الشاسعة أو تخوم نفوسنا الضائعة..

* * *

مفاتيح التغيير:

والمفاتيح التي منحنا إياها هذا الدين للتمكن من المجابهة والتحقق بالانتصار واضحة بينة، إنها على وجه التحديد مفتاحان لا ثالث لهما: التغيير الذاتي على مستوى النفس، والإعداد الذاتي على مستوى الجماعة.. وإنهما بتعبير الرسول المعلم عليه السلام: جهادان: جهاد أكبر ضد هوى النفس وانحرافاتها لتحريرها وتمكينها من التزام الصراط.. وجهاد أصغر ضد الخصوم والأعداء على مدى العالم كله لتحريره من الطاغوت وتمكينه من التزام الصراط..

ولقد قالها القرآن الكريم بوضوح لا مزيد عليه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١]، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[الأنفال:٥٣]، وفي مقابل عملية التغيير الذاتي هذه ألزمنا بأن نعمل على التحقق بالاستعداد اللازم للجهاد الآخر: القتال على أرضية العالم لتنفيذ كلمة الله في الأرض..

وقالها بوضوح لا مزيد عليه: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال:٦٠].

وثمة سورة بكاملها سميت بسورة الحديد، ولهذا دلالته ولا ريب.. ونقرأ إحدى آياتها ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد: ٣٥] فإذا بها تحمل مؤشرا واضحا على مدى اعتماد خام الحديد وهو واحد من أخطر خامات الأرض، لأغراض التسليح.. إن الدولة التي تملك خام الحديد تستطيع- كما هو معروف -أن ترهب أعداءها بما يتيحه لها هذا الخام من مقدرة على التسليح الثقيل، وتستطيع- أيضا- أن تخطو خطوات واسعة لكي تقف في مصاف الدول الصناعية العظمى التي يشكل الحديد العمود الفقري لصناعتها..

ونتذكر هاهنا آيات من سورة سبأ يرد فيها ذكر الحديد: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [سبأ: ١٠-١١].. نتذكر نعمة الله على نبيه وعبده داود بتسييل الحديد له أو بتعليمه كيف يسيل الحديد وهي بصدد الحديث عن البناء والإعمار والتصنيع، ونتذكر- أيضا- ذا القرنين وهو ينادي الجماعة المضطهدة: ﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾[الكهف: ٩٦-٩٧].. ويلفت أنظارنا، في آية سورة الحديد آنفة الذكر، إلى ذلك التداخل العميق والارتباط الصميم

بين إرسال الرسل وإنزال الكتب معهم وإقامة الموازين الدقيقة لنشر العدل بين الناس، وبين إنزال الحديد الذي يحمل في طياته البأس والمنفعة، ثم التأكيد على أن هذا كله إنما يجيء لكي يعلم الله ﴿مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ [الحديد:٢٥].. وهكذا، فإن المسلم في هذا العالم لن تحميه وتنصره إلا يده المؤمنة التي تعرف كيف تبحث عن الحديد وتصوغه من أجل الحماية والنصر، وهو، بمجرد أن يتخلى عن موقفه الفعال هذا ويختار مواقع الفرار والانتظار الاتكالي لمعونة الله، فإنه يتناقض مع نفسه وعقيدته، وسيهزم لا محال ما دام قد أشاح عن هذه الحقائق القرآنية التي تكاد تصرخ بأعلى نبرة أنه بدون الاعتماد الواعي المسئول البصير بمصادر القوة والبأس فلن يكون هناك نصر أو حماية للموازين العادلة التي جاءت الأديان لتنفيذها في الأرض حتى ولو حبس المؤمنون أنفسهم في المساجد السنين الطوال يبكون ويتضرعون.

لقد جربنا أن نتسول السلاح من الشرق والغرب، وأن نتذلل لهما ونمنحهما الكثير من الحقوق والامتيازات والأموال.. فلم نستطع أن نحقق الانتصار المرتجى.. لأن الكلمة النهائية في استخدام أكداس السلاح المشتراة ظلت بأيديهم، ولأن القدرة على مواصلة استخدام هذه الأكداس ظلت بأيديهم أيضًا.

أفلم يحن الوقت لكي نتعلم من الخطأ الذي مارسناه مرة ومرتين وثلاثا.. وعشرين، وأن نحذو ولو مرة واحدة حذو أمم مثلنا تمكن أبناؤها- بالاعتماد على أنفسهم- من تحقيق وجودهم في العالم؟

إنهما مفتاحان للنصر لا ثالث لهما.. فهل يكون هذا القرن بداية جادة للدخول بواسطتهما من الأبواب التي ظلت موصدة في وجوهنا عشرات السنين ومئاتها؟

وثمة ما يوحي بالأمل، فإن كسور الحضارة المادية المعاصرة وشروخها ستزداد اتساعًا وعمقًا عبر الأيام والسنين.. إن معاناتها المكثفة أخذت تتضح أكثر فأكثر في العقود الأخيرة، وهي لا ريب ستأخذ طريقها وفق متوالية حسابية، وربما هندسية، لكي تتضاعف على مستوى الكم والنوع على السواء.

والذي يؤكد هذا هم الغربيون أنفسهم، سواء منهم الذين انشقوا على هذه الحضارة وبدأوا يوجهون إليها نقداتهم، أم الذين يعيشونها يومًا بيوم فيقدمون بسلوكهم وتجاربهم مثلا حيا على الأزمة الضيقة التي تأخذ بخناقها.. وهؤلاء وأولئك ليسوا أناسًا عاديين أو همَلا ولكنهم من قادة الفكر ورءوس المجتمعات الغربية، وأقوالهم يجب أن تؤخذ على محمل الجد.. إنهم رجال من مستوى إشبنجلر وتوينبي وكولن ولسون وبرنارد شو وكامي وهمنغواي وماسينيون وارويل وكوستلر وجيوروجيو وليوبولدفايس وفيتز جيرالد وغروترود شتاين وسوليفان.. مؤرخون وأدباء وعلماء وفلاسفة، وقد وقفنا عند بعض شهاداتهم وحللنا دلالاتها في غير هذا المكان فلا داعي لإعادة القول فيها.. والمهم هو أن (الشهادات) التي تدين الحضارة العلمانية المعاصرة ستزداد تنوعًا واتساعًا عبر السنين القادمة، وستجعل إدانة هذه الحضارة أكثر عنفا ووضوحًا.

وفي مقابل هذه الشهادات والإدانات ثمة الكثير مما قاله الغربيون أنفسهم عن مستقبل الإسلام.. وهي أقوال يتوجب علينا ألا نحملها محمل الجدّ الكامل؛ لأن القوم- هناك- يتمنون ويتنبأون هروبًا من الأزمة التي تأخذ بخناقهم.. ولأن أقوالا كهذه قد تخدرنا عما نعانيه فعلا، وتعلق أحلامنا وأهدافنا وأمانينا باليوم الموعود الذي تغنى به الغربيون.. ولن يصنع اليوم الموعود إلا عقولنا وسواعدنا.. ومن ثم فإن أهم ما يمكن أن نفيده من شهاداتهم تلك هي تأكيد حقيقة أن العالم يعاني- فعلا- أزمة قاسية وأنه بحاجة- فعلا- إلى قارب النجاة.. قبل أن يموت أو ينتحر غرقًا..

والمسألة- كما هو واضح- ليست في إيجاد البديل، فهاهو ذا ساطع بَيِّنٌ كالشمس والقمر.. ولكنهم- لأكثر من سبب- لا يعرفونه تمامًا ولا يقدرونه تمامًا.. وإذن فإن المطلوب في العقود القادمة هو تحقيق القدرة على التوصيل..

إن الاستعداد للتقبل سيزداد اتساعًا مع الأيام.. والفراغ الناتج عن معطيات حضارة لا تعرف الله والإنسان سيزداد عمقًا.. والتاريخ يصنعه أحيانا توقيت ذكي لإصابة الأهداف.. وها هي ذي الأهداف المواتية تدعونا، فلنعد للأمر عدته، فإن

كسب رجل مثقف من عالم الغرب - رجل على مستوى جرمانوس أو دينيه أو ليوبولدفايس أو بوكاي - لهو كسب كبير يزيد في رصيد الإسلام مرتين، مرة بانتهاء الرجل إلى هذا الدين، ومرة بتوظيف قدراته لتوصيل اقتناعاته وآرائه الجديدة إلى بني جلدته بلغتهم نفسها واقتناعاتهم ذاتها..

* * *

ومع الأمل الذي تبعثه فينا حاجة العالم المعاصر إلينا.. ثمة إضاءات قرآنية تنقدح في طيات المستقبل الغامض كومضات النجوم الساطعة في السماء البعيدة.. وقد غدا الوميض البعيد، عبر مراحل متعددة من تاريخنا ذي الأربعة عشر قرنًا من العمر أمرًا واقعًا.. نارًا في قلب العالم، على مساحات واسعة من أرضيته... تحرق وتضيء في الوقت نفسه.. ولكن كيف؟

ليس بالأماني والظنون والأحلام.. يقينًا.. ولكن بالفعل والتحقق والتجريب والممارسة والجهد والمقاومة والحركة..

وما لم نعمل عقولنا وسواعدنا لإشعال النار المقدسة في صميم العالم، فإن قبسها سيظل معلنا هناك في السماوات النائية، حيث تغرق الدنيا في الظلام.. لننظر إليها ولنعرف الطريق الذي يتوجب أن نسلكه لتحويل الكلمات المضيئة إلى أفعال مضيئة، والنذر المتوعدة إلى نار مشتعلة.

﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾ [إبراهيم].

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الأنبياء].

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ ﴾ [الأعراف:١٣٧].

﴿ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف:١٢٨] .

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [القصص] .

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [النور:٥٥].

* * *

دين الحركة والمستقبل:

والإسلام هو دين الحركة.. والتقدم.. والتشوف الأبدي إلى الأمام.. إلى المستقبل.. من أجل إعادة الوفاق مع سنن الكون ونواميس العالم.. ونحن نتحرك باتجاه جديد يتوجب أن ندرك هذا جيدا- فالمسلم- إذا أردنا الحق- هو التقدمي الوحيد!!

إن الإسلام يمثل موقفا في قمة حركة التاريخ؛ لأنه دعوة لاكتشاف الحركة والتوافق معها.. ليس مع حركة التاريخ فحسب كما تسعى الماركسية، ولكن مع نواميس العالم والكون كله.. ولو شعر المسلم الجاد أنه يقف في موقف ساكن، أو رجعي، لغادره مباشرة.. وبكل قوة.. هذه القوة التي تنبثق من كونه ينتمي إلى العقيدة التي تجعل منه الإرادة الفاعلة في العودة بذاته وبمجتمعه وبالبشرية عمومًا إلى طريق التوافق والتقدم- من ثم- بزخم عظيم يتولد- بالضرورة- من التقاء الطاقات الإنسانية والمادية في إطار التوافق، وليس تصادمها وتقاطعها وتفتتها.. التقدم إلى كشف أعظم وخطوات أوسع وبناء أكثر ديمومة ورسوخًا يقام على هذا العالم..

لو أن المسلم الجاد شعر لحظة بأنه يقف في موقف رجعي أو ساكن لتخلى عنه توًا،

ولكنه يشعر بأنه يتحرك في قمة المسيرة التاريخية دائمًا؛ لأنه ملبٍّ لكلمة الله التي تقوده وتحدوه.. ومن، غير الله سبحانه، يقدر على تحديد مواقع الرجعية، والسكون، والتقدمية.. الله الذي يعلو على مواضعات الزمان والمكان النسبية، ويستشرف، بعلمه المحيط، صيرورة الكون والتاريخ والحضارات؟

لقد تحدث عشرات الوضعيين، بل مئاتهم، منذ عهد أرسطو وسقراط وأفلاطون، حتى عصر برجسون وديوي وتوينبي وسارتر، مرورًا بماركس وإنجلز وهيجل وكونت وبلاييف وغيرهم.. تحدثوا عن مفاهيم الحركة، وكلٌّ اتخذ موقفًا إزاءها، وحدد على ضوء موقفه ما هو رجعي ساكن (ستاتيكي) وما هو حركي تقدمي (ديناميكي).. موقفا يختلف بدرجة أو أخرى، عن مواقف الآخرين.. فمن منهم يا ترى يكون مصيبًا؟ ولماذا يكون ادعاء العلمية والصواب المطلق حكرًا على هذا المفكر أو الفيلسوف أو ذاك ما داموا جميعًا أعملوا عقولهم من خلال قدرات نسبية ومعرفة غير كاملة بالحقائق.. ثم أصدروا حكمهم بعد هذا؟

ليس ثمة فصل في هذا المجال.. كما هو الحال في أيٍّ من مجالات الفكر الوضعي فيما يسمى بدائرة العلوم الإنسانية التي يحلو لرجالاتها ادعاء العلم المطلق، وأن ما يطرحونه من فلسفات هو بمثابة كشف نهائي لسنن العالم والحياة.. على العكس من رجالات العالم المختبرين الذين علمتهم مناهج بحثهم العلمية حقًّا أن يتواضعوا فلا يقعوا في مظنة الادعاء.. والمسلم الجاد يرفض وصاية أحد من الوضعيين، ويرفض تصنيفهم للناس إلى رجعيين وسكونيين وتقدميين، كما يرفض تصنيفهم للحقائق والسنن والنواميس؛ لأنهم كما يصفهم القرآن ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ﴾ [النجم:٢٣].

والمسلم الجاد مقتنع حتى آخر قطرة من دمه، وأعمق خلية في دماغه، أنه يختار بإسلامه أكثر المواضع حركية وتقدمية في مسيرة التاريخ ونواميس الكون وخرائطه.. وأن جهاده الذي هو بمثابة ثورة دائمة، إنما هو إستراتيجية الحفاظ على هذا الموقع، ودعوة الإنسان في مشارق الأرض ومغاربها إلى اختياره.. وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الشورى].

* * *

هندسة جمالية للثقافة:

وماذا عن المسار الثقافي في قرن بلغت فيه إمكانات التخطيط والبرمجة والدقة المنهجية آفاقًا بعيدة.. ونحن لا نزال في قطاعات واسعة من معطياتنا الثقافية، نتخبط في الفوضى والارتجال واللامنهجية في وقت يتوجب علينا أن نستفيد إلى أقصى مدى ممكن من كل ما تضعه تحت أيدينا هذه الإمكانات من أجل أن نختصر الزمن الذي يفصلنا حضاريًا عن الآخرين، ومن أجل أن نوفر في الجهد الذي نحن بأمس الحاجة إلى سعراته لمواصلة السباق الدءوب..

إن الحديث في (منهجية) المسار الثقافي وضروراته يطول ويتشعب؛ ومن ثم سأكتفي ببعض الملاحظات المتواضعة علها تلقي إضاءات كاشفة على جوانب من المشكلة المنهجية، وتنير جانبًا محدودًا من طريقنا إلى المستقبل.

إنه يتوجب على المفكر الإسلامي الحديث أن يغدو (مهندسًا) يلتزم قواعد التقابل والتناظر والتناسب، ويعمل بموجب التوزيع الرياضي الصارم للأبعاد والمساحات، ويدرك أن (العمل الفكري) لا يستوي على سوقه إلا بأن يُلْتَزَم فيه شرطان أساسيان هما (العلم) و(الجمال)، أو المحتوى، والأسلوب، أو كما يقول قدماؤنا: (المعنى) و(المبنى). إلا أن المطابع – للأسف – تقذف لنا بين الحين والحين كتبًا ومؤلفات من هذا النوع وتختفي قيمه الواضحة المحددة وراء ركام من الكلمات والعبارات (الإضافية) التي لا تصل بالقارئ إلى أهدافه إلا بعد أن تجتاز به عشرات المنحنيات والدروب المعوجة.. وعندما يصل يكون قد أرهق.. غيرَ مستعدٍّ لتقبل الحقيقة النهائية التي سيكشف عنها النقاب آنذاك!!

وإذا كان هذا مباحًا لكتاب الأجيال الماضية.. حيث لم تكن أساليب البحث

الفكري ومناهجه قد نضجت واكتملت، فإنه يعد خطيئة كبيرة في العقود الأخيرة التي بلغت فيها تلك الأساليب والمناهج حدًّا واضحًا من النضج والاكتمال، وانتشرت في أنحاء الأرض بحيث أصبحت بداهاتها وقواعدها في متناول الجميع.

فإذا ما أضفنا إلى هذا ما يتميز به عصرنا الراهن من سمات أبرزها السرعة التي تتطلب التركيز، والتوغل البعيد في ميادين العلوم جميعًا مما يستلزم طرح أفكار وسبر أغوار، بعيدًا عن الترهات البلاغية والمبالغات الإنشائية، كان لنا أن نعرف مدى ضرورة أن يتحول كل كاتب منا إلى (مهندس) يعتمد أدوات (اللغة) المناسبة لإيصال أكبر قدر من الأفكار إلى عقول المثقفين ونفوسهم؛ إذ يجب أن يكون هناك ترابط عضوي وتسلسل منطقي بين الكلمات والجمل والفقرات والفصول، بحيث إن أي تغيير في وضع واحدة منها، تقديمًا أو تأخيرًا، يقود إلى تفكك في البحث واضطراب في صياغته، رغم أن أبحاثًا كثيرة تطرح، ولشدة تفككها وعدم تماسكها، فإن بإمكاننا أن نجري تغييرًا في مواضع لكلماتها وجملها وفقراتها وفصولها دون أن يلحق بالبحث أي أذى، تمامًا كما يبني إنسان ما بيتًا كثير الحجرات والردهات، وهو لا يعرف عن علم الهندسة المعمارية شيئًا، ومن ثم فإن التفكك والفوضى، وانعدام التناظر واختلال التناسب، سيمكّن أيَّ إنسان من أن يجري تغييرًا في التصميم المرتجل دون أن يلحق بالبيت أيَّ أذى.

إن الكلمة الزائدة التي لا تخدم معنى في الجملة يجب أن تستبعد، والجملة العابرة التي لا تأخذ مكانًا مناسبًا في الفقرة يجب أن تلغى، والفقرة المرتجلة التي لا تؤدي دورها البنائي إزاء رفيقاتها يجب أن تهمل، ومجموع الفقرات التي لا تحمل في طياتها فكرة جديدة أو عنصرًا أساسيًّا في البحث، يجب ألا يأخذ أية مساحة على الورق..

ليس هذا فحسب بل إن البحث بمجموعه، إن لم يضف جديدًا إلى ميادين الثقافة الإسلامية، يجب ألا يهدر فيه أي جهد بإمكانه أن يصرف في طرق باب جديد، أو التحرك إلى أفق لم يصل إليه أحد قبلا، أو يكشف عن حقيقة نحن في أمس الحاجة -في السباق الزمني الراهن- للكشف عنها.. والمؤمنون كما يصفهم القرآن ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ

﴿فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ٦١﴾ [المؤمنون]، وأي خير أكثر من أن ندخر جهودنا وطاقاتنا الخلاقة لكي نسارع بها في ميدان الفكر، بدلا من أن نجتر الأبحاث المتشابهة ونبدأ فيها ونعيد.. وبدلا من أن نعالج الموضوع الواحد أكثر من عشرين مرة ونحن نتمطى أو نتثاءب ونعاني الملل، تمامًا كما يحدث لمن يصلي الجمعة فيستمع إلى خطبةٍ أصبحت – لتكرارها- تبعث على الخدر وتدفع إلى النوم دفعًا؟!

ولنتصفح على سبيل المثال أية مجلة إسلامية؛ فإننا سنجد- إلا في قلة نادرة منها- أبحاثًا وموضوعات مكررة، وبخاصة تلك التي تنشر في (المناسبات الإسلامية) كالمولد والهجرة والإسراء ورمضان والحج والأعياد.. وهي موضوعات تحمل في طياتها خطيئتين بحق الفكر الإسلامي والقارئ المسلم، أولاهما: إنشائيتها الفاضحة وعدم احتوائها على قدر كاف من الأفكار والتصاميم الذهنية، وثانيتهما: تكرارها الآلي وتضييعها لجهود ما كان لها أن تضيع لولا هذا التكرار.

وليس معنى أن يكون المفكر المسلم (مهندسًا) دعوته إلى التخلي عن (القيم الجمالية) في معطياته أبدًا.. إن (الجمالية) هي إحدى مرتكزات الهندسة نفسها، فالهندسة – كما هو بديهي- ليست نقيضًا للجمال، بل إنَّ الرياضيات في أساسها- وهي التي أقيم البناء الكوني وفق مقولاتها – تعد بذاتها تناسبًا جماليًا باهرًا؛ ومن ثم يتوجب على المفكر المسلم ألا يغفل – وهو يطرح أفكاره وفق أشد المناهج صرامة في هندسيتها – عن المتطلبات الجمالية التي يقتضيها المنطق الهندسي نفسه.. وهي متطلبات ترتكز على (لغة) قلت نظائرها بين اللغات، تتيح للباحث مجالا انتقائيًا واسعًا لتوصيل (أفكاره) بالأسلوب المتماسك الواضح الجميل.. ابتداء باختيار (الكلمات) المناسبة وانتهاء (بالنفس) اللغوي الذي يعطي للبحث شخصيته (الفنية) المستقلة، مرورًا بالتراكيب الجميلة والعبارات والفقرات والفصول.

إن بعض مثقفينا قد ابتلوا للأسف بالنظرة التجزيئية للمواقف والأفكار والأشياء، وعدموا الرؤية الشمولية التي لا يتم بدونها تقويم موضوعي لأية قضية من القضايا المتجددة في ميادين الفكر والحياة.. وهؤلاء لا يستطيعون إلا أن يفصلوا بين الفكر

والجمال، ويقولون: إما هذا أو ذاك.. إما عطاء فكريًا جافًا جفاف القوانين صارمًا صرامة التحليلات الفقهية، وعرضا للحقائق الإنسانية والتاريخية بأبسط الأساليب وأقربها إلى ذهن القارئ، مهما كانت على درجة من الفجاجة والبدائية.. وإما كلامًا فنيًا إنشائيًا يعتمد مقولات البلاغة وتهاويلها وزخرفها، ويطيل الطريق على القارئ بهذه التهاويل وتلك الزخارف التي لا تحوي في طياتها قيمًا حقيقية ولا أفكارًا جادة..

* * *

بين التراث والمعاصرة:

وما دمنا بصدد الحديث عن المسار الثقافي، فإنه يتوجب علينا أن نسأل أنفسنا، أين الأدباء الكبار في عطائنا الإسلامي المعاصر؟ لماذا لم يبرز شاعر كبير أو روائي كبير أو ناقد كبير، كبير على المستويين العربي والإسلامي والعالمي على السواء؟.. لماذا برز هؤلاء عبر كل المذاهب والاتجاهات، دينية ووضعية ولم يبرزوا عندنا؟

إن أي واحد منا يستطيع إذا شاء أن يعثر على عمل فني أو أدبي كبير يعبر عن الموقف اليهودي أو المسيحي أو القومي أو الوطني أو اللوني أو الطبقي.. أعني عملا كبيرًا بمعنى الكلمة، شكلا ومضمونًا.. في الرواية.. في القصيدة.. في المسرحية.. في النقد.. وفي أي فن يعتمد الكلمة المعبرة جسرًا لنقل التجربة والرؤية البشريتين إلى الآخرين..

من منا لم يسمع – على سبيل المثال– بشاعر المقاومة الفرنسي (أراغون) وبالقاصّ الروسي (غوركي)، وبالروائي الماركسي (شولوخوف) أو غريمه الليبرالي (باسترناك) أو بشاعر الشيوعية (مايكوفسكي)؟ ومن منا لم يسمع برواية (جيوروجيو) (الساعة الخامسة والعشرون) ذات النفس اليهودي الخفي، أو بقصة (هنري سيرويا) (الحقيقة ولدت في المنفى) ذات الإيحاء المسيحي الشاعري العميق؟ وغير هؤلاء من الذين لم نورد أسماءهم إلا على سبيل المثال، عشرات بل مئات..

لا يقل أحدكم: إن هذا بسبب هزائمنا المستمرة في العقود الأخيرة، وبسبب

الضغوط الثقافية والسياسية الهائلة التي لا تطاق، والتي سلطت بكل أسلوب لسحق أي نشاط إسلامي وقتله في المهد. فهذا الكلام غير مقبول لأن الأدباء الكبار يبرزون دائما في قلب الهزائم.. وعلى وهج النار الممحصة تلتمع قرائحهم كالنجوم الوضاءة في أعماق الليالي لكي تبث ضوءها الأزرق الجميل على الكائنات، وتمنح إبداعها وروعتها لكل راء.

ولا يقل أحدكم: إن ذلك يكمن في موقف الإسلام نفسه.. فمن العبث – وقد انتصر الإسلام بقوة (الكلمة) القرآنية المعجزة في قدراتها التعبيرية، وفي جماليتها الساحرة شكلا ومضمونًا – أن نناقش رأيا سخيفًا كهذا!!

وباستطاعتنا جميعًا، بعد تهافت هاتين الحجتين، أن نبحث عن الأسباب.. ولعل أكبرها يكمن في مثقفينا أنفسهم، في تكوينهم الفكري وتجربتهم النفسية، وفي قوائم الكتب التي يطالعونها.. إن معظم هؤلاء الذين نسميهم – تجاوزًا– بالمثقفين لا يقرءون – منذ لحظة تفتح وعيهم على القراءة، واتصالهم الوثيق بالكتاب – إلا الكتب التراثية.. ولا يتوسعون وينفقون ساعاتهم الغالية إلا في نطاق معطيات القرون الأولى.. فإذا ما قرءوا أدبًا فإنهم لا يقرءون إلا للجاحظ أو ابن المقفع أو ابن عبد ربه أو الأصفهاني أو ابن الجوزي.. وتراهم غادين رائحين إلى الكازينوات والمكتبات والنوادي وهم يحملون – محنيي الظهور، منكسري الأنفس– مجلدات التراث المغبرة الصفراء، وتلوك ألسنتهم باعتزاز كتاب (الحيوان) أو (صفة الصفوة) أو (البيان والتبيين)..

إنهم يعيشون في عصر آخر غير عصرنا.. لقد توهموا أو أوهموا، أن الفكر الحقيقي لا يخرج عن نطاق تراثنا أبدًا، وأن الذي يريد أن يتثقف – بحق– فإن عليه أن يتجاوز معطيات الإنتاج المعاصر وألا يثقل نفسه به لحظة واحدة، فكرًا كان أم أدبًا أم فلسفة أم فنًّا.

والحق أننا نستطيع أن نتلمس في نفوس هؤلاء إحساسًا مزدوجًا ما كان لهم أن يقبلوه لحظة واحدة.. إنهم – من جهة– يرون أية مطالعة في معطيات الفكر والأدب الحديث خطيئة ودنسًا لا ينسجمان وحسهم ونظرتهم الروحية إلى الحياة..وهم من جهة

أخرى يرون المطالعة في كتب التراث نوعًا من التطهر والتقوى يتقربون بها إلى الله.. فما دمت أرهق نفسي في مطالعة كتاب – يقول أحدهم- فلماذا أقرأ كتابًا يبعدني عن الله؟ ولماذا لا أجعل عملية المطالعة نفسها جزءًا من عبادتي وتقواي؟ ثم ماذا تكون النتيجة؟ إنها هذا الفراغ المحزن الذي نراه في عطائنا الأدبي المعاصر.. إن هؤلاء المثقفين – وقد عاشوا عصرًا غير عصرهم، وتعاملوا مع كلمات وتعابير كانت مناسبة لبيئتها، مستجيبة لمتطلباتها التعبيرية، لكنها غدت غير مناسبة لبيئتنا نحن، بل مستعصية على متطلباتنا وبداهاتنا التعبيرية – سرعان ما يجدون أنفسهم بعد رحلة سنين طويلة في ميدان العلوم النقلية وكتب التراث غير قادرين بالمرة على أن يكتبوا حرفًا واحدًا أو يبدعوا أثرًا أدبيًّا باقيًا.. وكل ما يستطيعه أي واحد من هؤلاء، بعد كل ما جناه من سني الكد والسهر والعناء، هو أن يبدي إعجابه المتزايد بديباجة ابن المقفع، وجزالة الجاحظ، ونقدات ابن الجوزي!!

وهذا التشبث (المتخفي) بالتراث، والانقطاع المحزن عن تيار الفكر المعاصر وصخبه واندفاعه وحيويته وتمخضه الدائم، لا يسلب مثقفينا هؤلاء القدرة على التعبير أو يجردهم من أداة التواصل الإبداعي مع الناس فحسب، إنما – وهذا هو الأخطر- ينفي أية تجربة وجدانية أصيلة في نفوسهم، ويجمد أي تفجر إبداعي في تجربتهم الذاتية، ويصدهم بالكلية عن النظر إلى أعماقهم حيث يكمن الموقف الحقيقي الذي يصنع الآداب ويبعث الفنون؛ ومن ثم فهم يخرجون على الناس بعد رحلتهم الخارجية (الساكنة) مع التراث وقد انفصمت شخصيتهم، فانهال غبار القديم على ذواتهم الباطنية الأصيلة، ولم يعودوا يرون أو يتعاملون إلا مع شخصيتهم الثانية المتخفية المعلقة دوما على رفوف المكتبات القديمة، والمتأبطة- أبدا- كتب أناس ماتوا منذ مئات السنين ولم تعد معطياتهم تبعث رجفة الإبداع والتدفق في نفوسنا؛ لأنهم عاشوا في عصر غير عصرنا وكتبوا بلغة غير لغتنا.

باختصار.. إن مثقفينا لم يمتلكوا مقومات التجربة الإبداعية الذاتية التي تتفجر عن الرؤية الإسلامية – قصة أو رواية أو مسرحية أو قصيدة أو عملا نقديا- التجربة

التي كتبها التحرك الطويل في الدهاليز المظلمة، وحنطتها الروح المتخفية الساكنة، وفصمها عن الواقع المتغير ذلك التشبث بالعصور القديمة والذي يقرب بأصحابه حينا من الوثنية الفكرية والعبودية التي لا تعرف التحرر من أسر التراث.

والبديل الذي نسد به بعض مساحات فراغنا الأدبي المعاصر، معروف.. أن يتحرر مثقفونا من عبوديتهم للتراث، وأن يستأصلوا من نفوسهم عقدة الخطيئة إزاء معطيات الأدب العالمي الحديث.. أن يعيشوا عصرهم ويعتمدوا لغتهم.. أن يعودوا إلى ذواتهم لكي ينظروا ويعمقوا وعيها الباطني وتجربتها الإبداعية التي تكمن وراء أي عمل أدبي أو فني كبير.. وقد علمنا رسول الله ﷺ أن: «الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها التقطها»...

ولا يحمل هذا الكلام أي معنى لدعوة ترفض التراث بالكلية؛ لأن معنى هذا هو التنازل عن شخصيتنا التي تميزنا عن الأمم، والتنكر لماضينا الذي نستمد منه القدرة على البقاء.. ولن يقول بهذا إلا خائن أو مهووس.. والذي نطرحه شيء غير هذا بالمرة.. ويبقى البديل.. هو أن نعيش عصرنا من خلال رؤيتنا الإسلامية وحدها.. وألا يستعبدنا التراث.

* * *

الكلمة... وسلاح التغيير:

ونحن نتحدث عن الأديب الإسلامي تحضرنا مقولة سارتر: (**إذا لم يكن الأديب حليفا للمظلومين فلن يكون إلا شريكا للظالمين**)..

ويسأل المرء نفسه: من أحرى من الأدباء الإسلاميين بالتزام هذه المقولة؟ من أجدر منهم بمعرفة حقيقة أنهم إن لم يكونوا مع المظلومين كانوا مع الظالمين؟

إنه لا يوجد موقف وسط بين الحق والباطل، ساكن غير متحرك.. إن الإنسان والأديب، بالأحرى (الكلمة)، فعل - كما يقول سارتر نفسه - لا يعدو أن يكون مع الظالم أو المظلوم، تبريرا للظالم أو إنصافا للمظلوم.. إن الكلمة (تغيير)، هي في فاعليتها تذكرنا بحديث الرسول ﷺ: «**من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فمن لم يستطع فبلسانه، فمن لم يستطع فبقلبه، وهذا أضعف الإيمان**»!! فالكلمة هي الحد الوسط بين

اليد وبين الرفض الباطني الصامت. وهذه الأفعال الثلاثة – على كل حال – تمتلك فعلا قديرا على التغيير.. إن الرفض الصامت هو الآخر (عمل) من أجل التغيير.. تهيئة وتمهيد للكلمة الغاضبة واليد الضاربة.. ومن ثم فإن موقف الأديب هو تحميل الكلمة كل ما تستطيع حمله في عملية التغيير.. وهو تغيير (ديناميكي) أبدي مادام هناك ظالم ومظلوم.. وقد طرح رسولنا ﷺ هذا البعد الديناميكي لكي يغطي كل زمان ومكان دونما توقف. والمعروف والمنكر يصطرعان ويتبادلان المواقف كاصطراع الليل والنهار وتبادل الشمس والقمر.. والجهاد ماض- بتعبير الرسول ﷺ - إلى يوم القيامة..

وهنا نلتقي مع كل حركة (التزام) تسعى إلى تحميل الكلمة مسئوليتها في تاريخ الإنسان وحركته صوب الحق والعدل، ولكننا نفترق مع هذه الحركات (كالماركسية والوجودية..) في تحديد طبيعة الظلم ومساحته، فالشيوعية ترى مساحته مقصورة على حاجة الإنسان إلى الطعام.. على طاغية يتخم وفقير يموت جوعا.. والوجودية تراها كذلك بدافع مركب نقصها إزاء الماركسية وتضيف إليها مسألة (الحرية) المتبادلة بالالتزام.. والكلمة تجيء إذن لتعزيز حرية الإنسان وهو يناضل من أجل أن يسمح له أن يكون (موضوعا) ديناميكيًا (ذاتًا) ساكنة (إستاتيكية).. دون أن يدري هؤلاء أن إطلاقًا كهذا يقود إلى ارتطام الحريات والمشاريع والذوات المتحركة اعتمادا على فردية الإنسان وتوحده وعدم تشابهه- أساسًا- مع الآخرين..

أما الإسلام فيرى أن الظلم الواقع بالإنسان يشمل دائرة أوسع بكثير من دائرة الحاجات الأساسية المكبوتة، أو الحرية التي تحيل الإنسان إلى (مشروع) دائم التغيير والتمخض دون أن يرتكز على قيم ثابتة ومحور واحد، مما يؤدي حتما إلى التشتت والتميع والضياع الذي نجده واضحا في التطبيق العملي للوجودية وفي الترجمة اليومية للنظريات التي يقول بها الوجوديون..

الإسلام يرى أن (الظلم) هو في إخراج الإنسان عن موقعه (الطبيعي) والأساسي في خارطة الكون، في تدمير انسجامه مع نواميس العالم والخليقة، في تحويله عن (حريته) و(توازنه) و(توحده) إلى العبودية والتأرجح والتمزق.. وهذا إنما يجيء – دوما- على

يد (الفئة) أو (الطبقة) أو (الجماعة) أو (الفرد) الذي يسعى إلى إلحاق هذه المآسي بالإنسان من أجل أن يتأله هو في الأرض ويحقق مطامحه على حساب بني آدم... وهو - أو الطبقة أو الفئة - لن يهمه - أو يهمها - النتائج المتأتية من جراء هذا (الظلم) الواقع على الناس بإخراجهم عن مواقعهم الطبيعية وانسجامهم وتدمير توازنهم وحريتهم، ما دامت النتيجة في صالح الفئة أو الطبقة التي انتزعت لنفسها حق القيادة والتأله، وسحبت صفة العبودية على جميع الناس لكي يتحولوا إلى قطيع لا تزيد فاعليته في الأرض على تقديم عطائه وجهوده ثمارا سائغة للقلة المترفة المستعبِدة.. ومن ثم فإن دور الأديب المسلم والمفكر المسلم هو الحركة الملتزمة جانب المظلومين جميعا من أجل عودتهم إلى مواقعهم الطبيعية وانسجامهم، ومن أجل استرداد حريتهم وتوحدهم وتوازنهم، والجهاد الدائم ضد كل الطواغيت الذين يسعون في الأرض فسادا ويؤلهون أنفسهم من دون الله، ويستعبدون الناس ظلما وزورا.. هذا الموقف الملتزم الذي يعمل على أوسع مساحة عرفها الصراع بين الظالمين والمظلومين، مرورا بمسألة الطعام والشراب والقيد الاجتماعي والحرية، وانتهاء بالأفق الواسع الذي يختفي فيه الظالمون جميعا، وحتى يتحرر المظلومون من قيود القهر والعبودية.. ومن هنا نجد تنبيه القرآن الكريم دوما إلى أهمية الآخذ على يد هذه الفئة الظالمة وإلا عمت البلوى كل الناس.. ظالمين كانوا أو مظلومين ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنفال].

ومن هنا- كذلك- أكد القرآن على أن الشعر الحقيقي هو الشعر الملتزم قضية الإيمان والانتصار على الظلم ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ﴾ [الشعراء].. وهذا هو أصدق تعبير عن مسألة التزام الكلمة، لكونها لا تحمل إيجابيتها إلا بأن تكون (فعلا) يلتزم ويثور.. يؤمن ويتحرك.. ويظل دائما على خط المظلومين حتى يتحقق لهم الانتصار على الظالمين...

* * *

والشباب المسلم هم الذين سيبدءون صياغة العقود الأولى من القرن الجديد.. وهذه الكلمات موجهة إليهم.. ومن دمائهم الحارة وإخلاصهم العميق تكتسب دفقها وإخلاصها ووضوحها..

تماما.. كما انتصر أجدادنا عبر معارك القرون الماضية.. فإننا سننتصر مرة أخرى عبر معارك القرن الجديد، بمجرد أن نستكمل الأسباب: إيمانا جادًا، وعزيمة صادقة، وعطاء دائما، وإعمالا مبرمجا للقدرات والطاقات التي منحنا الله إياها.. وما أكثرها وأغزرها لمن يعرف كيف يفيد من منحة الله!!

إنه ليتوجب علينا أن نتعلم من تجربة التاريخ.. وإن القرآن الكريم ليذكرنا بهذا المرة تلو المرة ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١١)﴾ [الأنعام] ، ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٦٩)﴾ [النمل]، ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الروم:٤٢]... وحينذاك سنعرف، كيف نفيد من عامل الزمن، وكيف ننطلق إلى أهدافنا بإدراك أشد إضاءة وفهم أكثر عمقا.. ولن يستطيع أحد أن يذلنا ويفرض علينا مواقع التبعية والصغار.. فالذي تخرجه مدرسة الأربعة عشر قرنا لا يمكن أن يذل ويخضع، والذي يتربى في جامعة القرآن لا يمكن إلا أن يكون عزيزا ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨].

إن الأجيال التي سبقتنا على الطريق الطويل لم تألُ جهدًا في هذه الجبهة أو تلك، وإن علينا أن ننطلق عبر العقود القادمة بسرعة أكبر بما نملكه من تراكم في الخبرة، وبما تحتمه علينا معضلة تجاوز الفارق الزمني الحضاري بيننا وبين الخصوم.. وبما يأمرنا به ديننا من ضرورة المسابقة في العطاء حيث تغدو في معاييره الأصيلة جزءًا من مطالب الإيمان ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء:٩٠]، ﴿وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران:١١٤] ، ﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٦١)﴾ [المؤمنون].

وإذن فإن ثمة ما يملأ قلوبنا بالأمل ويترع نفوسنا باليقين.. إن هذا القرن-إذا عرفنا كيف نعد العدة- سيكون قرنًا أكثر من سوابقه أهمية وحسما في تغيير خارطة العالم، فيما يعيد لهذه الأمة المبعثرة الممزقة المنكودة الكثير مما فقدته.. بعد أن أصبحت في قعر الهزيمة بتسلط اليهود على رقاب المسلمين؟!

إن العالم كله ينتظر اليوم إشارة الخلاص..

ليس ثمة مكان في هذا العالم لا يتعذب اليوم.. إنه - وقد آثر منذ قرون بعيدة التمرد على هدى الله وشريعته - كان لابد أن ينال عقاب تمرده وعصيانه..

إنه عقاب الفطرة لمن يتمرد على الفطرة..

وعقاب الطبيعة لمن ينشق عن نواميسها..

وعقاب الكون لمن يبحر ضد سننه..

وعقاب الله لمن يتحدى كلمته التي لا رادَّ لها..

لقد طف الصاع وبلغ السيل الزبى.. وإننا بمجرد أن نمر مسرعين على صحف العالم ووسائل تعبيره.. سنرى بأم أعيننا ونلمس بكلتا يدينا ما يعانيه العالم من عذاب وما يحيط به من فساد، فها هي المقولة القرآنية تبرز ثانية في قرننا هذا ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الروم:٤١] ولن يكون الرجوع إلا بهذا الدين..

إن العالم كله ليس بأقل حاجة من المسلمين أنفسهم إلى (منهج) يعرف كيف يعلو بهم على العذاب والفساد.. كيف يضعهم في قلب دنيا جديدة نظيفة التربة، نقية الهواء، ممتدة الآفاق.. وإن القرن الخامس عشر هو قرن التجربة حقا.. وإنه لجهد مزدوج يتوجب على المسلمين أن ينوءوا بحمله الصعب والعودة بأنفسهم وبالعالم كله إلى مرافئ الإيمان السعيدة المتوحدة.. من أجل حياة أجدر بالإنسان..

فليكن القرن الخامس عشر قرن الكدح اللاحب والعطاء الموصول والبذل السخي

الذي يكسر الحلقة المفرغة التي تحيط بالعالم..ويخرج به من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٤٠].

* * *

فيا أيها المسلمون في كل مكان..

إنكم أحفاد أولئك الرواد الكبار الذين ملأوا أربعة عشر قرنا من الزمن بالإنجاز.. والإبداع.. والمجازفة.. والكشف..والتحقيق.. والانتصار..

ولن يعجزكم شيء إذا خلصت النية واشتعلت فتيلة الإيمان.. إن جيلا يتسلم الراية ليمضي بها صوب قرن جديد لهو جيل سعيد بالموقع الذي وضعته إرادة الله فيه.. وإنه لشرف عظيم أن تحمل سواعدكم كتاب الله وسنة رسوله إلى عالم مرهق مكدود، يتحرك منذ زمن بعيد في طرق مسدودة ويطرق أبوابًا مقفلة لن ترد ولن تستجيب.. ولن يكون الباب الوحيد المفتوح سوى باب هذا الدين.. وإنه لقدير حقًا على أن يستوعب البشرية المطحونة كلها.. دخولا إلى الساحة الوضيئة المتوحدة التي تطهر وتسعد وتزكي..

ولن يدخل أحد من بابكم الكبير ما لم تعلموه كيف يكون الدخول..

* * *

مستقبل الإسلام في ضوء التحديات الراهنة

١- مقدمات ضرورية

لا يكاد أحد يجادل في أن الطرفين، المسلم والآخر، شاركا في تقديم صورة غير موضوعية عن الإسلام.. صورة لم تكن بمستوى المشروع العقدي الحضاري الذي جاء هذا الدين لكي يحرّر به الإنسان والعالم، ويعيد صياغتهما بما هو أكثر توافقًا وانسجامًا مع إنسانية الإنسان ومغزى الوجود البشري في الأرض.

فمنذ عصور انكسارنا الحضاري، عبر القرون الأخيرة، وعوامل السوء تتجمع في ديارنا، بما صنعته أيدينا، لكي تحفر خندقًا بيننا - كأمة - وبين هذا الدين بأبعاده وحيثياته كافة.. وراح هذا الخندق يزداد عمقًا واتساعًا بمرور الأيام.. أمة قزمة إزاء مشروع عملاق أكبر من حجمها بكثير!

وما لبث الاستعمار، بصيغتيه القديمة والجديدة، أن فرض هيمنته على جغرافية عالم الإسلام، ومارس مباشرة - أو من خلال السلطات المحلية التي نصبها في عواصمنا - واحدة من أبشع صيغ القسر والاستلاب، لتأكيد فك الارتباط بين المسلمين وبين عقيدتهم ومشروعهم الإنساني الكبير.

وبرؤية (هوبزية) تعتمد العنف والتطرف وسحق الطرف الآخر مارس الاستعمار ووسطاؤه من حكام الديار الإسلامية - بل حتى النخب المثقفة والأحزاب السياسية التي دانت لفكره بالولاء - إرهابًا قلّ نظيره في التاريخ.

وعلى المستويين الخارجي والداخلي وجد المسلمون أنفسهم، شعوبًا وجماعات، إزاء ما يسمى (بإرهاب الدولة) الذي لا تكاد تبلغ عشر معشاره كل أنماط العنف والتطرف التي يسميها الإعلام المضاد بالإرهاب!

في الجهة الأخرى، لم تتح للغربي الفرص المفتوحة للاطلاع على حقيقة هذا الدين وإدراك رؤيته التحريرية ومشروعه الحضاري، وتأكيده على قبول (الآخر) والتعايش معه.

ثمة نوافذ كانت تنفتح بين الحين والحين للاطلاع على الحقيقة الإسلامية نبيًّا وقرآنًا أو عقيدة أو شريعة أو حضارة أو تاريخًا.. وكان هذا – على ضيق فضائه – يدفع الآخر: مثقفًا أو مفكرًا أو عالمًا أو إعلاميًّا أو سياسيًّا، إلى إبداء دهشته وإعجابه بهذا الدين، وربما الانتماء إليه.

ولكن المساحة الأوسع ظلت مقفلة أمام العقل والوجدان الغربيين.

ولعل الهيمنة على وسائل الإعلام ومواقع التأثير الأساسية في العالم من قبل خصوم هذا الدين وذوي المصلحة في تحجيمه، وبخاصة اللوبيات اليهودية، والقوى المسيحية المخترقة بالأساطير الإسرائيلية – كما يسميها جارودي – مارست، ولا تزال، الدور الأكبر في التعتيم وإقامة الجدران العازلة بين العقل الغربي وحقيقة الإسلام.

ومع هؤلاء، كان هناك ما يسمى بالمركزية التي تنظر بعين عوراء إلى العالم، وترى أن الحضارة الغربية بجذورها اليونانية هي الحضارة الوحيدة القديرة على التجدّد والتنامي، وأن أوربا، وأمريكا بالضرورة، هما المركز الذي تدور حول قطبه تواريخ الأمم والشعوب وحضاراتها كافة.

أى أن ثمة رؤية فوقية كانت تتحكم بصيغ التعامل الغربي مع (الآخر).. وبخاصة الأمة الإسلامية.. وقد زادها التفوق التقني الأسطوري - وبخاصة في مجال القوّة، وتفرّد القطبية الأحادية الأمريكية بقيادة العالم، وآليات العولمة المتصاعدة – عنفًا وسعارًا، فيما شهدنا نماذج منه في فلسطين المحتلة وأفغانستان والعراق.

هذا كلّه دفع الكثيرين من أبناء هذه الأمة وحكامها إلى أن يدخلوا – مرغمين حينًا وباختيارهم في أكثر الأحيان – قفص الاتهام لكي يدافعوا عن أنفسهم في قضية خاسرة ابتداءً، باعتبار أن الطرف الآخر هو الخصم والحكم في الوقت نفسه.. وباعتبار أن حيثيات الاتهام قد استكملت أسباب الإدانة، بعيدًا عن كل (الأساليب) المتعارف عليها.

إزاء هذا الوضع (اللا معقول)، إذا استخدمنا مصطلح المسرحي الفرنسي الطليعي

(يوجين يونسكو).. يتحتم على المثقف المسلم أن يمارس جهدًا متواصلا لإعادة الأمور إلى نصابها، والخروج بالعقل المعاصر من دائرة اللا معقول هذه.. وذلك بالسعي لإزاحة كل العوائق والسدود التي أقامتها العوامل آنفة الذكر بين الحقيقة الإسلامية وبين واقع المسلمين أنفسهم، من أجل استعادة الدور الضائع، أو المعطل، للمشروع الإسلامي الذي هو - في بدء التحليل ونهايته - مركب الإنقاذ الوحيد للإنسان والبشرية، وبخاصة بعدما تبيّن للناس، عبر نصف القرن الأخير، سقوط جلّ المشاريع الوضعية والدينية المحرّفة، وقدرة هذا الدين - بالمقابل - على الاستمرار وتقديم الوعد بصياغة الحياة التي تليق بالإنسان.

٢- ملاحظات في وضع الأمة

الجذور والاحتمالات الممكنة

ابتداءً.. علينا أن نتجاوز الرؤية أحادية الجانب، أو النظر إلى الظاهرة من زاوية واحدة، وحينذاك قد نجد في وضع الأمة المسلمة في اللحظات الراهنة سياقات صاعدة وأخرى منحدرة، وبمتابعة عوامل الصعود والانحدار يمكن أن نضع أيدينا - وبشكل تقريبي - على خرائط هذه الأمة في القرن الخامس عشر الهجري الذي أطلّ على البشرية منذ ثلاثة عقود.

وبالمنهج نفسه يمكن أن نتابع كل سياق، وسنجد حينذاك أن حالة الانحدار لا ينفرد بها عامل واحد، وكذلك حالة الصعود؛ فقد يطغى عامل أو أكثر في مرحلة أو بيئة ما - لسبب أو آخر - فتتضاءل إزاءه - أو تغيب - العوامل الأخرى، ولكن تبقى الظاهرة في معظم الأحيان وليدة عوامل شتى.

إن ما وصلت إليه الأمة في لحظاتها الراهنة ينطوي على تراكم في الخبرة تعلمت منه الكثير، لكنه يضم جناحيه في الوقت نفسه على حشد من الأخطاء الكبيرة والممارسات المنحرفة عن سويّتها، والتي مارست جميعًا إعاقة وشدًّا باتجاه ما يمكن تسميته بنقطة الصفر أو ما دونه، فجعلت الأمة - أحيانًا - تتقدم خطوة وتتراجع اثنتين، لكن هذا لم يكن القاعدة دائمًا، سواء بمستواها التاريخي المنظور أو الجغرافي أو الغيبي (الميتافيزيقي)،

فقد يحدث صعود هنا وانحدار هناك في اللحظة الواحدة، وقد تتجاوز خطوات الصعود مديات الانحدار، فالتاريخ كما هو معروف لا يقاس بالمسطرة والفرجال.

ومهما يكن من أمر فإن الوضع الذي بلغته الأمة منذ العقد الثاني من القرن الماضي لا تحسدها عليه أمة أخرى في العالم، بمعنى أن عوامل السلب احتلت فيه مساحات ليست بالهيّنة. وهذه العوامل لم تتشكل من فراغ ولم تبرز على حين غفلة، وإنما تشكّلت على مكث وراحت تتنامى في الكمّ والنوع عبر عقود بل قرون من الزمن لكي تصل بالأمة إلى الوضع الذي تقبل فيه بلسان الحال أو المقال الصلح مع إسرائيل مقابل فتات من الأرض المغتصبة لا تكاد ترى على الخارطة.

لابدّ إذن من متابعة الخبرة التاريخية؛ فقد يكون في عمقها الزمني ما يلقي الضوء على أسباب التخلّف والانهيار؛ ولذا فإننا سنقف لحظات عند هذه النقطة بالذات.

فمنذ زمن بعيد قد يمتد إلى تسعة قرون أو عشرة فكّ الكثير من المسلمين الارتباط بين الإيمان ومقتضياته العملية وراحوا يتعاملون معه برؤية إرجائية تكتفي بالحدّ الأدنى، وتعزل العبادة عن فاعليتها في الأرض، أي أنهم مارسوا حالة معكوسة، فبينما أراد الإيمان (الإسلام) أن يضعهم في بؤرة الفاعلية.. أن يجعلهم حاضرين في دائرة الفعل والإبداع - أي متحضرين - اختاروا هم أن ينسحبوا شيئًا فشيئًا وأن يتركوا الفاعلية لخصومهم (في الداخل والخارج) وأن يتحوّلوا بمرور الوقت إلى كمّ لا يملك قدرة حقيقية على الصيرورة والتنامي، وبالتالي لا يملك ثقله في مجابهة التحديات التي راحت تتداعى عليه من كل جانب حتى وصلت بالأمة إلى الهزيمة المؤكدة على أكثر من مستوى، وقد سبق أن حذّر من ذلك رسول الله ﷺ في حديثه الشريف: «**يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها**»، فلما سأله أصحابه (رضوان الله عليهم): أمن قلّة نحن يومئذ يا رسول الله؟ كان جوابه: «**بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل**».

ومع الموقف الإرجائي سادت روح التقليد والاتباع بدلا من التجديد والاجتهاد

والإبداع التي وضعت الأمة المسلمة في الصدارة بين الأمم بسبب قدرتها عبر القرون الإسلامية الأولى على الكشف والابتكار والإضافة النوعية والبحث عن الجديد في السياقات الحياتية والمعرفية كافة. ها نحن الآن في القرون التالية قبالة سيل من الحواشي والذيول والتهميشات التي لا يجد أصحابها في أنفسهم القدرة أو الثقة لتجاوز التعلّق بمعطيات السابقين وأن يقولوا ما عندهم ابتداء كما فعل الآباء والأجداد زمن تألّقهم الحضاري. ولطالما دعا القرآن الكريم ورسول الله ﷺ في حشود لا تكاد تحصى من الآيات والأحاديث إلى ضرورة العمل والإضافة والإبداع، وإلى عدم الالتفات إلى الوراء، إذا اقتضى الأمر، من أجل الاستجابة للّحظة التاريخية والإصغاء لنداءات المستقبل: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ [البقرة] ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزُّخرُف:٢٣] وبموازاة السلبية والتقليد كانت خيوط الظلم الاجتماعي والاستبداد السياسي يزداد نسيجها مساحة يومًا بعد يوم لكي يغطّي المدى الأوسع فيأكل كالمنشار قدرات الأمة واستعداداتها المتبقية ويقودها أكثر فأكثر صوب مواقع الانعزال والإتكالية والسكون.

ولقد تركت هذه العوامل الثلاثة فراغًا كبيرًا في عقل الأمة وروحها، وجعلتها تعاني مما يمكن تسميته بانخفاض الضغط الذي يسحب إليه بحكم قوانين الحركة التاريخية الرياح المدمرة التي تهب عليه من الداخل والخارج، فما لبثت أن طغت على الساحة حالات التوجّه الرهباني – الصوفي المنحرف عن سويته المعتدلة – المنسحب أكثر فأكثر من مواقع الفاعلية والحياة، وهبّت على العقول والنفوس سموم الخرافات والسحر والشعوذة والدجل والأوهام فيما سبق وأن حذّر منه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ من أجل ألّا يستأثر بالحياة الإسلامية فيسوقها إلى مواقع الشذوذ والانحراف.

وثمة الخطأ الذي لا يقل أهمية (والخطأ كما يقول السياسي الفرنسي تاليران أكبر من الجريمة) والذي مارسته القيادتان المتأخرتان في تاريخنا: المماليك والعثمانيون، فهما على دورهما المؤكد في مجابهة الخصم وملاحقته، أهملتا التصنيع بشكل ملحوظ ولم تستجيبا بالقدر المطلوب لتحديات التكنولوجيا الغربية وبخاصة تكنولوجيا التسليح، وراح

الفارق يتزايد بمرور الوقت بين عالم الإسلام المتخلّف والغرب المتفوّق بحيث أصبح تخطّيه أو عبوره في العقود الأخيرة بحاجة إلى معجزة تصنع المستحيل.

هذا – بإيجاز شديد – ما كان يحدث في نسيج الحياة الإسلامية فيدمر العقول والنفوس والأرواح، ويصدّ الأمة عن التحقّق بمطالب المجابهة والقوّة وحماية الذات.

ومن الخارج هبّت أعاصير أخرى لا تقل ضراوة وعنفا، لكنها ما كانت لتؤدّي مهمتها المدمّرة لو أن الأمة امتلكت الحدّ الأدنى من مقتضيات البقاء التي أكد عليها الإسلام ودعا إلى التحقّق بها صباح مساء.

لقد كان على عالم الإسلام أن يصارع الغزاة (الخارجيين) المحملين بكل حيثيات (الغزو) بدءًا بتجاوز المطالب الأخلاقية والإنسانية التي يعرفها المسلم جيدًا في لحظات الصراع، وانتهاء باستخدام السلاح الأكثر فاعلية لسحق الخصم. كان على عالم الإسلام أن يصارع الغزاة لمدى يقرب من ألف عام!! كانت الغزوات الخارجية تضربه خلالها الواحدة تلو الأخرى دون أن تترك له فرصة لالتقاط الأنفاس وإعادة ترتيب أوضاعه وقدراته بما يمكنه من حماية الأرض والذات. ولقد استنزف هذا من الأمة المسلمة الشيء الكثير وأعان عوامل الشدّ والتخلّف والإعاقة على أن تزداد فاعلية وامتدادًا على حساب عوامل التقدّم والإبداع والصعود.

فمنذ أخريات القرن الخامس الهجري رمت أوربا بثقلها العالم الإسلامي تحت مظلّة الحروب الصليبية التي استغرقت قرنين من الزمن، ثم ما لبثت الهجمات المغولية أن لحقت بها لكي ترمى بثقلها آسيا الوسطى، بكل عنفه وقسوته وبربريته، على مدى يقرب من القرن. وتتابعت من بعدهما الغزوات: حركة الاسترداد الإسباني (الريكونكويستا) التي نفذت، بعد انتصارها، واحدة من أبشع عمليات الاغتيال الديني والفكري والحضاري والجسدي في التاريخ.. حركة الالتفاف الإسباني – البرتغالي.. حركة الاستعمار القديم.. وصولا إلى الاستعمار الجديد (الإمبريالية) بجناحيه الرأسمالي والشيوعي وظهيره الصهيوني.

وعندما أطلّ ما يسمى خطأ بعصر النهضة بسبب من ارتباطه بالغزو الفرنسي لمصر في أخريات القرن الثامن عشر، كان الفارق في المدنية - وبخاصة تكنولوجيا القوة - قد ازدادت هوّته اتساعًا بيننا وبين الغرب، الأمر الذي يفسّر - إلى جانب عوامل عديدة أخرى - فشل معظم محاولات الإصلاح والحركات الجهادية التي صُفيت الواحدة تلو الأخرى.. لم يكن يعوزها الفكر ولا الإيمان ولا الفدائية، ولكن وببساطة تامة كان يعوزها السلاح! لقد قامت حركات المقاومة كالسنوسية والمهدية كردّ فعل ضد الاستعمار، وكان عليها أن تنوء بعبء الفارق الكبير في التسليح فضلا عن زخم الاندفاع الإستراتيجي للقوى الغالبة ورغبتها الأكيدة - المبطنة بالبعد الصليبي - في احتواء العالم الإسلامي، وعدم إتاحة أية فرصة لاستعادته أي قدر من الحيوية والنموّ والاستقلال تحت مظلّة الإسلام الذي تأكد للغرب كم أنه الجدار الأشد صلابة في مواجهة الخصم.

ثم إن أية حركة في التاريخ لا تتشكل - ابتداء - وفق شروط موضوعية، وإنما تجيء كرد فعل على حالة تاريخية، ستعاني من كثير من عناصر الخلل ونقاط الضعف التي ستكون بمثابة المقتل الذي تغوص فيه سكين الغالب.

أما الدعوات الإصلاحية غير المسلّحة فإن مشكلتها أنها - في معظم الأحيان - لم تنتشر بين الجماهير وظلّت منعزلة عن الأمة الإسلامية ومطالبها الملحة في التحقّق بالمقاومة والتحرّر وإعادة بناء الذات قبالة التفوق والاستعمار الغربي. لقد ظلت هذه الدعوات في معظم نسيجها أنشطة شبه أكاديمية.. مشاريع فكرية مطروحة على الساحة (دعوة الكواكبي مثلا) قبالة تحديات التمزيق الغربي.. وزاد الأمر سوءًا تبنّي بعض هذه الحركات أو تعاطفها على الأقل مع الأنشطة الإقليمية، وأحيانًا اللا دينّية ضد حركة الجامعة الإسلامية التي تبنّتها الدولة العثمانية قبل سقوطها الأوّل والحاسم على يد الاتحاديين.. وبالتالي فإن هذه الدعوات لم تجد لها سندًا في البيئة والجماهير الإسلامية لكي تتحوّل إلى فعل تاريخي مؤثر. بل حدث - أحيانا - أن مارست هذه الدعوات، بدرجة أو أخرى، خطأين قاتلين أكدا انفصالها عن الجماهير الإسلامية وعدم قدرتها -

بالتالي – على التحقّق التاريخي وتجاوز دفّتي (المؤلف) الذي أسرها إلى الشارع والمؤسسة والمدينة والميدان، بل إنه عزلها ووضعها في بعض الحالات في دائرة التساؤل والشبهات.

فأما الخطأ الأول فهو إقامة جسور بشكل ما مع الخصم الغالب، إمَّا على مستوى الفكر أو الممارسة السياسية، أو حتى العلاقات الشخصية. وأما الخطأ الثاني فهو أنها عزلت نفسها عن حركة الجهاد المسلّح، بل – ربما – أفتت بعدم شرعيته أو على الأقل بعدم جدواه، فكأنها طعنت ظهر الجهاد الإسلامي من الخلف لصالح الخصوم.

باختصار شديد.. إننا محمّلون بوقر التاريخ.. تراكم أخطاء الآباء والأجداد التي تمحورت عند خطيئة عدم الاستماع جيدًا لنداءات القرآن وتعاليم رسول الله ﷺ وما تنطويان عليه من كشف وإضاءة لقوانين الحركة التاريخية. لقد دعانا الله وسنة رسوله ﷺ إلى منظومة من الممارسات والقيم الفاعلة في صميم العصر: تحرير العقل البشري والإرادة الإنسانية من الكوابت، التعامل الجاد مع الزمن والكتلة المادية (المكان)، رفض التشبث الأعمى بالماضي وتقليد الآباء والأجداد، إدانة الأوهام والظنون والأهواء والسحر والخرافة، التأكيد على أهمية العقل والحواس في التعامل مع العالم، الإعلان عن مبدأيْ (التسخير) و (الاستخلاف) اللذين لن يتاح لهما التحقّق دون الكشف عن الطاقات المادية وإدراك قوانينها والإفادة من قدراتها المذخورة. هذا إلى تأكيد القرآن الكريم الواضح - في مقاطع شتى - على ضرورة التطبيق الصناعي كشرط من شروط حماية الإيمان في العالم؛ مثل المقاطع الخاصة بإعداد القوة، واعتماد الحديد لأغراض السلم والحرب، وواقعة ذي القرنين لحماية المستضعفين في الأرض، والتطبيقات الصناعية المعروفة في ظلال نبوّة داود وسليمان عليهما السلام.

لم يستمع أجدادنا في العصور التالية للنداء، وعندما استيقظنا وبدأنا فاعليتنا في مواجهة تفوّق الآخر كنا قد غيّبنا الدين في معظم مساحات حياتنا فأصبح الفعل لا برنامج له، وضاعت البؤرة التي تستقطب الأفعال ففقدت قدرتها على التأثير، وأفلتت من بين أيدينا فرصة الحضور المؤكد في قلب العالم والمشاركة في صياغة خرائطه.

❊ ❊ ❊

والآن فإنني سأتجاوز مرحلة الصحوة الإسلامية الثانية بحلقاتها الثلاث التي غطت مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية وصولا إلى مشارف القرن الجديد، والتي أفادت – بدرجة أو أخرى – من أخطاء وتناقضات الصحوة الأولى في القرن الماضي – القرن التاسع عشر – وبدايات هذا القرن، أي: القرن العشرين وسأقف لحظات عند ما يسمى بالعصر الجديد الذي بدأت ملامحه تتشكّل عبر العقدين الأخيرين من القرن العشرين.. عصر النظام العالمي الموحّد الذي تكاد تنفرد بقيادته دولة واحدة، حيث ينضاف إزاء المسلمين تحدّ جديد قبالة كل المحاولات التي تسعى للنهوض بهم، وخاصة أن الإسلام أصبح – بعد انهيار الشيوعية – يمثل خط المواجهة الأوّل، وحيث يبرز حشد من الأسئلة الملحّة التي تنتظر الجواب.

ولن يتسع المجال للدخول في التفاصيل ولكنّي سأشير إلى أمرين ما دمنا بصدد قوانين الحركة التاريخية، أولهما: احتمالات دوام نظام موحّد تستقطبه قوة واحدة، وثانيتهما: مجالات العمل الممكنة للأمة المسلمة قبالة هذه الصيغة الدولية الجديدة.

إن (التوحّد) الغربي قبالة الشرق ليس بالضرورة الوجه الأوحد للصورة، فهنالك – لحسن الحظ – الوجه الآخر، إنها الثنائية التي تخترق القاسم المشترك الواحد بقوّة المذهب أو الفكر أو المصلحة وتحيله إلى تشرذمات ثنائية متصارعة داخل الساحة الغربية وفي مواجهة (الآخر) .

وعبر التاريخ الغربي كانت هناك دائمًا روما بمواجهة أثينا، والبابوية بمواجهة القسطنطينية، والإمبراطورية الرومانية المقدسة بمواجهة البابا، وفرنسا بمواجهة بريطانيا وألمانيا وروسيا، وبريطانيا بمواجهة القارة، والمحور بمواجهة المستعمرين القدماء، وأمريكا بمواجهة بريطانيا، والاتحاد السوفيتي وأوروبا الغربية بمواجهة أمريكا.

ومعنى هذا أن تفرّد قوّة غربية واحدة بالسلطان أمر يكاد يكون مستحيلا على المدى الزمني الطويل نسبيًّا، وأن الثغرة التي قد ينفذ منها الإسلام المحاصر ستتشكل، أو هي قد تشكلت فعلا بحكم قوانين الحركة التاريخية وسننها التي طالما حدثنا عنها

كتاب الله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود] ، ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١٤٠] ، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة:٢٥١].

ومعنى هذا أيضا، أن على عالم الإسلام اليوم ألا تذهب به الهزيمة النفسية إزاء التفرّد الأمريكي إلى المدى، وأن يبذل جهده لكي يتماسك وينهض، مستفيدا من حالة الثنائيات الغربية المتولّدة باستمرار.. من الثغرات التي تفتحها في جدار الغالب. وقبل هذا، من قدرات الإسلام الذاتية على كل المستويات النفسية والفكرية والإستراتيجية والاقتصادية، والحضارية في نهاية الأمر. وهي- بتميزها العقدي وعمقها التاريخي- ليست كلاما يقال ولا أنشودة يتسلّى بها المهزومون، ولكنها فاعلية في صميم الصيرورة التاريخية، قديرة في حالة اعتماد الصيغ المدروسة والمحسوب حسابها على أن تحمي الوجود الإسلامي من التفكك والذوبان. بل – لن يكون هذا من قبيل التفاؤل والتخمينات – على أن تمضي ثانية باتجاه مواقع أكثر تقدّما على خرائط العالم المعاصر، لكي تشارك في اتخاذ القرار وصياغة المصير.

إن ألفيْن من السنين تنسجان اليوم حيثيات الصراع بين الغرب والإسلام، ولكنْ في أيّ من هاتين الألفيْن قدر الغرب على أن ينتزع عن الشرق جلده المتميز؟! في أيّ منهما ألقى الإسلام السلاح وارتمى- مغلوبا على أمره- في أحضان الغالبين؟ إن ما سبق قد يكون من قبيل التعميمات التي لا رصيد لها في (الميدان) ولابدّ- إذن- من الانتقال من العام إلى الخاص والتأشير بالإيجاز الذي يتطلّبه مقال كهذا على عدد من المقترحات، أو لنسمّها وجهات نظر أولية قد تضيء الأفق المعتم أو تشعل نارا هنا وخبرة هناك:

أولا: التحقق بالمزيد من تحصين الذات العقدية والحضارية بمواجهة قوى الغزو والتفكيك الفكري، واعتماد المؤسسات الفكرية والإعلامية والتربوية والأكاديمية

كنقاط ارتكاز لعملية التحصين، وتصعيد الاستفادة من الصحيفة والدورية والكتاب والمسجد والندوة والمؤتمر في البناء النفسي والفكري.

ثانيا: التحقّق بالمزيد من الإعداد على مستوى تقنيات التسليح من أجل الوصول إلى قدر من التوازن مع التفوّق العسكري الإسرائيلي الذي تدعمه أمريكا بغير حدود، وكسر الاعتماد على نظام المصدر الواحد، والإفادة من التناقضات الدولية القائمة والمحتملة للحصول على السلاح. ووقف هجرة العقول عن طريق منح الضمانات الكافية، وتهيئة البيئة العلمية المحفزة للعطاء والإبداع، وتنفيذ برامج شاملة ودقيقة لتبادل الخبرة التقنية بين علماء المسلمين، وتأسيس دوافع جذب وإغراء للعلماء الغربيين للعمل داخل عالم الإسلام.

ثالثا: الإفادة من التناقضات والمتغيرات السياسية والاقتصادية القائمة والمتشكّلة والمحتملة من مثل: أوروبا الموحدة قبالة أمريكا.. اليابان.. الصين.. دول العالم الثالث.. فضلا عن العمق الإسلامي الذي ازداد امتدادا بانهيار الاتحاد السوفيتي.

رابعا: استخدام الموقع الإستراتيجي والخزين الاقتصادي الإسلامي كورقة ضغط ضد القوى العالمية المتسلّطة، والسعي للاحتفاظ بالخزين الاحتياطي (وبخاصة النفطي والمعدني) وعدم السماح بهدره أو استنزافه على مديات زمنية متقاربة وتحت غطاء أي مبرّر من المبرّرات.

خامسا: الاستفادة من القوى (الديموغرافية) الإسلامية داخل المجتمعات الغربية بتحويلها إلى نقاط ضغط إزاء مراكز اتخاذ القرار، أسوة بما فعلته الحركة الصهيونية، واستنادا إلى الارتباط الديني والفكري بين هؤلاء المسلمين وبين إخوانهم على مدى عالم الإسلام، وتفاعلهم الصميم مع قضاياهم المصيرية من جهة، وتمركز مساحات واسعة من المصالح الغربية في عالم الإسلام من جهة أخرى.

سادسا: التحقّق بصيغ مرنة لتوحيد الطاقات السياسية والعسكرية والاقتصادية الإسلامية بصيغة كومنولث إسلامي، أو اتحادات فدرالية إقليمية، أو وحدات نوعية متجانسة على مستويي الجغرافيا السياسية والبشرية.

سابعا: تنمية وتعميق الوعي الحركي لدى القواعد الإسلامية على مستوى الجماهير العريضة بحيث يصعب توجيه ضربات قاتلة إليها، وتظل - بالتالي - بمثابة خط الرجعة المتجذّر في الأرض، القدير على حماية الذات الإسلامية بمواجهة محاولات التدمير والتفكيك والإبادة والاحتواء.

ثامنا: تصعيد وتائر تبادل الخبرة بين القوى الإسلامية الشعبية على مستوى عالم الإسلام من أقصاه إلى أقصاه، وتشكيل علاقات اتحادية ذات مفاصل مرنة بين بعضها والبعض الآخر.

تاسعا: إقامة المعابر والجسور مع القوى الحيادية أو المتعاطفة في العالم، والتي تجد في التفرّد الأمريكي نوعا من التحدّي أو القلق الذي يزعج تطلّعاتها صوب المصير.

عاشرا: التأكيد المتزايد على هويّة الإسلام الحضارية وقدرته المتجدّدة على العطاء، وفاعليته العالية في طرح الحلول المناسبة لمشكلات العالم والإنسان المعاصر، والمشاركة في المصير، فضلا عن التأكيد على عوامل التماثل والتناغم بين المعطى الإسلامي ومعطيات الغير، وبالتالي تحفيز صيغ الحوار بين الطرفين بما يخفّف، بدرجة أو أخرى، من حدّة الرؤية العدائية بينهما، ويمكنهما من التحقّق بقدر من التفاهم المشترك، حيث سيتاح للإسلام - يومها - أن يقول كل ما عنده، وأن يدخل، دونما عقد ولا حساسيات، صميم العقل والضمير الغربيين بما يقود إلى تشكّل صيغ ومعادلات جديدة في حوار الحضارات، ويمكن هذا (الدين) من تنفيذ مشاركة أكبر في نسيج الحاضر والمستقبل على السواء.

***

قد نرجع في وقت آخر، للوقوف عند كل واحدة من هذه الإضاءات (العشر) لجمع مفرداتها، واستقصاء أبعادها، ووضع اليد على ما يمكن أن تقدّمه في معركة الإسلام الراهنة قبالة تحدّيات التآكل والاحتواء والفناء.

إن عالم الإسلام - مرة أخرى - يقف اليوم قبالة حالة تاريخية ليست جديدة بالكلية، قد تكون جدتها في الزخم الكبير الذي تنطوي عليه حصيلة قرون طويلة من

التشكّل على مستويي الكّم والنوع، ولكنها- في الأساس- حلقة في مسلسل طويل يبدأ في (أثينا) ولكنه لن ينتهي في (واشنطن).. فها هي المتغيرات الأكثر حداثة تطلّ برأسها، ولم يصل النظام العالمي الجديد- بعد- إلى برّ الأمان: أوربا الغربية تتوحد- ربّما- قبالة أمريكا.. الجمهوريات الأوربية للاتحاد السوفيتي المنحلّ تتكتل، وقد تنضاف إلى أوربا الموحدة.. اليابان تواصل قفزاتها التقنية والاقتصادية بحساب متواليات هندسية قد تحدّ من قدرات التفرّد الأمريكي في المستقبل المنظور.. الصين ودول العالم الثالث تحركها إرادة واحدة لتحدِّي العالم الجديد الذي هيمن على مقدَّراتها، لعلها تفعل شيئا، على الأقلّ في سياق الردّ السلبي.. ثم عالم الإسلام الذي طالما دفعته التحدّيات إلى استعادة حيويته وفاعليته.

٢- التحصين الثقافي وضرورات الإستراتيجية

ونريد أن نقف قليلا عند واحدة من أكثر الضرورات إلحاحا في واقع الأمة الإسلامية ومستقبلها إذا أريد لها أن تستعيد دورها الضائع وأن تشارك في المصير.

إن السعي لوضع خارطة إستراتيجية ثقافية إسلامية في عالمنا المعاصر، كانت ولا تزال، واحدة من أشد الضرورات أهمية وإلحاحا لأكثر من سبب: فهناك- مثلا- ضرورة تجاوز التفتت والتناقض والارتطام في المعطيات الثقافية لعالم الإسلام، والتحوّل – بدلا عن ذلك- إلى التوحُّد والتنسيق والتناغم لتحقيق بلورة أكثر للذات وفاعلية أشد في زمن المسابقة الحضارية التي تحتّم احترام عامل الزمن والمحاذرة عن الوقوع في مأساة هدر الطاقة.

وهناك الانفجار المتزايد في المعلومات وتقنيات التواصل المعرفي والذي يمكن أن يكون سلاحا ذا حدين، فالذين يملكون إستراتيجية عمل ثقافي سيعرفون كيف يفيدون منه وفق أقصى حالاته المتاحة، والذين لا يملكون هذه الإستراتيجية قد ينقلب عليهم وبالا، فيزيدهم فوضى وتبعثرا واضطرابا، وقد يئول الأمر إلى ضياع كلّي لشخصيتهم الثقافية وغرقهم في بحر الثقافات الأشد فاعلية، والأكثر قدرة على التخطيط والاستشراف والإفادة من هذه التقنيات المتطورة.

وهناك – فيما عدا حالات استثنائية لا تغطي سوى مساحات محدودة – فراغ مخيف واضح لكل ذي عينين، يعاني منه عالم الإسلام في مجال التخطيط الثقافي رغم كل الظروف الميسرة للتحقّق بهذا التخطيط، الأمر الذي قد يؤدي إلى مزيد من النتائج العكسية التي توسّع الهوّة بين عالم الإسلام والعالم المتقدم، ويجعل التسارع لوضع ملامح إستراتيجية عمل مركزي شامل ضرورة من الضرورات.

فإذا ما تذكرنا أن تحدّي الحضارة الغربية المعاصرة لحضارتنا الإسلامية هو في جوهره تحدّ ثقافي، وأنه بصدد خلخلة واقتلاع هذه الثقافة من جذورها، لهذا الهدف أو ذاك، أدركنا أن مجابهة هذا التحدّي لن تأتي بطائل ما لم تعمل ضمن إستراتيجية عمل ثقافي موحد يضع يديه على الملامح الأساسية لهويّة المسلمين الثقافية، مستمدا إياها من عقيدتهم المشتركة ورصيدهم التراثي المذخور، واضعا نصب عينيه أن يكون للمسلمين مكان متميز على خارطة الثقافات في عالمنا المعاصر، لا بالاتجاه إلى الغير ومقاربته بالتقليد والتكديس، ولكن بالتميّز والأصالة وتعميق الملامح، ومؤكدا على مستقبل يكون المسلمون فيه أكثر قدرة على التأثير في مستقبل العالم، واستعادة موقعهم الأصيل الذي دعا إليه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، في الوسطية والشهادة على الناس ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة:١٤٣] مستفيدا – ما وسعته الاستفادة – من تقنيات التعامل المعرفي التي يمكن إذا أحسن التعامل معها، أن تختزل حيثيات الزمن والمكان، وأن تحقّق المقاربة الموعودة من العالم المتقدم الذي تباعد بيننا وبينه المسافات الطوال.

عموما فإن إستراتيجية كهذه تجد نفسها ملزمة بالتحرك في اتجاهين أساسيين؛ **أولهما:** حركة باتجاه المسلمين أنفسهم. **وثانيهما:** حركة باتجاه الغير. ويقينا فإن أية محاولة للتخطيط تحاول أن تتجاوز إحدى هاتين الحركتين سوف تكون ناقصة ولن تأتي بثمارها الموعودة.

وفي كلتا الحالتين فإن مبدأ (التعارف) الذي دعا إليه كتاب الله سبحانه بقوله تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَـٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَـٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ ﴾ [الحُجُرات:١٣] ، يمكن أن يكون محور الحركة في الاتجاهين معا.

على مستوى الأمة الإسلامية فإن وحدتها الثقافية لا تستدعي بالضرورة تجاوز أو إلغاء خصوصيات الشعوب والجماعات التي تنتمي إليها، والتي شكلتها وغذّتها مؤثرات البيئة ورصيد التاريخ؛ ذلك أن الوحدة والتنوع لا تمثل في حضارتنا الإسلامية نقيضين متضادين بقدر ما هي عامل دفع وإغناء لهذه الحضارة، ومصدر خصب لإرفادها بالمزيد من المعطيات المتنوعة التي تصب في نهاية الأمر في بحر شخصيتها الكبرى فتزيدها تألُّقا وتماسكا وعطاءً ووضوحا، ما دامت هذه الشخصية تستمد مكوناتها الأساسية ونقاط شدّها وتوحّدها، ليس من المتغيرات البيئية والتاريخية، ولكن من مرتكزات عقيدتها الثابتة، المكتملة، المحفوظة الحدود والملامح في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وممارسات الأجيال الإسلامية الموصولة عبر الأماكن والأزمان.

إن أية محاولة لتوحيد المسلمين ثقافيًا، من خلال وضع خارطة عمل، أو إستراتيجية موحدة، يجب أن تضع في حسبانها ثنائية كهذه تنطوي على الوحدة والتنوع، والثابت والمتحوّل، والصلب والمرن، والدائم والمتغير.. أي- في نهاية الأمر- على المرتكزات العقيدية والممارسات الحيوية.. معا..

هذه الثنائية التي يمكن - إذا أسيء تقديرها حق قدرها - أن تكون أداة للفصل والتباعد، والعزلة والقطيعة، وأن تزيد المسلمين تمزقا على تمزّقهم، يمكن- كذلك- إذا أحسن توظيفها في إستراتيجية العمل أن تكون وسيلة فاعلة للتوحد المرتجى الذي يلمّ أشتاته المتنوعة المتغايرة على الأصل العقائدي الثابت الكبير.

أما على مستوى التحرك باتجاه الغير فإنه يكاد يخضع للمبدأ نفسه: احترام التغاير، ومحاولة الإفادة منه بتحقيق مزيد من التعارف بين المسلمين وبين ثقافات ومعطيات الأمم الأخرى، وبخاصة الثقافة الغربية المعاصرة.

ومن فضول القول التأكيد على أن تعاملا كهذا بين المسلمين والغير لن يكون

تعاملا ندّيًا أو متكافئا، لا يئول إلى الذوبان أو الاندماج أو فقدان الشخصية، ما لم يتحقق المسلمون أنفسهم بالحركة الأولى: وحدتهم الثقافية التي تعطيهم مكانا متميزا على خارطة العالم وتمنحهم ثقلهم النوعي وتجعل عبورهم للتعامل مع الآخرين مأمون العواقب، ذا نتائج إيجابية تعزّز شخصيتهم ولا تلغيها.

ومرة أخرى، فإن الثقافة الإسلامية يمكن أن تمارس ها هنا دورا مؤثرا في العالم كله، يزيدها- في الوقت نفسه- قدرة على التأصل والتوحد والتميز.

ذلك أن هذه الثقافة المستمدة في أساسها من أصولها الإسلامية والمتأثرة، بدرجة أو بأخرى، بالمنظور العقدي لهذا الدين، تختلف عن سائر الثقافات الأخرى بجملة خصائص لا تكاد تجتمع إلّا في إطارها، وأبرز هذه الخصائص ولا ريب قدرتها الفذّة المرنة على جمع سائر الثنائيات التي بعثرتها المذاهب والثقافات الأخرى، واستطاعت هذه الأمة، بقوة عقيدتها، أن تجمع بينها وتسوقها في إطار واحد خدمة للإنسان والجماعة البشرية على السواء.

إننا نجد مثلا ثنائيات من مثل المادة والروح، والجسد والوجدان، والحس والعقل، والظاهر والباطن، والحضور والغيب، والقدر والاختيار، والضرورة والجمال، والطبيعة وما وراءها، والسكون والحركة، والوحدة والتنوع، والمنفعية والأخلاقية، والفردية والجماعية، والعدل والحرية، والوحي والتجريب، والدنيا والآخرة، والنسبي والمطلق، والفناء والخلود.. ثنائيات كهذه تتلاءم وتتناغم وتندمج في كيان الثقافة الإسلامية، بينما هي في سائر الثقافات الأخرى في حالة اصطراع وتضاد، وهي في هذه الحالة تشكل عصب المأساة التي يعاني منها الغير والتي يجد نفسه مضطرا - أكثر فأكثر - للبحث عن بدائل لها، وتلك هي فرصة الثقافة الإسلامية للتحقّق بالتواصل المؤثر مع الآخرين.

وبقدر ما يتعلق الأمر بالإستراتيجية الموعودة فإنها يتحتم أن تقيم المزيد من الجسور بيننا وبين الآخرين، ليس فقط بتنسيق طرائق الأخذ عن الغير من أجل إغناء شخصيتنا الثقافية، ولكن أيضا بإغراء الغير بالأخذ عن ثقافتنا، أو محاولة التعرف عليها على الأقل بأكبر قدر من الجدّية والحرص فيما يمنح العلاقة بين سائر الأطراف

تكافؤها وندّيتها، وقدرتها على التميز والبناء، وإسهامها الفعّال في بناء مستقبل الإنسان في هذا العالم.

ويكفي أن نتذكر هنا جانبا من أقوال واستنتاجات مفكري الغرب المعاصرين لكي يتأكد لنا أن تأصيل وحماية هويتنا الثقافية تعدّ ضرورة ليس في إطار عالم الإسلام وحده، ولكن على مدى العالم كله.

في هذه الحالة فإن هذا الدين سيعود، كما يقول المفكر القانوني الفرنسي مارسيل بوازار (إلى الظهور في العالم المعاصر بوصفه أحد الحلول للمشكلات التي يطرحها مصير الإنسان والمجتمع)[1]، وحينذاك - أيضا- سيكون (في وسع العالم الإسلامي، من بين عوالم أخرى، أن يقدم مشاركة أساسية في تكوين المجتمع الدولي المرتقب)[2].

إن الإسلام، كما يقول الرجل: (دين حي ودينامي، وهو يحاول أن يجد مجلي لقوته الداخلية للاشتراك في الحياة الدولية المعاصرة، وفي مساهمته أن تكون جوهرية، لا لأنه يملك فقط تجربة عمرها أربعة عشر قرنا في العلاقات بين الشعوب، بل لأنه ينقل- كذلك- رؤية أخلاقية للغاية من القانون الدولي معتبرا أن الإنسان في التحليل الأخير رعية من رعايا النظام وهدف أخير من أهدافه)[3].

وهنا بصدد البعد الأخلاقي لمشاركة الإسلام العالمية لم يفت بوازار أن يشير إلى أن التقدم العلمي المادي لا يكفي وحده ما لم تضبطه القيم الخلقية، فتوجهه بالتالي لصالح الإنسان، ومن خلال هذه الرؤية الأخلاقية للنشاط المادي يمكن للإسلام أن يمارس (دورا حقيقيًا في تنظيم العالم المعاصر)[4].

وأهمية المشاركة الإسلامية تبدو أيضا -في نظر بوازار- في التوازن الذي يمنحه الإسلام، بما أنه تعبير عن روح ديني، لمسيرة المجتمع البشري بين التقدم المادي

---

(١) إنسانية الإسلام، ص ٤٣١، ترجمة د. عفيف دمشقية، دار الآداب، بيروت - ١٩٨٠.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٣٩.

(٣) المرجع السابق، ص ٤٢٦ - ٤٢٧.

(٤) المرجع السابق، ص ٣٦٩.

(التقني) وبين المطامح الروحية والإنسانية عامة، وخاصة أن الانخراط في المجتمع التكنولوجي، والمواجهة بين الإسلام والثورة التقنية، لا تدفع المسلم إلى إنكار موقفه الديني بل إلى تعميقه أمام العالم وأمام الله، متوجبا عليه محاولة إدراك الإمكانيات بشكل أفضل في إطار إسلامي شامل..[١].

وإذ يؤكد بوازار ما يقدمه القرآن الكريم في هذا السياق من (ثقة مطمئنة وحافز قوي في وقت معا) فإنه يحذّر من (أن إسلام المستقبل ودوره في العلاقات الدولية) لا تجيء به الأماني والأحلام، إنما هو (رهن بما يصنعه المسلمون أنفسهم)[٢].

ويرى الباحث الأمريكي المعاصر كويلر يونغ (أنه ليس من المعقول لثقافة حية كثقافة الإسلام.. ألّا يكون لها تأثير بالفعل أو بالقوة)[٣]، في التشكل الحضاري للمستقبل. وهو يحذّر من (أن عالمنا هذا الذي مزقته الجماعات المحتربة والذي لا يعرف حكما أعلى بيده مصير الإنسانية، ليجدر به تصوّر الوحدة الجوهرية للحياة كما أسسها الإسلام، ولا شك أن هذه الوحدة- في أحسن صورها- سيكون لها أثرها في الحاجات الروحية للناس في أيامنا الحاضرة) [٤]، وثمة (نصيب آخر من الفضل للإسلام)قد يكون متفرعًا عن سابقه، ذلك (هو ما حققه من التسامح بين أجناس البشر.. إن الإسلام- في إطار الأخوة الإسلامية- يستطيع أن يرى المسيحية نجاحًا حقيقيًا فعليًا في ميادين التسامح البشرى)[٥].

هذه المشاركة يؤكدها المستشرق الفرنسي درمنغهم بغية تحقيق التواصل بين الغرب والشرق، وإرفاد لعالم المستقبل (بأذخار العالم القديم)[٦].

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٨٧ - ٣٨٨.

(٢) إنسانية الإسلام، ص ٣٨٩.

(٣) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، جمع وتقديم محمد خلف الله، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثانية ١٩٦٢م، ص ٣٥٥.

(٤) المرجع السابق، ص ٢٥٦.

(٥) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٦) حياة محمد ﷺ ترجمة عادل زعيتر، دار إحياء الكتب، القاهرة الطبعة الثانية ١٩٤٩، ص ٣٧١، ٣٧٢.

ويراها زميله إتيين دينيه تُبَشِّرُ (بمستقبل حافل بأعظم الآمال وأعلاها شأنًا، وبإسهام حضاري فعال، وبتكشّف متزايد لِسَنَا الإسلام الحقيقي حيث ستعرف الأمم المختلفة حقيقته التي حجبت عنها زمنًا، وسيمدّ الكل أيديهم لمحالفته، متنافسين في ذلك؛ لأن قيمته قد خبروها وعرفوا ما يستكن فيه من وسائل القوة التي لا حدّ لها ولا نفاد)[1].

أما المؤرخ البريطاني المعاصر مونتجمري وات فيركز استنتاجاته حول المشاركة الأخلاقية للإسلام (تلك المبادئ التي تكون إضافة فعلية لتحسين حالة العالم) [2]، وهو يؤمل في أن المسلمين سوف ينجحون، رغم المصاعب، (في جهدهم للتأثير على الرأي العام العالمي، على الأقل فيما يتعلق بالمبادئ الأخلاقية. وربما أمكنهم في ميدان الأفكار الدينية الأوسع أن يساعدوا على إغناء العالم؛ لأنهم احتفظوا بقوة كبرى في التعبير عن بعض الأفكار كحقيقة الله، تلك الأفكار التي أهملت ونسيت في كثير من الطوائف والأديان الأخرى الموحدة)[3].

ويقدم المفكر الفرنسي المسلم روجيه (رجاء) جارودي في كتابه (وعود الإسلام) ملاحظات خصبة عن المشاركة العالمية لهذا الدين. إن عنوان الكتاب يحمل بعدا مستقبليًّا، وإن ملاحظات صاحبه حول مشاركة الإسلام العالمية تتحرك على عدد من المحاور أهمها ولا ريب: توازن الإسلام ووسطيته، قيمه الأخلاقية، ثم رؤيته الشمولية وقدرته الفذة على منح المغزى لمسيرة الحياة البشرية في هذا العالم.

ولن يتسع المجال ها هنا لتقديم الشهادات على هذه المحاور، ولكننا نجد من الضروري تذكّر السؤال الذي طرحه جارودي في كتابه هذا: (ماذا يستطيع الإسلام أن

---

(١) محمد رسول الله ﷺ: ترجمة د. عبد الحليم محمود ومحمد عبد الحليم محمود، الشركة العربية، القاهرة الطبعة الثالثة، ص ٣٤٥، ٣٤٦.

(٢) محمد ﷺ في المدينة: تعريب شعبان بركات، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت-بدون تاريخ، ص ٥٠٨، ٥٠٩.

(٣) المرجع السابق، ص ٥٠٩.

يقدم لنا ليعيدنا للإجابة على المسئوليات التي تفرضها قدرة العلم والتقنية على جميع البشر اليوم؟) وأن نتذكر- كذلك- جوابه: (أن المشكلة كونية، ولا يمكن للجواب ألّا أن يكون على المستوى الكوني)[1].

وهكذا تصير مشاركة الإسلام القادمة أكثر من ضرورية، تصير أمرا حتميًّا لأنها لن تدخل الساحة لكي تعالج هذه الجزئية أو تلك، أو لكي تمنح العلاج لهذه المشكلة المحدودة أو تلك، كلّا وإنما لكي تعيد تصحيح الحياة البشرية بما يردّ إليها قيمتها الحقة، ويمنحها هدفًا ومغزى، ويربطها بالإنسان نفسه، محققًا التناغم والانسجام بين أقطاب الكون بعد أن أقام الفكر الوضعي بينها الأسلاك الشائكة، وكهربها بالكراهية والبغضاء. وهكذا يغدو (بعث الإسلام كبعث الإنسانية بأكملها)[2].

إنها إذن (قضية مستقبلنا، قضية مستقبل جميع البشر)[3].

وثمة ما يستوقفنا في (وعود الإسلام).. شهادة على غاية الأهمية لأنها تتضمن قاعدة الدور الإسلامي المنتظر ومنطلقه، بل مفتاح عقيدته ورؤيته للعالم..(لا إله إلا الله) هذا الإثبات الأساسي للإيمان الإسلامي[4].

إن جارودي، الذي انتقل أخيرا إلى الإسلام، ليعرف جيدًا ما يقول، بل إنه ليؤشر بالوضوح المطلوب على أس الأسس في بنيان الإسلام وفي إسهاماته العالمية كذلك. وهو يعرف – أيضا- أن (لا إله إلا الله) تعني أول ما تعني إعلان الحرب على الوثنية وإقصائها.. ليست وثنية قريش وحدها، ولكنها وثنية العالم كله، وثنية العالم المعاصر على وجه التحديد، فها هنا، حيث تأخذ برقاب الإنسان وتفصله عن ارتباطاته بالكون، وبمصيره، يغدو شعار (لا إله إلا الله) بكل جذريته، وقدرته على التغيير، وحربه التي لا هوادة فيها للوثنية بكافة صيغها ورموزها وأشكالها وطقوسها، ضرورة المصير

---

(١) وعود الإسلام: ترجمة ذوقان قرقوط، الوطن العربي، القاهرة، بيروت-١٩٨٤، ص ٦٧.

(٢) المرجع السابق، ص ١٧٩.

(٣) المرجع السابق، ص ١٨٧.

(٤) المرجع السابق، ص ٢١٧.

الإنساني وحتميته، فها هي ذي الصنمية، كما يسميها جارودي (تفرخ وتتكاثر في مجتمعاتنا: صنم النموّ، صنم التقدم، صنم التقنية العلموي، صنم قوة الأسلحة والجيوش، بمحذوراتها جميعًا ومحرّماتها وبرموزها المقدسة وبطقوسها. كلّا، يذكرنا الإسلام (لا إله إلا الله)، الله أكبر، وإننا لنعرف بالتأكيد ما لهذا اليقين في العقيدة من قوة هدم وتحرير.. فالحوار هكذا يمكنه أن يساعدنا على ابتعاث خميرة عقيدتنا الحية فينا، تلك التي تستطيع نقل الجبال من مواضعها..)[1].

حقًا، إن (الإسلام يحمل بذور تغيير جذري على مستوى الإنسانية)[2].

٤- نحن والآخر: التاريخ شاهدا

ثمة- أخيرًا- ما يرتبط بالموضوع الذي بين أيدينا أشد الارتباط: ما يقال عن التعامل مع (الآخر).. المسلم مع غير المسلم.

وفي حالة كهذه ليس ثمة أكبر شهادة من استدعاء الوقائع التاريخية لكي تعكس الفضاء الحرّ الواسع الذي منحه الإسلام على مستوى السلطة أو الجمهور لغير المسلمين، وبالإيجاز الذي تتطلبه صفحات كهذه.

قدم عصر الرسالة إزاء أهل الذمة – يهودًا ونصارى- موقفًا عقديًا وتاريخيًا أسست من خلاله تقاليد العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين، ووضعت أصولها ونظمت صيغها. وعندما مضت حركة التاريخ صوب العصور التالية مضت معها هذه التقاليد والأصول والصيغ تعمل عملها في مجرى العلاقات الاجتماعية، وما حدث بين الحين والحين من خروج عليها لم يعدُ أن يكون شذوذًا عن قاعدة ازدادت رسوخًا بمرور الأيام.

ما الذي أراد رسول الله ﷺ أن يقوله وينفذه إزاء غير المسلمين من أهل الكتاب؟ بمقدور القارئ أن يرجع إلى مصادر السيرة للعثور على الجواب الشامل لجزئياته

---

(١) وعود الإسلام: ٢١٧-٢١٨.

(٢) المرجع السابق، ص ١٥٦.

وتفاصيله [1]. ولكننا نود أن نشير مجرد إشارة إلى العهد الذي كتبه الرسول ﷺ في أعقاب غزوة تبوك (في العام التاسع للهجرة) لنصارى نجران، ذلك العهد الذي يقدم نموذجًا للعدل والسماحة والحرية الدينية والاجتماعية، حيث لم يفرض عليهم فيه سوى جزية عينية متواضعة، وقد جاء فيه: (.. ولنجران وحاشيتهم جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله، على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم وبيعهم وصلواتهم، لا يغيروا أسقفًا عن أسقفيته، ولا واقفًا عن وقفانيته، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير.. ومن سأل منهم حقًّا فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين.. ولا يؤاخذ أحد منهم بظلم الآخر. وعلى ما في الصحيفة جوار الله وذمة النبي ﷺ أبدًا حتى يأتي الله بأمره إن نصحوا وأصلحوا فيما عليهم) [2]. وقد دخل يهود نجران أيضًا في هذا الصلح [3].

كما نود أن نشير إلى العهود التي كتبها ﷺ لعدد من التجمعات اليهودية في شمال الجزيرة، بعد غزوة خيبر (٧ هـ) والسنين التى تلتها، إذ بعث إلى بني جفتة بمقنا القريبة من أيلة على خليج العقبة: (.. فإذا جاءكم كتابي هذا فإنكم آمنون لكم ذمة الله وذمة رسوله، وإن رسول الله غافر لكم سيئاتكم وكل ذنوبكم، لا ظلم عليكم ولا عداء، وإن رسول الله جاركم مما منع منه نفسه.. وإن عليكم ربع ما أخرجت نخلكم وصادرت عروركم (مراكبكم) واغتزل نساؤكم، وإنكم برئتم بعد من كل جزية أو سخرة، فإن سمعتم وأطعتم فإن على رسول الله أن يكرم كريمكم ويعفو عن مسيئكم، وأن ليس عليكم أمير إلا من أنفسكم أو من أهل بيت رسول الله...).

---

(١) عماد الدين خليل، دراسة في السيرة، الفصلان الثامن والتاسع، بيروت: مؤسسة الرسالة ودار النفائس، ١٩٧٤م.

(٢) ابن سعد، كتاب الطبقات الكبرى، ١ تحقيق إدوارد سخاو ورفاقه، أبريل، ١٣٢٥هـ/ ٢٣٦، ٨٤-٨٥. والبلاذري، فتوح البلدان، تحقيق صلاح الدين المنجد، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٦-١٩٥٧ / ١ / ٧٦-٧٨. واليعقوبي: تاريخ، تحقيق صادق بحر العلوم، النجف: المكتبة الحيدرية، ١٩٦٤م. ٢/ ٧١-٧٢.

(٣) البلاذري، فتوح البلدان ١/ ٧٨.

وكتب لجماعة أخرى من اليهود تدعى (بني غاديا): (أن لهم الذمة وعليهم الجزية ولا عداء)، كما كتب لبني عريض كتابا آخر يحدد فيه ما عليهم أن يدفعوه للمسلمين لقاء حمايتهم لهم وعدم ظلمهم إياهم[1]. **وكتب لأهل جرباء وأذرح من اليهود**: (أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد، وأن عليهم مائة دينار في كل رجب وافية طيبة، والله كفيل بالنصح والإحسان ومن لجأ إليهم من المسلمين)[2].

وبذلك تمكن الرسول ﷺ من تحويل هذه التجمعات اليهودية إلى جماعات من المواطنين في الدولة الإسلامية يدفعون لها ما تفرضه عليهم من ضرائب نقدية أو عينية، ويحتمون بقوتها وسلطانها، ويتمتعون بعدلها وسماحتها.

ولقد ظل اليهود يمارسون حقوقهم في إطار الدولة الإسلامية لا يمسهم أحد بسوء، وعاد بعضهم إلى المدينة بدليل ما ورد عن عدد منهم في سيرة ابن هشام ومغازي الواقدي. وهناك الكثير من الروايات والنصوص التاريخية التي تدل على أن الرسول ﷺ كان يعامل اليهود بعد غزوة خيبر بروح التسامح، كما أنه أوصى عامله معاذ بن جبل (بألا يفتن اليهود عن يهوديتهم). وعلى هذا النحو عومل يهود البحرين؛ إذ لم يكلفوا إلا بدفع الجزية وبقوا متمسكين بدين آبائهم[3].

وجاء الراشدون لكي يشهد المجتمع الإسلامي تنفيذا في العلاقات الإنسانية بين المسلمين وغيرهم لا يقل سماحة وانفتاحا عما شهده عصر الرسالة. فلقد كان العصر الجديد عصر الفتوح والامتداد الإسلامي، وكانت مساحات واسعة من الأرض التي بلغها الإسلام تضم حشودا كبيرة من اليهود والنصارى والمجوس والطوائف الدينية الأخرى. فلقد أصبح المجتمع الإسلامي بحركة الفتح هذه مجتمعا عالميًا ضم جناحيه على أعداد كبيرة من الأديان والجماعات والمذاهب والفرق والاتجاهات، فهل تمكن المسلمون من الاستجابة لتحديات التنوع المذهبي والديني في مجتمعهم العالمي الجديد؟

---

(١) ابن سعد، الطبقات ١/ ٣٨-٤٠.

(٢) المرجع السابق، ١/ ٣٨.

(٣) عماد الدين خليل، دراسة في السيرة، ٣٥٨.

يقول السير توماس أرنولد في كتابه الدعوة إلى الإسلام[1] الذي يتضمن تحليلا مدعما بالوثائق والنصوص للصيغ الإنسانية التي اتبعها الإسلام في تعاملِه مع (الآخر):

(يمكننا أن نحكم من الصلات الودية التي قامت بين المسيحيين والمسلمين من العرب بأن القوة لم تكن عاملا حاسما في تحويل الناس إلى الإسلام)[2].

ويقول: (إن الأخبار الخاصة بزوال المسيحية من بين القبائل العربية النصرانية التي كانت تقيم في بلاد العرب الشمالية لا تزال بحاجة إلى شيء من التفصيل، والظاهر أنهم قد انتهوا إلى الامتزاج بالمجتمع الإسلامي الذي كان يحيط بهم عن طريق ما يسمونه (الاندماج السلمي) الذي تم بطريقة لم يحسها أحد منهم. ولو أن المسلمين حاولوا إدخالهم في الإسلام بالقوة عندما انضووا بادئ الأمر تحت لواء الحكم الإسلامي، لما كان من الممكن أن يعيش المسيحيون بين ظهرانيهم حتى عصر الخلفاء العباسيين)[3].

وتاريخ النساطرة الأكثر انتشارا في الأرض الإسلامية يكشف، كما يقول أرنولد: (عن نهضة رائعة في الحياة الدينية وعن نواحي نشاطهم منذ أن صاروا رعية للمسلمين. وكان أكاسرة الفرس يكرمون هذه الطائفة تارة ويضطهدونها تارة أخرى، إذ كان السواد الأعظم من أفرادها يقيمون في ولايات هؤلاء الأكاسرة، بل مروا بحياة أشد من هذه خطورة، وخضعوا لمعاملة خشنة قاسية حين جعلتهم الحرب بين فارس وبيزنطة عرضة لشك الفرس فيهم بأنهم كانوا يمالئون أعداءهم من المسيحيين. ولكن الأمن الذي نعموا به في بلادهم في عهد الخلفاء قد مكنهم من أن يسيروا قدمًا في سبيل أعمالهم التبشيرية في الخارج فأرسلوا البعوث الدينية إلى الصين والهند، وارتقى كل منهم إلى مرتبة المطرانية في القرن الثامن الميلادي، وفي العصر نفسه تقريبا رسخت أقدامهم في مصر، ثم أشاعوا فيما بعد العقيدة المسيحية في آسيا، حتى إذا جاء القرن

---

(١) **توماس أرنولد:** الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثالثة، ١٩٧١م.

(٢) المرجع السابق، ٦٥.

(٣) توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ٦٨.

الحادي عشر كانوا قد جذبوا عددا كبيرا ممن اعتنقوا المسيحية من بين التتار. وإذا كانت الطوائف المسيحية الأخرى قد أخفقت في إظهار مثل هذا النشاط القوي فليس هذا الإخفاق خطأ المسلمين، إذ كانت الحكومة المركزية العليا تتسامح مع جميعهم على سواء، وكانت فضلا عن ذلك تصدهم عن أن يضطهد بعضهم بعضا. وفي القرن الخامس (الميلادي) كان برصوما – وهو أسقف نسطوري- قد أغرى ملك الفرس بأن يدبر اضطهادا عنيفا للكنيسة الأرثوذكسية، وذلك بإظهار نسطور بمظهر الصديق للفرس وإظهار مبادئه بأنها أكثر ميلا إلى مبادئهم. ويقال: إن عددًا يبلغ ٧٨٠٠ من رجال الكنيسة الأرثوذكسية مع عدد من (المدنيين) قد ذبحوا في هذا الاضطهاد.

وقام خسرو الثاني باضطهاد آخر للأرثوذكس بعد أن غزا هرقل بلاد فارس وذلك بتحريض أحد اليعاقبة الذي أقنع الملك بأن الأرثوذكس سوف يظهرون بمظهر العطف والميل إلى البيزنطيين. ولكن مبادئ التسامح الإسلامي حرمت مثل هذه الأعمال التي تنطوي على الظلم، بل كان المسلمون على خلاف غيرهم، إذ يظهر لنا أنهم لم يألوا جهدا في أن يعاملوا كل رعاياهم من المسيحيين بالعدل والقسطاس. مثال ذلك أنه بعد فتح مصر استغل اليعاقبة فرصة إقصاء السلطات البيزنطية ليسلبوا الأرثوذكس كنائسهم، ولكن المسلمين أعادوها أخيرا إلى أصحابها الشرعيين بعد أن دلل الأرثوذكس على ملكيتهم لها[1].

ومما يدل على أن تحول المسيحيين إلى الإسلام في مصر لم يكن راجعا إلى الاضطهاد ما وقفنا عليه من الشواهد التاريخية الأصلية، وهو أنه في الوقت الذي شغر فيه كرسي البطرقية تمتع المسيحيون بالحرية التامة في إقامة شعائرهم وسمح لهم بإعادة كنائسهم.. وتخلصوا من القيود التي حتمت عليهم أن يركبوا الحمير والبغال، وحوكموا في محاكمهم الخاصة، على حين أعفي الرهبان من دفع الجزية ومنحوا امتيازات معينة) [2].

---

(١) توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ٨٦-٨٨.

(٢) المرجع السابق، ١٣٠.

وعلى مدى العصور التي أعقبت العهد الراشدي، حيث ازداد المجتمع الإسلامي تعقيدا واتساعا، وحيث أخذت منحنيات الإبداع الحضاري تزداد صعودا واطرادا وتزداد معها المؤسسات الإدارية تضخما ونموا، أخذ الموقف من غير المسلمين يعد بالمزيد من صيغ التعامل الإنساني أخذا وعطاءً. لقد فتح المسلمون- قواعد وسلطة- صدورهم لغير المسلمين يهودا ونصارى ومجوسا وصابئة، وأتاحوا للعناصر ذات الكفاءة منهم احتلال مواقعها الاجتماعية والوظيفية في إطار من مبدأ تكافؤ الفرص لم تعرفه أمة من الأمم عبر التاريخ. لقد أسهم غير المسلمين في صنع حضارة الإسلام وإغنائها، دونما أية عقد أو حساسيات من هذا الجانب أو ذاك، كما فتح الإسلام الطريق أمامهم للوصول إلى أعلى المناصب بدءًا من الكتابة في الدواوين وانتهاءً بمركز الوزارة نفسه، وأتيح لأبناء الأديان والمذاهب الأخرى أن يتحركوا في ساحات النشاط الاقتصادي والمالي بحرية، فنموا ثرواتهم وارتفعوا بمستوياتهم الاجتماعية بما يوازي قدراتهم على العمل والنشاط، وملئوا بهذا وذاك مساحة واسعة في ميدان النشاط الاقتصادي والمالي، جنبًا إلى جنب مع المواطنين المسلمين، بل إن بعض الأنشطة المالية والاقتصادية كادت تصبح من اختصاص أهل الكتاب، تمامًا كما كانت الترجمة في المجال الثقافي من نصيبهم، وكما كانت بعض الوظائف الإدارية من نصيبهم كذلك، والوقائع كثيرة: تيار من المعطيات التاريخية نفذت في ساحة المجتمع الإسلامي عبر القرون الطوال وعلى مختلف الجبهات ووفق سائر الاتجاهات.. يكفي أن نحيل المتابعين إلى بعض شواهدها فحسب[1].

---

(١) **انظر على سبيل المثال:** فيليب حتى: تاريخ العرب المطول،١/ ٣٠١-٣٠٢،٢/ ٤٣٢-٤٣٨، الطبعة الرابعة، بيروت: دار الكشاف، ١٩٦٥م. وول ديورنت: قصة الحضارة، ١٣/ ١٣٠،١٧-١٣٣،١٣١، ٢٩٧، ٣٧٣، ترجمة محمد بدران وآخرين، الطبعة الثانية، القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٤-١٩٦٧م. وترتون: أهل الذمة في الإسلام، ٤٣، ١٥٨-١٥٩، ١٦٠-١٦١، ترجمة حسن حبشي، الطبعة الثانية، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٦م. وتوماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص٢٥، ٢٧، ٩٤، ٩٩. والدوميلي: العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي، ١٢٣،٨١، ٤٥٤، ترجمة محمد يوسف موسى وعبد الحليم النجار، القاهر: دار القلم، ١٩٦٢م. وبارتولد: تاريخ الحضارة=

الانبعاث الحضاري الإسلامي ومستقبل العالم

إن الانبعاث الحضاري المرجو للأمة يقودنا بالضرورة إلى قضية مستقبل العالم، والمشاركات الإسلامية المحتملة في المصير.

ولا ريب في أن انعكاس المبادىء والقيم الإسلامية على مساحات واسعة من النشاط الحضاري عبر التاريخ، منحه خصائصه النوعية المتميزة التي يمكن أن تمثل ليس مسوّغ استمراره في العالم فحسب، بل قدرته على اقتحام وإغناء شبكة النشاط المعرفي للحضارة الراهنة، والقدرة الفعالة على الإسهام المستقبلي فيه.

وإذا كان هدف العقيدة تكوين الإنسان المؤمن المتبصر المتوازن السعيد، فإن النشاط الحضاري المنضبط بالرؤية الإيمانية يجيء إعانة على تحقيق هذا الهدف. ونحن نستطيع أن نتصور القيمة الحقيقية لنشاط كهذا بمجرد أن نتذكر ما الذي فعلته الحضارات اللادينية بالإنسان والجماعة البشرية.

ليس هذا مجال الحديث المستفيض عن هذه المسألة وإنما التأشير عليها فحسب، فإن ما يعانيه الإنسان في البيئات التي رفضت الإيمان، أو عزلته عن مجرى الحياة الواقعة، من تعاسة وازدواج وتمزق وشقاء نفسي وروحي وعاطفي واجتماعي، على الرغم من

= الإسلامية ٥٤، ٢٢ ترجمة حمزة طاهر، الطبعة الرابعة، القاهرة: دار المعارف. بروفنسال: حضارة العرب في الأندلس ٧٠- ٧٢، ترجمة د. ذوقان قرقوط، دار مكتبة الحياة- بدون تاريخ. وإدوارد بروي: تاريخ الحضارات العام: القرون الوسطى، ٣/ ١٦٦، ٣١٢، ٥٨٩-٥٩٠، ترجمة يوسف أسعد وفريد داغر، بيروت: منشورات عويدات، ١٩٦٥م. ومارسيل بوازار: إنسانية الإسلام ١٨٠، ١٨٤، ١٨٧، ٢٧٨ ترجمة د. عفيف دمشقية، بيروت الآداب، ١٩٨٠م. وأرنولد توينبي: الإسلام والغرب والمستقبل ١٧-١٩، ترجمة نبيل صبحي، بيروت: دار العربية، ١٩٦٩م. وأرنولدتوينبي: مختصر دراسة التاريخ ٢/ ٣٥٥- ٣٥٧، ٣/ ٤٢، ٧٣-٤١٨ ترجمة فؤاد محمد شبل، القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٠ – ١٩٦٥م. وإميل دومنغم: حياة محمد ١٤٤، ١٩٦، ٣٦٩-٣٧٠ ترجمة عادل زعيتر، الطبعة الثانية القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٤٩م. وفاكليري: دفاع عن الإسلام ٢٢، ٢٦-٢٨، ٣٢-٣٦ ترجمة منير البعلبكي، الطبعة الثالثة، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧٦م.

ارتفاع منحنيات الإنجاز المادي، أمر ملحوظ ينطق به واقع الحال هناك، وتؤكده شهادات المفكرين وتقارير الإعلام الذي يمكن للمرء أن يلتقي به صباح مساء في عصر التواصل السريع.

ثم إن هذا النشاط المنشق عن مطالب الإيمان اندفع باتجاه إغراءات القوة والتسلط ونداء الأنانيات العرقية والدولية والمذهبية، ومضى أبعد من هذا باتجاه كل ما هو لا أخلاقي في السلوك البشري لكي يحوّل المنجزات والكشوف المعرفية إلى سلاح يُشهر بوجه الإنسان وليس لصالح الإنسان. إن إنتاج القنابل الذرية والهيدروجينية والنيوترونية والأسلحة الجرثومية.. إلخ واستعمالها في اللحظات الصعبة- كما حدث في هيروشيما وناجازاكي- ليؤشر بشكل واضح على الكارثة التي يمكن أن يُساق إليها الإنسان والبشرية إذا أُتيح للمعرفة أن تظل على جموحها... على خروجها عن مطالب الإيمان العليا... على عدم انضباطها بالقيم والموازين الإلهية العادلة التي تجعل القوة والحكمة- دوما- في كفتي ميزان.

كما أن المعرفة المؤمنة على خلاف المعرفة اللادينية أو الملحدة؛ تسعى لأن تمنح أكلها للناس كافة، لا تحكمها أنانية الحفاظ على السر، وحجب الاكتشاف- بدافع براجماتي- عن الآخرين.

إن الإنسان، مطلق الإنسان، هو المستفيد في نهاية الأمر من المعرفة المؤمنة، وبالمقابل فإن عشرات من الأمم والشعوب لم تحرم بالمعرفة اللادينية من حقها المشروع في الإفادة من ثمار هذه المعرفة فحسب، وإنما وُجّهت نتائجها وكشوفها إلى أسلحة فتاكة لتدمير هذه الجماعات واستعبادها والهيمنة على مقدراتها.

إن الدلالة المعاصرة والمستقبلية لمغزى الحضارة الإسلامية، كما تحققت في التاريخ، تتكشف أكثر فأكثر بالمضي في متابعة الخصائص التي أشرنا إليها في مقالين سابقين والتي تُعدّ بوضعها في حالة تقابل مع خصائص الحضارات الأخرى، والغربية الراهنة منها على وجه الخصوص، إضافة- أو بعبارة أدق.. تعديلا ضروريًا - لمسير هذه الحضارة؛ لأنها قديرة على تقديم البدائل المناسبة لحالات الخطأ والجموح التي تعاني منها.

إن الخصوصية الإيمانية للحضارة الإسلامية- مثلا- تقف بمواجهة التوجه المادي المتزايد للحضارات الأخرى، والتزامها يلجم تفلّتها الآخذ بالاتساع من منظومة القيم الخلقية، وواقعيتها تحد من شطط تنظيراتها الفكرية باتجاه طوباويات الحلم والخيال، وأصالتها تمنح المسار البشري طعما جديدا متميزا، وشموليتها وقدرتها على موازنة الثنائيات ولمّها توقف اندفاع المعارف والثقافات الأخرى وميلها إلى هذا الجانب أو ذاك على حساب الجوانب الأخرى التي قد لا تقل أهمية وإلحاحا.. وإنسانيتها تتجاوز بها حواجز العرق واللون والجغرافيا والمذهب.. وميزتها التحريرية ستنقذ الإنسان في نهاية الأمر من كافة الضغوط والصنميّات التي أذلت عنقه وهبطت به درجات عن مستوى بشريته كمخلوق متفرد في هذا العالم وسيد على مخلوقاته وموجوداته.

وهكذا، ومن أجل توخي الإيجاز يمكن إحالة القارىء إلى منظومة الخصائص التي أشرنا إليها في مقالين سابقين لكي يتولى بنفسه مهمة المقارنة بين النمط الإسلامي والأنماط الأخرى للنشاط الحضاري؛ لكي يصل إلى ما تتضمنه نتائج المقارنة من مغزى يؤكد قيمة الدلالة المعاصرة والمستقبلية للحضارة الإسلامية في شبكة النشاط الحضاري للبشرية جميعا.

والباحثون الغربيون أنفسهم انتبهوا إلى هذا، وقدموا شهاداتهم بهذا الخصوص، والتي تجيء كاعتراف حر مدعم بالقناعات العقلية، وموثّق بالرؤية المقارنة لما تتضمنه حضارة الإسلام من قيم وخصائص متميزة وفعّالة، يمكن أن تمارس دورها في صياغة حاضر الإنسان ومستقبله.

إن هذا الدين، كما يقول (بوازار) رجل القانون الفرنسي المعاصر: (يعود إلى الظهور في العالم المعاصر بوصفه أحد الحلول للمشكلات التي يطرحها مصير الإنسان والمجتمع)[1]، ولطالما أعرب عن اقتناعه (بأن في وسع العالم الإسلامي- من بين عوالم أخرى- أن يقدم مشاركة أساسية في تكوين المجتمع الدولي المرتقب)[2]، وأنه (يبدو

---

(١) إنسانية الإسلام، ترجمة د/ عفيف دمشقية، دار الآداب، بيروت- ١٩٨٠م، ص ٤٣١.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٣٩.

أحد العوامل الممكنة الهامة في الإنسانية العالمية الحديثة.. وهو مستمر في البحث عن الأشكال الكفيلة بالتعبير بصورة ملائمة عن تطلعاته)[1]. والمسلمون كما يؤكد الرجل (لا يشكون على الإطلاق في أن التعاليم المنزلة والقيم المتراكمة عبر العصور كفيلة بتقديم حل لمعضلات العالم المعاصر)[2].

ولم يفت (بوازار) أن يشير إلى أن التقدم العلمي المادي لا يكفي وحده ما لم تضبطه القيم الخلقية، فتوجهه بالتالي لصالح الإنسان. ومن خلال هذه الرؤية الأخلاقية للنشاط المعرفي المادي يمكن للإسلام (أن يؤدي دورا حقيقيًا في تنظيم العالم المعاصر) عندما يتقدم إليه (بمفهومه السامي للقيم الخلقية)[3]. وأهمية المشاركة الإسلامية تبدو أيضا في نظر (بوازار) في التوازن الذي يمنحه الإسلام، بما أنه تعبير عن روح ديني، لمسيرة المجتمع البشري، بين التقدم المادي (التقني) وبين المطامح الروحية والإنسانية عامة.. ولاسيما أن (الانخراط في المجتمع التكنولوجي، والمواجهة بين الإسلام والثورة التقنية لا تدفع المسلم إلى إنكار موقفه الديني بل إلى تعميقه أمام العالم وأمام الله، متوجبا عليه.. محاولة إدراك الإمكانيات بشكل أفضل في إطار إسلامي شامل..)[4].

إن (بوازار) يضع يده ها هنا على واحدة من أهم خصائص المنظور الإسلامي للنشاط الحضاري.. إنها معادلة التوازن الملح والمطلوب بين الديني والدنيوي، بين السماء والأرض، بين الروح والجسد، فليس ثمة إيمان متحقق في واقع الحياة إن لم يعبر عن نفسه في إطار نشاط تتداخل فيه وتتوحد وتتناغم كافة الثنائيات. والمواجهة بين الإسلام والثورة التقنية بالتالي ليست مواجهة أضداد متقابلة، بل هي مقاربة واحتواء وتوظيف للقدرات والإمكانات التقنية من أجل تكوين حياة إسلامية أكثر أصالة وتقدما.

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٨٧.

(٢) إنسانية الإسلام، ص ٣٣٠-٣٣١.

(٣) المرجع السابق، ص٣٦٩.

(٤) المرجع السابق، ص٣٨٧-٣٨٨.

إن القناعة الدينية كما يستنتج (بوازار) (تفرض نفسها حكما مطلقا على كل المستويات، ولا يمكن بدونها، أو بالأحرى على النقيض منها، مواجهة أي تغيير اجتماعي ولا أي تجديد مادي)[1].

وهذا الارتباط المحتوم بين الدين والتكنولوجيا في المنظور الإسلامي لا يعني ألبتة أن الحضارة الإسلامية ستقود (تطورها داخل أنبيق)، وبمعزل عن العالم، بل على العكس تماما، فإن هذه الحضارة (المتسامحة والمنفتحة بشكل طبيعي.. تتطلع إلى العمل بصفة شريك فعّال في الحياة الدولية..)[2] ويكفي أن نتذكر الجنوح المادي الذي تعانيه حضارة الغرب، ويكفي أن نفكر في احتمالاته المنذرة بالخطر، المتوعدة لأماني الإنسانية، وللإنسان ذاته، لكي نعرف أن دخول الإسلام إلى الساحة وإعادته الأمر إلى نصابه بتحقيق التوازن المطلوب، ليس مجرد مشاركة فعّالة، وإنما هو عملية إنقاذ للوضع البشري المنحرف عن الصراط.

وإذ يؤكد (بوازار) ما يقدمه القرآن الكريم في هذا السياق من (ثقة مطمئنة وحافز قوي في وقت معا) فإنه يحذر من (أن إسلام المستقبل ودوره في العلاقات الدولية) لا تجيء به الأماني والأحلام وإنما هو (رهن بما يصنعه المسلمون أنفسهم)[3].

وما قاله (بوازار) عن احتمالات الدور التوازني للحضارة الإسلامية في مستقبل العالم، وما يمكن أن تفعله القاعدة الدينية لهذه الحضارة والتزاماتها القيمية في ضبط وتوجيه النشاط المعرفي لصالح الإنسان، يمكن أن نلحظه- كذلك-لدى ليوبولد فايس (محمد أسد) وبمزيد من التفاصيل والمقارنات؛ فهو يشير إلى أننا (قد نكون، نحن المحدثين، بحاجة إلى تلك الرسالة بأكثر مما احتاج إليها الناس. إنهم كانوا يعيشون في بيئة أبسط كثيرا من بيئتنا نحن، وكانت في أيام محمد مشاكلهم ومصاعبهم أسهل حلا وأيسر إلى حد كبير. لقد كان العالم الذي كنت أعيش أنا فيه-كل ذلك العالم- يترنح

---

(١) إنسانية الإسلام، ص٣٨٨.

(٢) المرجع السابق، ص٣٨٨.

(٣) المرجع السابق، ص٣٨٩.

بسبب من فقدان أي اتفاق على ما هو خير وما هو شر روحيًا، وبالتالي اجتماعيًا واقتصاديًا أيضا. إنني لم أكن أؤمن بأن الإنسان الفرد كان بحاجة إلى (الخلاص)، ولكنني كنت أؤمن فعلا بأن المجتمع الحديث كان بحاجة إلى الخلاص. لقد شعرت أكثر من أي وقت مضى بأن عصرنا هذا كان بحاجة إلى أساس أيديولوجي لمستوى اجتماعي جديد... بحاجة إلى إيمان يجعلنا نفهم بطلان الرقي المادي من أجل الرقي نفسه، ومع ذلك يعطي الحياة الدنيا حقها. إيمان يبين لنا كيف نقيم توازنا بين حاجاتنا الروحية والجسدية، وبذلك ينقذنا من الهلاك الذي نندفع إليه برعونة وتهور)[1].

إن القضية بإيجاز هي أن يكون للحياة البشرية معنى أكبر وأعمق من مجرد التكاثر بالأشياء، وأن على المسلمين إذا أرادوا- بحق- أن يقوموا بدور في المستقبل، ألا يسمحوا للأشياء بأن تجرهم بعيدا عن جذورهم الروحية وقيمهم الأخلاقية التي منحهم الإسلام إياها (فلو أنهم احتفظوا برباطة جأشهم وارتضوا الرقي وسيلة لا غاية في ذاتها، إذن لما استطاعوا أن يحتفظوا بحريتهم الباطنية فحسب، بل ربما استطاعوا أيضا أن يعطوا إنسان الغرب سرّ طلاوة الحياة الضائع)[2].

لقد اندفعت الحضارة الغربية بعين واحدة، وبمرور الوقت أخذت تفقد قدرتها على إبصار كل ما هو روحي وأخلاقي، وبما أن هاتين القيمتين ترتبطان بالوجود البشري ارتباطا صميما وتميزانه عن بقية الخلائق والموجودات، فإن التقدم المادي الذي يمضي بعيدا عنهما لن يخدم الإنسان في نهاية الأمر، ولن يأمن من عواقب الاندفاع الذي لا تضبطه قيم ولا توجهه معايير، ولسوف تكون النتائج في المستقبل أشد خطرا؛ لأن التراكم المادي يتزايد بحسابات مذهلة لمتوالية هندسية... ويبعد أكثر فأكثر عن أي كابح أخلاقي أو استبصار روحي لمغزى الحركة ومعناها الأخير.

من ثم فإن أحدا لا يمكن أن يتهم مفكرا كـ (جورج سارتون)، غرق في دراسة تاريخ العلوم حتى شحمة أذنيه بالمبالغة وهو يحكم على (التقدم المادي الخالص) بأنه

---

(١) إنسانية الإسلام، ص٣٢٣-٣٢٤.

(٢) المرجع السابق، ص٣٧٦.

أمر (مدمر)، وأنه (ليس تقدما على الإطلاق بل تأخر أساسي، ذلك (أن التقدم الصحيح- ومعناه تحسين صحيح لأحوال الحياة- لا يمكن أن يُبنى على وثنية الآلات ولا على العتلات، ولكن يجب أن يقوم على الدين وعلى الفن، وفوق ذلك كله على العلم الخالص، على محبة الله، على محبة الحقيقة، وعلى حب الجمال وحب العدل. وهذا يبدو لنا جليًّا حينما نلقي نظرة واحدة إلى الوراء.. إن ما نراه واضحا هناك يجب أن يكون واضحا أيضا حينما نمد نظرنا إلى الأمام فيهدي خطانا إلى المستقبل) [١].

والمدنية، كما يؤكد (سارتون) (ليست مرضا، ولكن من الممكن أن تنقلب شرا وفسادا) [٢]، وذلك بمجرد أن تفقد بطانتها الروحية وتتنازل عن ضوابطها الأخلاقية، فتغدو مجرد محاولة للتكاثر المحض لا هدف لها ولا مغزى. ثم إن المدنية ليست حكرا على بيئة دون أخرى، إنها بتعبير (سارتون) (ليست شرقية ولا غربية، وليس مكانها في واشنطن أكثر مما هو في بغداد، إنها يمكن أن تكون في كل مكان يكون فيه رجال صالحون ونساء صالحات يفهمونها، ويعرفون كيف يستفيدون منها من غير أن يسيئوا استعمالها. والشرق الأوسط كان مهد الثقافة، ومنه جاءت أسباب إنقاذ العالم في أثناء العصور الوسطى حينما بدأ الستار الحديدي في أوربا يشطر العالم شطرين: الأرثوذكسي والكاثوليكي. وها نحن اليوم ننظر إلى ماضي الشرق الأوسط بعين من عرفان الجميل، ثم نرنو إلى مستقبله بعين من الأمل الحلو) [٣]، وليس ذلك بالأمر المستحيل كما قد يخيل للبعض، فإن (شعوب الشرق الأوسط قد سبق لها أن قادت العالم في حقبتين طويلتين.. وليس ثمة ما يمنع تلك الشعوب من أن تقود العالم ثانية في المستقبل القريب أو البعيد) [٤].

ولن تكون ممارسة الدور من خلال قدرات يتفوق فيها الغير بطبيعة الحال، إنما

---

(١) الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط، تعريب د. عمر فروخ، مكتبة المعارف، بيروت -١٩٥٢م، ص ٧٢-٧٣.

(٢) المرجع السابق، ص٧٤.

(٣) الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط، ص٧٤-٧٥.

(٤) المرجع السابق، ص٧٩.

بالتحقق بشيء كبير لا يملكه (الآخر) أو يعرف عنه شيئا، فإن الحضارة المادية لن تجعل الغرب يخلي الزمام لمن هم أقل شأنا في ميادينها كافة، ولكنها العقيدة التي تحتوي النشاط الحضاري وتمنح المسيرة البشرية المغزى والهدف.. تعيد إلى الغربيين أنفسهم ما فقدوه:(سر طلاوة الحياة الضائع) إذا استعملنا عبارة (ليوبولد فايس).

وتؤكد (جميلة قرار) النمساوية التي اعتنقت الإسلام أن هذا الدين (هو في الحقيقة حركي) وأنه يستطيع (بفضل جهود المسلمين أن يشكل قوة ثورية تحرر الإنسان من العبودية للقوة، وخاصة القوة المدمرة المهلكة وأن تقوده إلى التقدم البنّاء، وتمكّنه من تطوير قدراته وإمكاناته الإيجابية المختلفة) [١]. وهي تدعو (المسلمين المستنيرين) إلى أن يبينوا لغير المسلمين (أولئك الذين يبحثون عن غايات جديدة وقيم لحياتهم، أن الإسلام هو نقطة البدء الجديدة أمام الإنسانية جمعاء) [٢]. وهذا لا يعني بالتأكيد أيما قدر من التنازل عن المكتسبات المادية والمدنية عموما، ذلك (أن الإسلام بصفته دينا عالميا وعقيدة كونية يعتبر مناسبا لكافة مراحل تطور الحياة الإنسانية في المستقبل. فهو ينسجم مع منجزات الإنسان الحديثة في كافة مجالات النشاط الإنساني) [٣].

ويشير (كويلر يونغ) إلى الإسهام الفعال للثقافة الإسلامية (في الحضارة العالمية المعاصرة.. فليس من المعقول لثقافة حية كثقافة الإسلام.. ألّا يكون لها تأثير بالفعل أو بالقوة) [٤] في معطيات المعرفة الراهنة وتشكلها في المستقبل.

هذه المشاركة التي يؤكدها (درمنغم) بغية تحقيق التواصل بين الغرب والشرق، وإرفاد عالم المستقبل (بأذخار العالم القديم) [٥]، ويراها (إتيين دينيه) تبشر (بمستقبل

---

(١) عرفات كامل العشي، رجال ونساء أسلموا، دار القلم، الكويت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٣م ٤/١٠٨ –١٠٩.

(٢) المرجع السابق، ٤/ ١٠٩.

(٣) المرجع السابق، ٤/١٠٨.

(٤) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، تأليف جماعة من الباحثين، جمع وتقديم محمد خلف الله، القاهرة – ١٩٦٢م، الطبعة الثانية، ص٢٥٥.

(٥) حياة محمد ﷺ، ترجمة عادل زعيتر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة – ١٩٤٩، الطبعة الثانية، ص٣٧١-٣٧٢.

حافل بأعظم الآمال وأعلاها شأنا) وبإسهام حضاري فعّال، وبتكشف متزايد لنا عن طبيعة الإسلام الحقيقي..[1].

أما المؤرخ البريطاني المعاصر (مونتغمري وات) فيؤمل بأن المسلمين سوف ينجحون، على الرغم من المصاعب، (في جهدهم للتأثير على الرأي العام العالمي، على الأقل فيما يتعلق بالمبادىء الأخلاقية. وربما أمكنهم في ميدان الأفكار الدينية الأوسع أن يساعدوا على غناء العالم؛ لأنهم احتفظوا بقوة كبرى في التعبير عن بعض الأفكار كحقيقة الله (سبحانه)، تلك الأفكار التي أهملت ونُسيت في كثير من الطوائف والأديان الأخرى الموحدة)[2].

ونصل في نهاية المطاف إلى (جارودي)، فإن كتابه (وعود الإسلام) يعد بملاحظات خصبة عن المشاركة العالمية للحضارة التي شكلها هذا الدين، إن عنوان الكتاب يحمل بعدا مستقبليًا، وبالتالي فإن مادته القيمة ستصب هناك لكي ترسم للإنسان المعاصر، الحائر، الممزق ما يمكن أن تقدمه له الخبرة الإسلامية.

تتحرك ملاحظات (جارودي) حول المشاركة الإسلامية على عدد من المحاور أهمها، ولا ريب: توازن الإسلام ووسطيته، قيمه الأخلاقية، ثم رؤيته الشمولية وقدرته الفذة على منح المغزى لمسيرة الحياة البشرية في هذا العالم.. (إن الإسلام يجد من جديد فرصة تاريخية لإظهار أن عقيدته ومقاصده هي إجابة على قلق عالم قاده النموذج الغربي للنمو إلى التفكك الاقتصادي والسياسي والأخلاقي، كما في أيام نشوئه ثم زمن انتشاره، إن الإسلام قدم جوابا على تفتت الإمبراطوريات)[3].

يمتلك الإسلام من البطانة أو القاعدة الأخلاقية ما يتيح للحضارة الإسلامية مشاركة أشد فعالية في مستقبل العالم الذي أفلتت من بين يديه مؤشرات وضوابط القيم

---

(١) محمد رسول الله ﷺ، بالاشتراك مع سليمان الجزائري، ترجمة د. عبدالحليم محمود ومحمد عبدالحليم محمود، الشركة العربية، القاهرة- ١٩٥٩م، الطبعة الثالثة، ص٣٤٥-٣٤٦.

(٢) محمد ﷺ في المدينة، تعريب شعبان بركات، المكتبة العربية، صيدا- بيروت – بدون تاريخ، ص ٥٠٩.

(٣) وعود الإسلام، ترجمة زوقان قرقوط، الوطن العربي، القاهرة – بيروت- ١٩٨٤م، ص٢٠٨-٢٠٩.

فاندفع، بما يشبه الجنون، مشدودا إلى هدف واحد: المزيد من التكاثر للأشياء، والمزيد من القوة، بغض النظر عن أي قدر من التساوق أو الانسجام بين هذين الهدفين وبين التزامات القيم الخلقية من أجل صالح الإنسان. إن هذه المشاركة الأخلاقية كما يلحظ (جارودي) ضرورية جدًّا لوقف الاندفاع المجنون وتجنيب البشرية (الهلاك المحتوم الذي يسوق إليه الضلال الغربي) [(١)].

ونحن نعرف جميعا، انطلاقا من هذه الرؤية، ما الذي فعله ويمكن أن يفعله العلم الغربي المنفصل عن ضوابط القيم وذلك بعبادته للتكاثر والقوة، وما الذي فعله، ويمكن أن يفعله العلم الإسلامي المنضبط بالأخلاق وبالغايات الدينية في نهاية الأمر (لم نشدد على الوجوه التي لعب بها العلم الإسلامي باكتشافاته دور(الرائد) للعلم الغربي الحالي، وإنما على صفاته الخاصة في تبعيته وخضوعه للوسائل الإنسانية ذات الغايات الإلهية. في هذا المنظور، على القرن العشرين، والقرن الحادي والعشرين، أن يتعلما كثيرا من الإسلام) [(٢)].

أيضا فإن الحضارة الإسلامية بتقديمها فكرة التسامي (الأخلاقي) للإنسان كواحدة من أهم مرتكزات الإسلام العقدية، التسامي الذي يكون المؤمن فيه في حالة صيرورة متواصلة نحو الأحسن والأعلى.. هذه الفكرة لهي واحدة من أهم ما يمكن أن يقدمه المسلمون (لخلق مستقبل إنساني في عالم جعل استبعاد السمو منه، وسيطرة نموذج جنوني من النمو.. لا يمكن أن يُعاش) [(٣)].

أما الرؤية الشمولية للحضارة الإسلامية، والمغزى الذي تضفيه على الحياة البشرية، فتكاد تكون أهم إسهاماتها المقبلة، إذا ما تذكرنا كيف يتزايد الإحساس

---

(١) د. محمود حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، سلسلة كتاب الأمة، الدوحة- ١٤٠٤هـ ص١٤٤ -١٤٥(عن محاضرة ألقاها جارودي في جامعة قطر في كانون الثاني- ١٩٨٣م، بعنوان: الإسلام وأزمة الغرب).

(٢) وعود الإسلام، ص١١١.

(٣) المرجع نفسه، ص٣٦.

العالمي بالعبث واللاجدوى، وكيف تفقد الحياة البشرية يوما بعد يوم طعمها ومعناها، وكيف يتحوّل السعي المعرفي إلى نشاط تجريدي منفصل عن الإنسان، نقيض- أحيانا- لمطالبه ومطامحه.. وكيف تتفكك الوشائج بين أقطاب الكون وموجوداته، فيعيش الإنسان في عزلة مخيفة قد يكفي لتذكر مراراتها وأحزانها أن نلقي مجرد نظرة سريعة على آداب العصر وفنونه وفلسفاته، (لقد فقد الإنسان الغربي كل وحدة في علاقاته مع الطبيعة والمجتمع والله. انفصل عن الطبيعة التي اعتقد أنه سيدها ومالكها.. ولم تساعد المسيحية الإنسان مع حذرها الأول بإزاء الطبيعة ومع تراجعاتها المتتالية، منذ عصر النهضة، أمام (علموية) تدعي الإجابة على جميع مشاكل الحياة، على الحفاظ على هذا البعد الكوني، على هذا الاتحاد الحميم بجميع الكائنات.. والإسلام عندما لا يكون قد أفسدته الرؤية الغربية المباشرة التي فرضها عليه الاستعمار، يستطيع أن يساعدنا على أن نعي هذه الوحدة التي هي عقيدته المركزية الأولى)[1].

وبإيجاز شديد فإن (عقيدة الإسلام وقصدياته) تمثل الإجابة على قلق العالم الحديث الذي يصنعه ويقوده النموذج الغربي[2]، هذا النموذج الذي إن كان له أن يتباهى بما صنعته يداه، فليس له أن يشير إلّا إلى العلم والتقنية اللتين بلغ بهما- والحق يُقال- مرتقى صعبا.. ولكن حتى ها هنا، حيث لا يمكن للعلم أو التقنية أن ينفردا بمصير الإنسان بعيدا عن ارتباطاتها بفكرة ما، بفلسفة أو عقيدة تؤطر حركتهما، وتربطهما بالإنسان نفسه، وتمنحهما المعنى والهدف والمغزى، حتى ها هنا فإن الإسلام وحده يمكن أن يمنحنا الجواب.. **إن جارودي يتساءل:** (ماذا يستطيع الإسلام أن يقدم لنا ليعدنا للإجابة على المسئوليات التي تفرضها قدرة العلم والتقنية على جميع البشر اليوم؟) وما يلبث أن يجيب: (إن المشكلة كونية ولا يمكن للجواب إلاّ أن يكون على المستوى الكوني)[3].

---

(١) وعود الإسلام، ص٦٤.

(٢) وعود الإسلام، ص٢٠٨-٢٠٩.

(٣) المرجع السابق، ص٦٧.

إنها إذن (قضية مستقبلنا، قضية مستقبل جميع البشر) ومن ثم فإن (وعود الإسلام) ليس كتابا في التاريخ، كما يؤكد صاحبه (لكنه اقتراب جديد من الإسلام، ومن وراء الإسلام كقوة حية ليس فحسب في ماضيه، وإنما في كل ما يستطيع أن يسهم به في ابتكار المستقبل) [1].

* * *

---

(١) المرجع السابق، ص١٨٧.

خصائص التفسير الإسلامي للتاريخ

لن يتسع المجال في مقال كهذا للدخول في التفاصيل؛ ولذا سيتم التركيز على الخصائص الأساسية بالإيجاز المطلوب.

١- **المرونة وعدم التأزّم المذهبي**: يتميز الموقف الإسلامي من التاريخ بمرونته وبعده عن التوتر أو التأزم المذهبي الذي يسعى إلى قولبة الوقائع التاريخية وصبّها في هيكله المسبق، واستبعاد أو تزييف كل ما لا ينسجم وهذا الهيكل، الأمر الذي يوقع التفاسير الوضعية في كثير من الأخطاء والانحرافات.

هذا إلى جانب أن الفكر الوضعي لابد أن يتأثر بطبيعة العصر الذي يعيشه سلبًا وإيجابًا، وبدرجة أو أخرى، وهذا (التأثير) المحتوم ينعكس – ولا ريب – على معطياته الفكرية سواء كانت (صيغة) هذا التأثر بشكل (تقبّل) لقيم العصر وأوضاعه ومناهجه ورؤاه، أو (رفض) لها وتمرّد عليها. ففي كلتا الحالتين يلعب الجانب التأثري الانفعالي والإسقاطات الظاهرة والخفية في (الوعي) و(اللاوعي) دوره في الرؤية التي يمارسها المفكر تجاه الأوضاع والأحداث والأشياء.

فإذا ما حدث وكان المفكر مفسرًا للتاريخ، وتفسير التاريخ – كما نعلم – توسيع للتحليل صوب الماضي والمستقبل اللذين ينِدّان كثيرًا عن الحصر والضبط والتحديد، فإن لنا أن نتصور كم سيجيء هذا التفسير مطبوعًا بطابع العصر الذي يعيشه المفسر، وكيف أن الأشياء والظواهر والأحداث، في الماضي والمستقبل، ستأخذ اللون الذي يجد المفسر نفسه مضطرًا إلى النظر من خلال زجاجته التي أسقطت عليها مواضعات العصر الظلال والأضواء. وهذا يؤدي إلى أن تبعد التفاسير الوضعية، بدرجة أو أخرى، عن العلمية والموضوعية والحياد.

أما التفسير الإسلامي، الذي يستمد من رؤية الله التي تعلو على الزمان والمكان، وتتجاوز مواضعات العصر النسبية، فإنه ينظر بانفتاح تام إلى الأحداث ويسلط الأضواء على مساحاتها جميعًا، دون أن يقتصر على الأحمر أو الأخضر لكي تبدو حمراء

أو خضراء.. وهكذا فإن ثمة فرقًا (منهجيًا) حاسمًا بين المذاهب الوضعية وبين المذهب الإسلامي في تفسير التاريخ.. في الأولى تُصاغ حقائق التاريخ أو يُعاد عرضها وفق المذهب (المصنوع) سلفًا، فتقسر على الانسجام مع وضعية المذهب، وتُساق للتدليل عليه وتأكيده، وهذا الخطأ يجيء من حقيقة أن وقائع التاريخ سبقت في الزمن تخطيط المذاهب، ومن ثم فإن المذاهب جاءت كقضية (بعدية) تسعى إلى أن تجبر (القبليات) على التشكل بها.

وهذا التأزم المذهبي، هذا التحديد الصارم للنظم التي تتبعها الوقائع التاريخية في مسارها، هذا التوتر في التزام هيكل نظري مسبق، تُساق أحداث التاريخ للتدليل عليه بالحق والباطل، والذي بلغ أقصى حدته في المادية التاريخية التي رسمها (ماركس أنجلز) - دفع عددًا من المفكرين الأوروبيين إلى اتخاذ موقف معاكس تمامًا، يمثل رد فعل إزاء الموقف السالف، بحيث إنهم رفضوا القول بخضوع الحركة التاريخية لأي ناموس أو سنة، ومسيرتها وفق أي نظام مهما كان. وقد بلغ هذا الموقف - غير الموضوعي هو الآخر - أقصى حدته على يد (كارل بوبر) في كتابه المعروف (عقم المذهب التاريخي).

أما في القرآن الكريم فإن التفسير ينبثق عن رؤية الله سبحانه، وهي تختلف عن الرؤية الوضعية في أنها تحيط علمًا بوقائع التاريخ، بأبعادها الزمنية الثلاثة: الماضي والحاضر والمستقبل، وببعدها الرابع الذي يغيب كثيرًا عن ذهن الإنسان مهما كان على درجة من البصيرة والذكاء، والبعد الذي يغور في أعماق النفس البشرية فيلامس فطرة الإنسان وتركيبه الذاتي، والحركة الدائمة في كيانه الباطني، ويتسرب بعيدًا صوب اهتزازته العقلية والعاطفية والوجدانية، وإرادته المسبقة، وما تئول إليه هذه جميعًا من معطيات تمنح حركة التاريخ أبعادها الحقيقية، ويمتد كذلك لكي يشتبك في العلاقات الشاملة للمصير؛ ذلك أنها رؤية الذات الإلهية التي وسعت كل شيء علمًا، والتي صنعت الواقعة التاريخية، ووضعتها في مكانها المرسوم من خارطة التاريخ البشري والكوني على السواء.

إن الرؤية الوضعية تمتد إلى الماضي لتقتبس منه وتختار ما يعزّز وجهات نظرها المسبقة، أما الرؤية القرآنية فإنها تحيط بالماضي لكي تكثفه في قواعد وسنن تُطرح أمام كل باحث في التاريخ يسعى إلى فهمه، وإلى أن يرسم على ضوء هذا الفهم، طرائق حياته الحاضرة والمستقبلة، باعتبار أن الأزمان الثلاثة إنما هي وحدة حيوية تحكمها قوانين واحدة، كتلك التي تحكم الحياة سواء بسواء. وهذا ينقلنا إلى الميزة التالية.

٢- **الواقعية**: إن رؤية التفسير الإسلامي للأحداث رؤية واقعية شاملة في امتداداتها الزمنية الماضية والحاضرة والمستقبلية.. فيما كانت عليه، وما هي عليه، وما سوف تكون عليه.. إنه - مثلا - يعترف بالتمايز القومي، ويعطي لهذا العامل (الواقعي) حجمه الحقيقي، على الرغم من نزعة الإسلام العالمية، واستعلائه على الكيانات المحدودة المنغلقة على الإقليم أو اللون أو الجنس.. ويؤكد على ضعف الإنسان وتقلبه وعجلته، على الرغم من أنه جاء بمبدأ الاستخلاف الذي رفع به الإنسان إلى أعلى مرتبة، وأمر الملائكة بالسجود له.

إن التفسير الإسلامي تفسير (واقعي)، لا يتأثر بقيمه ومثالياته ممكنة الوقوع أساسًا في تفسيره للواقع - كما يفعل هيجل وماركس على سبيل المثال - إنما يتكلم عن الواقع كما هو، دون تسويغ أو تعديل أو تحوير، ولكنه من خلال حركته على أرض الواقع هذه ينطلق إلى أهدافه ومثله وآفاقه.. إنه يسمي معركة (حنين) هزيمة وفرارًا، ويخاطب مهزومي (أحد) بأنهم هم كانوا السبب وراء تلك الهزيمة، ويعلم المسلمين من خلال واقعيته هذه ألّا يسوّغوا أخطاءهم وينحرفوا في تفسير الأشياء والوقائع، ولكنه يعلمهم - في الوقت نفسه - أن يفيدوا من هذه الرؤية الواقعية للتاريخ لصياغة العالم المرتجى.

٣- **الناموسية**: إن التفسير الإسلامي مذهب ينبثق وفق أسلوب موضوعي (عما حدث فعلا) وعن طبيعة التصميم التاريخي للبشرية.. من سدى نسيجه ولحمته.. فهو إذن تبلور للخطوط الأساسية لحركة التاريخ يصوغها القرآن الكريم والسنة الشريفة في مبادئ عامة يسميانها (سننًا)، ينبغي أن يعتمدها المفسرون الإسلاميون منطلقًا - لا

لتزييف التاريخ – وإنما لتفسيره وفهمه وإدراك عناصر حركته ومصائر وقائعه، ومسالكها المعقدة المتشعبة. وهو – إذن – تفسير شامل محيط يعطي أصدق صورة للسنن التي تسيّر التاريخ.

٤- **الشمولية**: ينفتح التفسير الإسلامي للتاريخ على كافة (القوى الفاعلة) في الحركة التاريخية: المنظورة وغير المنظورة، العقلية والوجدانية، المادية والروحية، الطبيعية والغيبية.. ويرفض تجزؤ الرؤية وعزل الأرض عن موقعها الصحيح في الكون وارتباطاتها الشاملة بما حولها.

إن معظم مذاهب التفسير التاريخي، وضعية كانت أم دينية (محرفة)، قدّمت معطياتها متخطية الإجابة عن هذا السؤال المهم: ما هي العلاقة بين الله سبحانه وبين الطبيعة بما فيها القوى المادية، والإنسان بما أنه روح وجسد، في صنع التاريخ وإقامة الحضارات؟ وهل من المحتم أن تتكئ أحداث التاريخ على عامل واحد من بين هذه العوامل الثلاثة، ويُلغى العاملان الآخران، أو على الأقل يغدوان ظلالا باهتة لفاعلية العامل الرئيس؟ ولماذا هذه الجدران التي أُقيمت بين الله والطبيعة والإنسان؟

إن معظم مذاهب التفسير تخطت الإجابة عن هذا السؤال، تاركة في طريقها ثغرة عميقة ومنغلقة، ذلك أنها في بحثها عن الفرضية التي تمنح صفة الفاعلية لعامل واحد، تلغي العوامل الأخرى إلغاءً. ومن ثم برز التفسير السحري للتاريخ، وتطوّر ليعبر عن نفسه بالتفسير (اللاهوتي) الذي ساد تفكير مثقفي العصور الوسطي الأوربية، كما برز التفسير الفردي (البطولي) للتاريخ، والتفسير العقلي (المثالي)، والتفسيرات الطبيعية التي بلغت أقصى حدّتها في (المادية التاريخية) التي يصفونها (بالعلمية).

إن تفسير التاريخ البشري يجب أن ينبثق عن موقف موضوعي شامل، يربط ويوازن ويدرك العلاقة المتبادلة بين سائر القوى التي تصنع التاريخ: مادية وروحية.. طبيعية وغيبية، ولن يتحقق هذا بطبيعة الحال إلا في نطاق (الموقف الإسلامي) حيث تعمل كافة القوى، بانسجام وتوافق، في الصيرورة التاريخية بدءًا وانتهاء.

حول نهاية التاريخ وسقوط الأيديولوجيات

أما نهاية التاريخ التي قال بها المنظر الأمريكي (فرنسيس فوكوياما) فلا تعدو أن تكون افتراضًا، وهو إذا أحلناه على قوانين الحركة التاريخية نفسها يغدو افترضًا مستحيلا..

ذلك أن البشرية فُطرت على التغاير والتنوع والاختلاف، وهي معطيات تعكس نفسها على مرآة التاريخ حينًا، والجغرافيا حينًا آخر، وبصيغ شتى قد تبدأ بلون البشرة واللغة، والعادات والتقاليد الأولية، وتنتهي بالنشاط أو الفعل الحضاري بمفهومه الشامل.. وكل المحاولات التي جرت لإلغاء هذه الحقيقة أو تجاوزها، أو القفز عليها، آلت إلى الفشل.

و(فوكوياما) نفسه عاد، بعد سنوات من إصداره كتابه المعروف، لكي يغير ويبدل في بنيته الأساسية، ولكي يعطي المجال للتغاير المحتوم بين الأمم والجماعات والشعوب.

لقد قالها القرآن الكريم بوضوح: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [هود] – إلّا من رحم ربك – ولذلك خلقهم، أي خلقهم للتغاير والتنوع والاختلاف، وهي من بين جملة من الشروط التي تعين على تحريك الحياة البشرية ودفعها إلى الأمام، وتطهيرها من السكون والفساد: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة:٢٥١].

وفي يوم ما حلمت الشيوعية بنهاية التاريخ على طريقتها الخاصة، تستلم البروليتاريا مقاليد السلطان، وتستوي الأمم والشعوب تحت مظلة شيوعية يستوي فيها الجميع، وتذوب خصوصيات وفواصل الأمم والطبقات والشعوب، ويغيب العمق التاريخي، والإرث الحضاري، ولا يتبقى هناك سوى نماذج مكررة تنتظر فرصتها للمأكل والمسكن والجنس.. فماذا كانت النتيجة؟

واليوم يحاول منظر أمريكي كفرنسيس فوكوياما أن يعيد المقولة نفسها، ولكن تحت مظلة الرأسمالية وبقيادة الدولة الكبرى والأقوى: الولايات المتحدة الأمريكية. وهرول المخدوعون بهذا الادعاء يلقون أرديتهم وخصوصياتهم وإرثهم الثقافي ودينهم وعقيدتهم، وهم يتصورون أن الانتماء للمظلة الجديدة سيمنحهم الخبز والدفء والملذة والأمان.

وفي اعتقادي: فإن نظرية نهاية التاريخ وُلدت كي تموت؛ لأنها ترتطم ابتداء بقوانين التاريخ نفسه!

وأما سقوط الأيديولوجيات الذي أكدته معطيات القرن العشرين؛ إذ تهاوت نظرية الرجل الأبيض، والاستعماريات الغربية الكبرى، والشوفينيات العملاقة، والوجودية ذات الإغراء.. والشيوعية السوفيتية الأممية...فإنه لا يعني - بالضرورة- عدم قدرة الأيديولوجية أو العقيدة الأكثر انسجاما مع مطالب الإنسان على التواصل والديمومة والبقاء.. بل على العكس تماما: إن سقوط الأيديولوجيات الوضعية يؤكد ضرورة الأيديولوجية الدينية؛ لأنها الوحيدة التي لا تأسرها نسبيات الزمن والمكان، أو تصوغها عقول بشرية، مهما جدت واجتهدت فإنها عرضة للخطأ والقصور والانحياز.. لأنها تفتقد- ابتداء- القدرة الشمولية، والرؤية الموضوعية العادلة، للوجود والمصير.

والعولمة هي إفراز طبيعي تماما لجملة من الشروط والعوامل التي شكلت الحضارة الغربية المادية عبر القرون الثلاثة الأخيرة.. وهي مزيج مرتبط الوشائج من كل المؤثرات والمعطيات التي تنطوي عليها هذه الحضارة: التفوق العلمي في سياقيه النظري والتطبيقي، والقدرة العسكرية بتقنياتها الهائلة المتمخضة عن ذلك التفوق.. والإمكانات الاقتصادية الأسطورية... والمركزية الأوربية المنسحبة، أو المهاجرة إلى القارة الجديدة، ورؤية الرجل الأبيض للشعوب الأخرى، والعقلية الاستعمارية الباحثة عن تسخير الأيدي والعقول العاملة الأكثر رخصا وعطاءً، وعن الخامات التي تديم قدرتها على العمل والاستمرار والأسواق التي تلتهم إنتاجها.. أضف إلى ذلك نبضها

الديني الذي لا يزال يخفق تحت أردية العلمانية والإلحاد وينتظر الفرصة للرد على أولئك الذين تحدوه يوما، وإنزال العقاب بهم.

هذه كلها تجتمع اليوم لكي تشكل منطوق العولمة بفرضياته ومعطياته معا.. بل إن نظرية نهاية التاريخ نفسها، وبموازاتها نظرية صراع الحضارات لصمويل هنتنجتن وغيرهما من التنظيرات الفكرية تصب هي الأخرى في بؤرة العولمة.

ولنتذكر اللدغة التي تلقتها المنظومة الشرق أقصوية التي طمحت إلى قدر من الاستقلالية في نشاطها الاقتصادي والمالي.. إذ سنجد أن الخاسر الوحيد في لعبة العولمة، أو دولابها الأسطوري هي الشعوب الأضعف، مهما كانت مطالبها عادلة ومحقة.

إن خط الغنى والفقر الذي سبق أن تحدث عنه المفكر الجزائري مالك بن نبي – رحمه الله- والذي يمتد على محور طنجة- جاكرتا، فيفصل العالم إلى شمال وجنوب.. لن يكون بمقدور العولمة أن تلغيه بوعودها الخادعة، بل على العكس، وكما هو واضح عبر معطيات العقد الأخير، ستزيده عمقًا، وسيكون عبور الخنادق الموغلة بين الطرفين أمرا مستحيلا.

* * *



القسم الثاني

الأستاذ الدكتور عبد الحليم عويس

على بوابة المستقبل.. وقفة صريحة ومراجعة ضرورية

المهمة غير المستحيلة:

إن مهمتنا في انبعاث حضارتنا الإسلامية في دورة جديدة من التاريخ غير مستحيلة...

لا أقول-وقد كدت أقول- إنها مهمة سهلة.. ولكن- مع ذلك – فهذه المهمة- رغم صعوبتها- ليست مستحيلة ولا شبه مستحيلة..!!

إننا لن نبدأ من فراغ؛ فإن أصول حضارتنا ثابتة وموجودة وواضحة... وإن بين أيدينا كتابا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، نستطيع أن ندور في فلكه دون أن نزيغ أو نضل..

ولدينا تجارب حية واقعية أثبتت صلاحية ديننا، وقدرته على التحدي والإبداع، والصمود، والتفوق على كل عوامل الاندثار الحضاري!!

وقد واجهنا-في مراحل تاريخنا ويوم ظهرنا على الأرض- حضارات كبرى كان الفارق بينها وبيننا هو الفارق نفسه الذي يفصلنا الآن عن حضارة العصر، بل ربما كان الفارق أكثر، وكان التحدي أكبر.

وبهذا الدين، وما يضمه بين أصوله وفروعه من قابلية متجددة للعطاء الحضاري، والانبعاث المستمر، قبلنا كل التحديات واستجبنا لها... ولم ننهزم أمامها، أو نتعامل معها من موقع الدونية، فنقيس ما عندنا إلى ما عندها، ونزن ما لدينا بما لديها.. بل العكس هو الصحيح... لقد وضعناها بكل أفكارها وعطاءاتها على مقياسنا وميزاننا، وقبلنا ما ينسجم معنا ورفضنا ما ترفضه موازيننا...

إننا لم نقف كما يريد بعض مهزومي هذا العصر موقف المحاكي والمقلد.. فهذا الموقف-غير الحضاري- لو وقفناه لما كانت لنا حضارة ذات ملامح وأصول إسلامية، ولكنا قد ذبنا كغيرنا...

بل إننا من نقطة الإحساس الإسلامي الأصيل والوعي الحضاري الرشيد هيمنَّا على هذه الحضارات.. وكنا الشهداء عليها والمميزين بين ثمينها وغثَّها...

وقد اختلفنا في الرأي حول كثير من الموضوعات، وتعددت في أيدينا أساليب المواجهة.. واختلفنا حول أولوية هذه الأساليب.. فمن عقلاني إلى نصي، ومن نصي ظاهري إلى نصي مؤول.. وفي العقيدة والفقه واللغة والتفسير والاقتصاد.. اختلفنا.. لكن المهم-كما يقول كاتب معاصر-أن أسلافنا على الرغم من هذه الاختلافات يجعلونك تحس أنهم كانوا كالذين يتبارون على ملعب واحد، يلتزمون روحًا واحدة، وقواعد متفقًا عليها، ومن هنا أمكن أن تكون لهم ثقافة موحدة الروح، وإن تباينت جوانبها، وظواهرها..[1].

لقد واجهوا كل المواقف.. بموقف مضاد، يمتاز بأنه (فعل) و(دائم) و(شامل) وليس مجرد (رد فعل) (وقتي) (جزئي)..

فعندما استحر القتل في القراء، وخافوا ضياع القرآن جمعوه في المصحف.. هكذا كان موقف أبي بكر رضي الله عنه.

وعندما أحسوا بأن للشعر الجاهلي صلة بالإعجاز القرآني البياني، فالشعر ديوان العرب، أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالاهتمام بالشعر، وقال للناس: عليكم بديوانكم لا يضل، قالوا: ما هو؟ قال: شعر الجاهلية فيه معنى كتابكم!!

وعندما خشي عثمان رضي الله عنه اختلاف الناس جمع القرآن في مصحف واحد، وأحرق ما دونها.. فكان عمله من أفضل الخدمات لديننا ولحضارتنا.. وقد منع عنا- جزاه الله وإخوانه خيرًا- ما وقعت فيه النصرانية من تبديل وتحريف!!

ولما شاع اللحن أمر علي رضي الله عنه أبا الأسود الدؤلي بوضع قواعد النحو..

ولما أحسوا بعجزهم منفردين عن تفسير القرآن ابتدعوا علم التفسير.

---

(١) د/ زكي نجيب محمود، مجتمع جديد أو الكارثة، القاهرة، دار الشروق، الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م، ٣٣١.

ولما ظهر الوضع في الحديث ابتدعوا علم الجرح والتعديل، وجمعوا الأحاديث، وأخضعوها لمنهج علمي من أدق مناهج النقد التاريخي.

ولما خرجوا من الجزيرة وواجهوا نحلا باطلة كثيرة وبقايا وثنيات تأبى أن تزول ابتدعوا علم الكلام الذي أدى دوره كاملا في عصورهم..

وفي مواجهة مسائل الحياة المتجددة أنشئوا علم الفقه.. والمذاهب.

وعندما أحسوا بالحاجة أثناء أسفارهم وفتوحاتهم إلى معرفة القبلة والوقت دونوا علم الهيئة..

وعندما أحسوا بالحاجة الاجتماعية إلى العد والحساب وضعوا علم الحساب.. واخترعوا الصفر!!

ولن نستطرد في ذكر هذه المواقف الحضارية الإيجابية الرائدة، إنما حسبنا أن نشير إلى نوعية أسلوب المجابهة الذي التزمه أسلافنا..

إنه أسلوب الحل الأصيل الشامل المتفوق، وليس الحل الانهزامي الذي يسعى إلى الترقيع والتقليد!!

* * *

إن قدرة حضارتنا على الانبعاث والاستئناف فريدة في التاريخ.. فقط أن تتوافر الإرادة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد:١١]. إنها - من هذا الجانب - حضارة معجزة...

ففي أقل من نصف قرن من إيمان رجل واحد بها..كانت جيوشها تدك أعتى عروش الظلم، وكانت تستقبل- في فارس والروم- وهما أرقى حضارتين- استقبال الهمجية للحضارة، والغابية للإنسانية.. ولم يعرف في التاريخ أن حضارة تنبعث في مثل هذا الظهور المفاجئ، وهذه الطفرة المعجزة..

حضارة تنبعث هكذا واقفة على أقدامها لها أصولها وجذورها الضاربة في كل فكر وفي كل ركن.. حضارة تبرز كالبناء الكامل القائم على أسس راسخة..

﴿ كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ [إبراهيم].

ويحار المستشرقون في تفسير هذه الظاهرة الفريدة في التاريخ الحضاري!! ومن حقهم أن يحاروا؛ لأنهم لا يؤمنون- بل لا يعرفون- إلا الدفعة العرجاء للمادة..أما دفعة الروح الهائلة فهم لا يريدون-وربما لا يستطيعون- أن يؤمنوا بها..

يقول أحد أبناء الحضارة الأوربية الذين نجحوا- بعد جهاد مرير- في الانسلاخ منها.. مصورًا هذه الحقيقة التي تتميز بها الحضارة الإسلامية من بين سائر الحضارات..

يقول ليوبولدفايس (محمد أسد) بعد أن يستعرض القرون الطويلة التي تكونت فيها مقومات الحضارة الأوربية مما ورثته عن حضارة اليونان والرومان وما خلفته لها المسيحية.

وبعد أن يستعرض-كذلك- الأحقاب الطوال التي تكونت فيها حضارة الرومان، والزمن الذي استغرقته حضارة الهندوس التي امتدت بها سدم الماضي إلى السومريين، والأجيال التي امتصت عصارتها حضارة العبرانيين التي اتصلت بحضارة الكلدانيين والبابليين والمصريين والحيثيين!!

وسفائن التاريخ التي امتطتها حضارة الصين، وحضارات بابل وإيران وآشور..

يقول (محمد أسد) بعد هذه الرحلة في أصول الحضارات:

(ولكن هناك استثناء واحدًا لكل ما أسلفنا من قول، استثناء كاد لغرابته أن تذهل له العقول وتنعقد الألسنة، فلم يذكر تاريخ البشر فيما عرفه الناس من حضارات سوى حضارة واحدة برزت للوجود من عالم الغيب دفعة واحدة، واستوت للناظرين قائمة على أصولها في فترة محدودة من تاريخ البشر، تلك ولاشك حضارة فذة من نوع فريد وإنها لحضارة الإسلام!!

فلئن قامت كل الحضارات الأخرى ونشأت رويدا رويدا من تراث الماضي بما حوى من ضروب الرأي وتيارات الفكر، واستغرقت في تبلورها إلى شكلها الخاص وكيانها المحدد آمادًا طويلة من الزمن، **فلقد انفردت حضارة الإسلام وحدها بانبجاسها إلى الحياة دون سابق عهد أو انتظار.**

وقد جمعت هذه الحضارة، من فجر نشأتها، كل المقومات الأساسية لحضارة مكتملة شاملة. فقامت في مجتمع واضح المعالم، له نظرته الخاصة إلى الحياة، وله نظامه التشريعي الكامل،وله منهجه المحدد للعلاقات بين الأفراد، بعضهم ببعض داخل هذا المجتمع.

ولم يكن قيامها ثمرة تقاليد زخر بها الماضي، ولا وليد تيارات فكرية متوارثة، ولكن هذه الحضارة، كانت وليدة حدث تاريخي فريد هو تنزيل القرآن الكريم، وكان مردها إلى رجل فذ في التاريخ هو محمد ﷺ[1].

* * *

وهذا الذي ذكره (محمد أسد)، والذي ذكرناه أيضًا، إنما يتعلق بمقومات هذه الحضارة وأصولها العقدية والثقافية والاجتماعية ونظرتها للكون وصياغتها للحياة..

إنها أصول ثابتة وواضحة يستطيع أن يقوم عليها البناء الحضاري التطبيقي -في أية فترة من التاريخ- متى توافرت الإرادة البشرية، وانسجمت عناصر الإبداع، من إنسان وعقيدة وتراب وزمان..

وفي هذا المستوى فإن الحضارة الإسلامية تنمو كما تنمو كل الكائنات الحية، ويبرز الدور البشري الذي يجسد فكر الحضارة وقيمتها، ويعطيها طابعها العام الذي ينساب في كل جزئياتها..

فلئن كانت الحضارة اليونانية قد امتازت بالطابع المنطقي الجدلي، وجاء الرومان فامتازوا بالطابع المادي على الرغم من بعض الاختلاف في الملامح الخاصة لأجناسها

---

(١) الإسلام والتحدي الحضاري، دار الكاتب العربي، بيروت ص١٩.

من سكسون تجريبيين، إلى فرنسيين رياضيين، إلى ألمان يتميزون بالطابع الميتافيزيقي، إلى أمريكان يتميزون بالطابع النفعي (البرجماتي)!!

لئن كان لكل حضارة طابعها الذي ينتظمها على هذا النحو، فإن للحضارة الإسلامية طابعها الذي يتجلى عند التطبيق، والذي يميزها عن بقية الحضارات.. ويعطيها أهميتها في التاريخ..

- إنه طابع الإنسانية، والأخلاقية في مستوى الواقع البشري.
- وإنه طابع التوحيد في مستوى العلاقة بالله.
- وإنه طابع الحق والعدل والعلم في كل أمر من الأمور وكل علاقة من العلاقات..
- وهذه هي الحضارة (الحتمية) لعالمنا المعاصر؟!

وإن استئناف مسيرتها لأمانة في أعناق المسلمين... وسوف يسألون!!

خطأ في المنهج:

(تشخيص الأعراض..لا الأمراض).

من بين الكتابات الكثيرة التي صدرت في القرن الرابع عشر الهجري عن (أسباب تخلف المسلمين) لم نجد-باستثناء قلة رائدة على رأسها أبو الأعلى المودودي وسيد قطب ومالك بن نبي ومحمد أسد - من حاول تشخيص الأمراض.. وإنما ساد كتابات أكثرهم منهج (تشخيص الأعراض) دون النظر إلى الأمراض اللهم إلا عرضًا.. وإن كثيرًا منهم ليخلطون بين الأمراض والأعراض بطريقة توحي أن المنهجية -في التحليل- عملية مفقودة، وأننا نتناول أكثر القضايا خطورة بالمنهج نفسه الذي يملأ به الصحافيون أبوابهم الثابتة في الجرائد والمجلات..!!

وحتى كثير من المؤرخين-سامحهم الله- غلب عليهم منهج السرد، والحديث عن الظواهر العارضة دون دراسة ما وراءها من أسباب كامنة..

وفي أكثر الدراسات والأبحاث التي حاولت أن تعـالج أسـباب تخلـف المـسلمين رأينا التركيز على:

- الغزو الفكري.
- الاستشراق.
- الجمعيات السرية والماسونية والروتاري والخلايا الشيوعية وغيرها.
- التبشير.
- سقوط الخلافة العثمانية.
- إحلال القوانين الوضعية محل الشريعة.
- سقوط مكانة المرأة في المجتمع الإسلامي.
- تحول المسجد إلى معبد وانحسار رسالته.
- سقوط الحجاب وظهور السفور واختلاط الجنسين.
- سيطرة الأيدي الخفية على التعليم في جميع مراحله.
- ظهور الدعوات الإقليمية واللادينية.
- تبني الإعلام محاربة الله ورسوله والمؤمنين.
- سيطرة البنوك الربوية على الحياة الاقتصادية.
- سقوط العالم الإسلامي عسكريًا واقتصاديًا وثقافيًا.
- ظهور دولة إسرائيل وضياع القدس الشريف.
- تكريس الهزيمة والفرقة والضياع رسميًا..[(١)].

* * *

وعند النظر الفاحص نجد أن هذه الشوائب وغيرها إنما هـي أعـراض لا أمـراض

(١) انظر: محمد كاظم حبيب، مجلة البلاغ، العدد الرابع عشر، مقال: أقيموا دولة الإسلام في بيوتكم (بتصرف).

والمنهج السليم والعلمي أن نبحث عن أسباب الأمراض لا عن أعراضها... فإن ضعف الجسم نتيجة وليس سببا... وقد يكون وراء ضعفه أسباب مختلفة... فلربما كان فقر في الغذاء، أو سوء تنظيم في برنامج العمل والراحة، أو تلوث في الهواء، أو إجهاد نفسي وفكري، أو غير ذلك... وعندئذ يكون العلاج أن نعالج المرض الأصلي بما يناسبه... وبالتالي تزول من نفسها وبتأثير عودة الجسم إلى حالته الطبيعية- هذه الأعراض الطارئة والظاهرة...

وإنما سقطت خلافة العثمانيين، وإنما نجح الغزو الفكري والاستشراق، وإنما فرض الخديوي إسماعيل القوانين الوضعية، وإنما سيطر التبشير واليهود على الإعلام والتربية، وإنما سفرت المرأة، وسقطت مكانتها (كما سقطت مكانة الرجل!!)، وسيطرت البنوك الربوية، وظهرت إسرائيل في فلسطين،وروسيا في أفغانستان واليمن والصومال..

إنما وقع كل ذلك وغيره؛ لأن هناك حالة (قابلية للاستعمار) (حسب تعبير مالك بن نبي) قد أصيب بها الإنسان المسلم.

والعلاج الصحيح والوحيد أن نزيل هذه القابلية للاستعمار، وأن يُبْنَى المسلم- من جديد- وفق برنامج يكفل له التفوق الحضاري-علميًا وعقديًا وخلقيًا- وتـزْرَع فيه العزة التي تستعلي على هذه القابلية للذل وتستطيع ببنائها الذاتي طرد الجراثيم المضادة.

إنه لخطأ كل الخطأ-في منهج الفكر الإسلامي الحديث- أن نكتب عشرات الكتب عن الأعراض- مستسهلين هذا الطريق- ولا نكلف أنفسنا عناء الغوص في أعماق القوانين الحضارية التي هي من سنن الله الكونية والاجتماعية لنعرف حقيقة الداء الذي أصيب به الإنسان المسلم حتى فقد قدرته على البقاء في حلبة الصراع الحضاري، وقدرته على التوازن في مواجهة العواصف، وقدرته على تقديم أي شكل من أشكال الحضارة.

ولقد رضي الإنسان المسلم بهذه الحالة الهابطة التي تجعله طفيليا يأخذ من حضارة العصر غثاءها وخواءها ويترك طيبها وجميلها.. تمامًا كما تفعل الديدان والكائنات المنحطة!!

والكارثة الكبرى.. أنه لا يحس بالكارثة!!

* * *

سياسة عقيدة ودعوة

في التاريخ الإسلامي غبار كثير تراكم، متدرجًا من البسيط إلى المركب، حتى أصبح خلال القرن الرابع عشر المنصرم والعقود الأولى من القرن الخامس عشر قوالب حجرية جامدة يصعب زحزحتها عن مواقعها.

إنها قوالب نمت في مسيرتنا التاريخية كما تنمو الأتربة التي سرعان ما تصبح أكوامًا تحجب الرؤية، وتفرض نفسها، كجزء من الحقيقة الأرضية، بينما هي في أصلها أمشاج متناثرة وفدت من كل الأصقاع، وحملتها مختلف الأعاصير، كما يحمل كل عهن منفوش لا وزن له!!

وقد جنحت هذه الأتربة الكثيفة على (العقل المسلم) بحيث أصبح هذا العقل المكافح في حاجة إلى قوة هائلة كي يتمكن من زحزحتها.. وإعادتها إلى أمشاج متناثرة.. تتجه إلى صوب آخر.

ولنبدأ (بعقيدة المسلم)..

فأين هي العقيدة التي نزلت على محمد بن عبد الله ﷺ وتلقاها جيل الصحابة صافية نقية بينما هي تهبط من فوق إلى تحت، ثم تظهر آثارها الصافية النقية بينما هي صاعدة من تحت إلى فوق..

إنها-كما هبطت صافية نقية- تتلخص في آيات محدودات بريئة من شوائب الجدل المنطقي أو (الديالكتيكي):

﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ [البقرة:٢٥٥].

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)﴾ [الإخلاص].

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١].

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥ ﴾ [البقرة].

أين هذه (العقيدة) (البسيطة) التي تلقتها (الفطرة) السليمة، فوجدت فيها حقيقتها الكاملة، وجوهرها النقي، فتفاعلت معها تفاعل الدم مع القلب.. وانطلقت بها فطرة الرعيل الأول تنفض عن البشرية غبارها المتراكم عبر القرون.. وترفع لواء (لا إله إلا الله محمد رسول الله) من طنجة إلى جاكرتا.. بل في قلب أوربا فيما قبل جبال البرانس وفيها وراء البرانس حتى (بواتييه) على أبواب باريس.

وفي كل ذلك مرورا بميراث أكبر إمبراطوريتين في عالم القرن السابع الميلادي دوت صيحة (الله أكبر) حتى وصلت إلى عنان السماء.. فعاد الهتاف العلوي الهابط من السماء إلى الأرض.. يصعد مرة أخرى من الأرض إلى السماء في أكبر عملية التحام بين الإرادة الإلهية والإبداع البشري في تاريخ هذا الإنسان على هذا الكوكب الصغير!! أين هي هذه العقيدة الصافية النقية، وأين هو إنسانها ذو الفطرة السليمة..؟ وأين هما من هذا الركام من التصورات والأباطيل التي نمت في عقل المسلم، وجعلته كينونة غريبة بين الإيمان والشرك في سياق واحد: ﴿ وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ١٠٦ ﴾ [يوسف:١٠٦].

أجل: أين فقه العقيدة لا (علم الكلام)؟!!

* * *

عقيدة ودعوة

إن عقيدة المسلمين التي فتحوا بها العقول والقلوب والأرض هي تلك العقيدة الإسلامية البسيطة الحية الإيجابية الفاعلة التي خرج بها المسلمون في العهد النبوي، في غزوات وسرايا وبعوث بلغت خلال عشرة أعوام أكثر من ثماني وستين غزوة وسرية وبعثًا..

وهي -كذلك- هذه العقيدة التي واجه بها المسلمون أباطرة الأرض وقياصرتها في العهد الراشدي وكأنهم يواجهون بقوة السماء ضعف الأرض، وبشموخ الحق انحدار الباطل.. لقد واجه بها خالد وأبو عبيدة وسعد بن أبي وقاص أعنف معارك التاريخ حتى عصرهم..

ووقف - بهذه العقيدة - ضابط صغير من ضباط المسلمين يدعى ربعي بن عامر، يقول لرستم قائد الفرس:

(لقد ابتعثنا الله لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل منا ذلك قبلنا منه، ورجعنا عنه وتركناه وأرضه).

لم تكن (العقيدة)- في فقههم- إلا الحياة.. فلا حياة بلا عقيدة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤] .

ولم تكن الحروب في منهجهم إلا حروب عقيدة ودعوة لا معارك سياسة ودولة.. إن كل جندي مسلم كان يحس بأنه (عمر بن الخطاب) و (خالد بن الوليد) وأن النصر إنما هو انتصار لقضيته هو في الأرض.. كان كل منهم جيشًا عقديًا يسعى لتحرير البشرية من عبودية العباد إلى عبودية الله.. وكان آخر ما يفكرون فيه المغنم والمتاع.

انظر إلى فتوحاتهم على قلة ما ملكوا فيها من عدد وعدة كيف قهرت جيوشا كثيفة العدد قوية العدة، ففي فتح الأندلس التقى طارق بن زياد ومعه اثنا عشر ألف جندي ومعظمهم حديثو عهد بالإسلام من البربر... التقي بجيش إمبراطورية القوط العصري المنظم الذي يزيد على مائة ألف جندي.. فكان النصر للعرب وللبربر حديثي العهد بالإسلام وقليلي العدد والعدة، وفتحت على أيديهم أسبانيا، وانتشر فيها الإسلام حتى أصبح يهدد- من خلالها- كل أوروبا..

إنها جيوش (عقيدة) و (دعوة).. لا جيوش (سياسة) و (دولة)!! فلما جاء عبد الرحمن الثالث الشهير بعبد الرحمن الناصر، حكم أوربا-كما يقول التاريخ- من خلال

عاصمته قرطبة، وكانت له علاقات طيبة بإمبراطور الدولة البيزنطية (قسطنطين السابع) (٩٠٥-٩٥٩م).

وبإمبراطور الدولة الرومانية (أوتو الأكبر) (٩٦٣-٩٧٣م).

وبملك إيطاليا (هوج دي بروفانس)..

كما أن عبد الرحمن الناصر (٣٠٠-٣٥٠هـ) كانت له حروب ظافرة ضد ملك (نابرة) سانشو الأول، وملك ليون أوردو الثاني..

ومن الغريب أن (الناصر) كان يلعب ببعض حكام أوربا، على النحو الذي يمارسه الغرب والشرق-الآن- بالمسلمين!!

فلما مات (راميرو الثاني) ملك ليون، ودب النزاع على السلطة بين ولديه (أوردوينو، وسانشو).. كان الناصر هو الحكم بينهما، وقد وقف إلى جانب سانشو عندما وافق الأخير على أن يعطيه عشرة حصون مهمة على حدود مملكته!!

- لكن ماذا أفاد الإسلام من كل هذا المجد؟

- إنه مجد محدود.. كالبريق الزائف.. لأنه لم تصحبه (دعوة) وما إن مات الناصر، وخلفه ابنه (الحكم الثاني) (٣٥٠-٣٦٦هـ) الذي عاش أكثر ما عاش على مجد أبيه المؤقت- حتى استطاع مغامر غريب الأطوار، أن يصل إلى الحكم، مستخدما في ذلك كل الوسائل (الميكيافيلية) الحديثة.

أجل: لقد كان المنصور بن أبي عامر سياسيًّا وداهية من طراز نادر.. وقد نجح في أن يجعل دولة بني أمية في الأندلس مجرد ظل باهت.. ولم تقم لها بعد ذلك قائمة!!

فأين هو مجد عبد الرحمن الناصر.. في داخل الأندلس أو خارجها؟ وعلى خطا (الناصر) سار المغامر (المنصور العامري) فغزا النصارى سبعًا وخمسين غزوة لم يهزم في واحدة منها قط، حتى سمي (الجلاب) لكثرة ما جلب لشعبه من الغنائم والسبايا..

ومع ذلك كله.. فإن هذه الغزوات لم ترجع على الإسلام-كدعوة- بشيء.. فلم

يزد الأمر عن سبع سنوات – فقط- بعد وفاة المنصور العامري حتى سقطت الأندلس في حضيض مروع من الفتن، انتهى بسقوط الدولة الأموية، وبداية سقوط راية الإسلام في الأندلس كلها.

فما قيمة هذه المعارك الظافرة التي بلغت سبعًا وخمسين غزوة إذن؟

– لقد كانت معارك (سياسة ودولة)، لا معارك عقيدة ودعوة!!

– لقد كانت معارك وراءها (قواد عظماء) وليس وراءها شعوب عظيمة.. فلما انتهى القواد العظماء انتهى مجدهم معهم!!

لقد كانوا عظماء حقًّا.. لكنهم احتكروا العظمة، وكانت طبيعتهم الطاغية حائلا دون أن تنبت حولهم زهور عظيمة.

على أنهم وقد احتكروا العظمة وأهملوا تربية شعوبهم على العقيدة والدعوة- قد استثمروا مجدهم في مظاهر زائفة، ظنوها طريقهم إلى الخلود..

فعبد الرحمن الناصر.. بنى مدينة الزهراء، وأنهك في بنائها جيشًا من العمال، واستنفد في بنائها ثلث إيراد الدولة لمدة سبع عشرة سنة، بل إن بناءها قد استمر بعد ذلك في عهد ابنه الحكم مدة طويلة!!

وأما (المنصور العامري) فقد بنى مدينة الزاهرة، لكي تنافس مدينة الزهراء!! إنه منهج الفراعنة القديم.. المنهج القائم على بناء الآثار، على حساب بناء الإنسان.. إنه عكس لترتيب المعادلة الحضارية، فالإنسان، هو المبدع الأول للحضارة.. وفكر الإنسان وعقيدته قادران على إنجاز التطور الحقيقي.. أما هذه الماديات الاستهلاكية، فهي وسيلة تدمير للإنسان، إذا أصبحت هي الغاية في حد ذاتها.. وهي – من زاوية أخرى- وسيلة إذلاله، ووسيلة استنزافه.. واسترخائه!!

إنها (عبودية) تتناقض مع عقيدة (التوحيد).. عقيدة (لا إله إلا الله).

* * *

ومن المؤسف أن قرننا المنصرم لم يقدم لنا إلا بعض المحاولات التي سعت إلى صياغة (فقه العقيدة).. صياغة علمية عصرية، هي تعبير عن جهود فردية مخلصة، لا عن عمل جماعي ينضج بروح العصر الموسوعية..

وما يقال في العقيدة يقال- كذلك- في فكرنا التشريعي والفقهي، ويقال كذلك في تاريخنا الذي يحتاج إلى إعادة كتابة، كما يحتاج إلى نظرية إسلامية لتفسيره، وتفسير وقائع التاريخ البشري العام..

إن (فن الصياغة) العامة يجب أن يتبوأ مركزًا أساسيًا في المرحلة المقبلة التي سيواجهها العقل المسلم، كما أن هذا العقل يجب أن يؤمن إيمانًا كبيرًا- بجدوى تقديم الأطر العامة والنظريات المتكاملة والمناهج الشاملة!!

يتحدث الأستاذ محمد المبارك في مجلة المسلم المعاصر عن النظام الإسلامي العقائدي الذي يجب أن يطرحه (العقل الإسلامي الحديث)...فيتساءل:

كيف نواجه نحن المسلمين النظم العقائدية الوافدة المتداعية إلى غزونا، بنظام عقائدي إسلامي؟

كيف نصوغ مبادئ الإسلام الأساسية بحيث تنظم جماعة المسلمين وتكون منهم أمة، وتقيم منهم على أساس هذا النظام دولة، لتجتمع لهم عقيدة وأمة ودولة على نسق واحد، ينتظم عقدها نظام واحد؟

على أن تكون هذه الصياغة مناسبة لأساليب التفكير المعاصرة، وتتمتع بقدرة على الحوار والمواجهة للنظم الأخرى، وعلى مخاطبة الناس جميعا في عصرنا هذا، والانفتاح على الإنسانية بأفقها الواسع!!

ولكي نبلغ هذه الغاية لابد من العودة إلى الوراء لرسم الخط البياني الذي أوصلنا إلى موقفنا الحالي..

لقد مر الإسلام منذ بدايته وقبل مرحلة الغزو الأخيرة بمرحلتين:

أولاهما: مرحلة الازدهار والقوة؛ التي استمرت أربعة قرون، ثم بقيت بحكم الاستمرار، وبقوة الإشعاع فاعلة عدة قرون أخرى.

وثانيتهما: مرحلة الضعف والجمود التي بدأت بالقرن العاشر الهجري، وهي مرحلة تتسم بالركود العلمي وغلبة النقل والتقليد، وفقدان الإبداع، ووقوف العلوم الرياضية والطبيعية، وركود الحركة الاقتصادية، والاهتمام بالجزئيات تفكيرًا وعملا، بدلا من الاهتمام بأهداف الإسلام ومقاصده وكلياته..

وكل ذلك وقع -كما يقول الأستاذ المبارك- بسبب ما طرأ من تغيير على المفاهيم الأساسية الإسلامية، وانحراف عن الاتجاه الإسلامي الأصيل، وتغيير في سلم الأولويات كما رتبها الإسلام في كتابه وسنته، بحيث أصبح الاهتمام الكبير بالأمور الثانوية، والإغفال الشديد للأمور التي اعتبرها الإسلام في الدرجة الأولى من الأهمية!!

يضاف إلى هذا ما أدخل في المحيط الإسلامي من أفكار خارجية أقحمت على الإسلام مباشرة أو بطريق التأويل، وما ابتدع في مجال العقيدة والعبادات، مما أخل بعقيدة التوحيد التي هي محور الإسلام وجوهره وسبب قوته[1].

والطريق -بعد ذلك- إلى إقامة بناء عقدي فكري متكامل، نستطيع على أساسه تصحيح ما حدث في العصور السابقة من انحراف وتشويه وتبديل، ونستطيع -أيضًا- دحض التيارات الفكرية الوافدة- يقتضي منا أن نصوغ ما يتضمنه القرآن من حقائق عن الوجود، يعرضها علينا ويدعونا إلى الإيمان بها صياغة جامعة شاملة.. على أساس:

- معرفة الله من خلال الكون.

- معرفة الله من خلال الإنسان وتركيبه وعقله.

- معرفة الله من خلال حركة التاريخ البشري.

وأخيرًا.. معنى عبودية الله وحده، ورفض عبادة ما سواه من أصنام وأوثان ونظم

---

(١) محمد كاظم حبيب، العدد الرابع عشر من مجلة البلاغ، مقال: أقيموا دولة الإسلام في بيوتكم.

وأوطان وأفكار وشعارات فارغة المحتوى كالشعب والدولة.. فضلا عن تقديس بعضهم للعقل والتقدم والحتمية.. وما إليها من مقولات رائجة في سوق الشعارات!!

* * *

أزمة العقل المسلم

- أجل أين علم المسلم وعقله في عالم مقاتل بالعلم والعقل؟

- إن (رماح) عصرنا أصبحت صواريخ تحمل رءوسًا نووية.

- وإن (خيول) عصرنا أصبحت طائرات تسبق الصوت، وتحمل الواحدة منها ثمانية عشر رأسًا نوويًا تكفي لتدمير دولة يزيد عددها عن مليون من البشر!!

- وإن (فارس) عصرنا الذي يستحق في الغنيمة ضعف أخيه الماشي على قدميه.. هذا الفارس المغوار هو من يستطيع تطوير أي سلاح ذري أو نووي أو تقديم نظرية اقتصادية متكاملة تقوم على ركائز عقيدته وقيمه وتقلب موازين العالم المادي.. عالم البنوك الربوية والبورصات!!

- أين علم المسلم وعقله، وهو الإنسان الوحيد في الأرض الذي تلقى وحيًا من السماء يأمره في أول كلمة يلقيها على مسامعه: (اقرأ)

عجبًا كأنه يفتح بهذه الكلمة عصر العلم والعقل..

وكأنه- وهو يدق باب القرن الأول الهجري- يدق أيضًا- بوابة القرن الخامس عشر للهجرة.. ولازال المسلمون يحتاجون إلى (اقرأ) نفسها.. إلى الإيقاع نفسه الذي خلفته أصداؤها في الجيل الأول في الشعور وفي اللاشعور.. فقد استدارت جاهليتهم كهيئتها الأولى وارتدوا على أدبارهم تخلفًا وأميّة كيوم هبط جبريل بأول (توجيهات) الإسلام الكبرى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ٥﴾ [العلق].

إنها (توجيهات) لا تقف عند علم معين، ولا تربط العلم ببيئة معينة، ولا زمان معين.. بل شرطها الوحيد.. أن تكون (باسم الله)!!

ومع ذلك شاء المسلمون في مراحل تخلفهم أن يقسموا (العلم) قسمين: علم دين وعلم دنيا.. وجعلوا ثواب (العلم الأول) أكثر من ثواب (العلم الثاني).. وكأن علوم الدنيا من طب وفلك وفيزياء ونبات ليست علومًا دالة على إبداع الخالق في الآفاق وفي الأنفس.. ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فُصِّلَت:٥٣]!! وبالتالي فهي -كما تدل الآية- علوم دين!! وأما ما أسموه (بعلوم الدين) فهي علوم إن لم تؤثر في الدنيا، فإنها تفقد دورها.. إن (الدنيا) هي بعض وظيفتها وجزء أساسي في مجال عملها وهي قنطرتها إلى الآخرة.

فمن أين للمسلم هذا التقسيم؟

وهل يمكن أن تصنع هذه النظرة القاصرة حضارة تليق بدين لا فصل فيه بين الدين والدنيا والعقيدة والعبادة؟!

وهل يمكن أن تكون (جدليات) علم الكلام العقيمة، وتكلفات الفرق المختلفة، من أشاعرة إلى معتزلة إلى مرجئة إلى خوارج -أفضل- للمسلم في دنياه وأخراه- من النظر الثاقب الفاحص الرشيد في عالمي النفس والكون؟!!

وهل يمكن أن يكون ذلك (الفقه الافتراضي) الذي يخترع أقضية ويمرن عقله على الفتوى فيها.. أكثرها مستحيل عقلا.. هل يمكن أن يكون ذلك (الفقه التقديري) -كما أسموه- أفضل من دراسة المجتمع واستخلاص قوانين الاجتماع على أسس علمية ورياضية، وبالتالي البحث الدائم لأمراض المسلمين الاجتماعية والاقتصادية عن حلول حقيقية نابعة من أصول دينهم وقواعده الكلية؟!!

وهذا (النحو التقديري).. (نحو) الحذف والعامل والمستتر وجوبًا وجوازًا، والتنازع والاشتغال.. وغيرها من التقديرات العقلية الضائعة... هذا النحو الذي

(عقد) لغتنا العربية الجميلة، وجعلها من (اللغات الصعبة) حتى على أبنائها، وجعل أحدهم وهو الفراء يموت وفي نفسه شيء من (حتى)!!

هل يصلح هذا (النحو) أداة مناسبة في عصر يبلغ فيه (الصراع اللغوي) أشده، وتعمد فيه كل دولة إلى نشر لغتها بأحدث الطرق الممكنة وأبسطها؟

وبسبب من هذا (النحو التقديري) ضاع ألق تفسير القرآن وشرح الحديث، على يد كثير من المفسرين والمحدثين الذين انشغلوا بالأداة أكثر من انشغالهم بالمضمون، والذين قتلهم (الجزيء اللغوي) فلم يصلوا إلى حقيقة (البناء) الكلي للإسلام.

* * *

وإذا ذهبنا نستعرض جميع حضارات الأرض.. الفرعونية.. الإغريقية.. الرومانية.. الإسلامية.. الأوروبية.. بل إذا استعرضنا الحضارات المندثرة التي حصرها (أرنولد توينبي) في إحدى وعشرين حضارة.. فإننا سنجد أن (العقل) أو (العلم والدين) هما القاسم المشترك بين كل هذه الحضارات!!

وبمقدار ما يكون استعمال العقل غالبا والشغف بالعلم وتيسير ظروفه متحققا.. بمقدار ما ترتفع الحضارة على غيرها من الحضارات!

وهذا (العلم) ذاته، يحتاج إلى (علم) يحميه، فلا علاج للعلم الجزئي المنحرف، إلا بعلم كلي صحيح. كما أنه لا علاج للعقيدة المنحرفة إلا بعقيدة صحيحة.. فعندما انحرف (علم الفراعنة) وتحول إلى عبادة للطاغوت، وإلى سحر يخدع العقل- جاء العلم الصحيح يلقف ما صنعوا، وعندما انحرف الأثينيون في عهد السوفسطائيين.. (أثينا بركليز وأرسطو) جاء المنطق يضع للعقل القواعد التي يتحرك فوق قضبانها، و(الترمومتر) الذي يميز به الفكر الصحيح من السقيم!! ولما بدأ (العقل المسلم) يدخل مرحلة الترف الفكري منذ عهد المأمون، وأخذ بقيادة المعتزلة يلعب بالجزئيات، ويعمد إلى تفريغ الكلمة من جانبها الفاعل الحركي إلى مجرد كلام يغلب فيه الخصم.. ظهر أبو محمد علي بن حزم (ت ٤٥٦هـ) يكتب (الفصل في الملل والأهواء والنحل)، وظهر أبو

حامد الغزالي (٥٠٥هـ) يعيد صياغة علوم الدين، فيما عرف باسم (إحياء علوم الدين) ويكتب (فضائح الباطنية)، ثم ظهر أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (٢٧٨هـ) يكتب (الرد على المنطقيين) و(السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية).

وظهرت على امتداد حضارتنا كتابات كثيرة تحمل الطابع التنظيري الشمولي، وتنكر-ضمنا- هذه الجزئية المدمرة.. وكمثال، ظهرت في الفكر الاقتصادي كتابات محمد بن الحسن الشيباني (ت١٨٩هـ) صاحب كتاب (الاكتساب في الرزق المستطاب)، وأبي يوسف صاحب أبي حنيفة (ت١٩٢هـ) مؤلف كتاب (الخراج)، وأبي عبيدة القاسم بن سلام (ت٢٥٤هـ) صاحب الأموال، والمقريزي (ت٨٤٥هـ) صاحب إغاثة الأمة في كشف الغمة..

وفي الفكر الاجتماعي-كمثال- ظهرت مقدمة عبد الرحمن بن خلدون (٨٠٨هـ) فكانت منعطفًا جديدًا كان حريًا أن يحدث ثورة في الفكر التاريخي والاجتماعي لو وجد استجابة ملائمة.. وفي الفكر السياسي ظهرت كتابات الماوردي (٤٥٠هـ) صاحب الأحكام السلطانية، وابن القيم -تلميذ ابن تيمية- صاحب كتاب (الطرق الحكمية في السياسة الشرعية).. والطرطوشي صاحب (سراج الملوك).. وغيرهم.

والفرق بين حضارة وحضارة ليس في أن هذه لديها علم وهذه لا تملك علما، فقد ذكرنا أن العلم قاسم مشترك، وإنما تتفاوت الحضارات في أن هذه ذات علم وصل إلى مرحلة (التركيب) وإلى استخلاص (القوانين العامة) والمبادئ السياسية، والمناهج الموضوعية.. وأن تلك تستنزف علمها في قضايا فرعية وخيالية، أو قضايا من الدرجة العاشرة أو العشرين، بينما تغفل الوقوف عند القضايا ذات الأهمية المصيرية، وإذا وقفت عندها فإنها تقف متحمسة انفعالية، وتتناولها بالطريقة نفسها التي تتناول بها القضايا الفرعية.

ومن هنا يبدو التقارب في منهج التناول الذي خضعت له كل العلوم الإسلامية والعربية.. فمنهج علم الكلام قريب من منهج الفقه، والأخير قريب في منهجه من التفسير، والنحو والصرف والبلاغة.

لكن أين البناء الكلي للعقيدة على أساس من كتاب الله، وأين الإطار الشامل للفقه، بحيث يصبح (فقهنا) نظرية اقتصادية، واجتماعية، تغنينا عن استيراد النظريات الاقتصادية والاجتماعية من شرق أو غرب وتعبر عن هويتنا العقدية، وتقف كتركيب يزاحم، بل ويهزم، ما يعرض الآخرون في سوق النظريات.

إن بناءنا الفكري لنظرية في الاجتماع والاقتصاد، يحمل في أركانه وبين ثناياه خصائص عقيدتنا، وأخلاقيات حضارتنا، هو خير أسلوب في الدعوة إلى الإسلام،.. إذا كنا حقا مسلمين، نسعى لخدمة هذا الدين!

* * *

إن جوليان هكسلي في كتابه (الإنسان في العالم الحديث) يحدثنا عن أبرز الخواص التي امتاز بها الإنسان.. فيرى أنها ثلاث خواص:

١- قدرة الإنسان على التفكير الخاص والعام.

٢- التوحيد النسبي لعملياته العقلية بعكس انقسام العقل والسلوك عند الحيوان.

٣- وجود الوحدات الاجتماعية[1].

والحقيقة أننا- نحن المسلمين- لا نجد جديدا في كلام هكسلي.. لكننا-مع ذلك وللأسف الشديد- نجد أنفسنا في حاجة ماسة إلى تطبيق هذه الخصائص الإنسانية الثلاث على واقعنا.. فقدرتنا على التفكير العام، وقدرتنا العقلية على التوحيد النسبي، واستخلاص القواعد الكلية والرؤية الشاملة، وتخطي الجزئيات.. هذه القدرات تحتاج إلى علاج حاسم.. يأتي عن طريق تكوين (العقل الجماعي) في سائر أمورنا.

إننا لم ندخل عصر المؤسسات بعد!!

أليس من الغريب أن الأمة الإسلامية تفشل في ترجمة -مجرد ترجمة- لدائرة المعارف الإسلامية؟

---

(١) الإنسان في العالم الحديث، ص ٣٢، ترجمة حسن خطاب، طبع القاهرة، بدون تاريخ.

وأليس من المحزن ألا توجد دائرة معارف إسلامية أو عربية أو تركية أو فارسية على غرار الدوائر العلمية التي أنشأها الغرب، وكون من أجلها مراكز أبحاث متخصصة.

وأليس من المحزن أن نتطفل جميعا على كتاب (المعجم لألفاظ الحديث النبوى) الذي صدر بإشراف (أ. ى. ونسنك، و ى. ب منسنج).

وإنك لتستطيع أن تنظر في غلاف أي جزء من أجزاء المعجم المذكور لتعرف الفرق بين (العقل الجماعى) وبين الجهود الفردية المحدودة... إن صفحة الغلاف تقول لك:

إن هذا العمل الذي بين يديك تضافر على إعداده – باستثناء الباحثين المذكورين آنفا-:

١- ى. بردخمان.. الذي تابع النشر بعد (ونستك) و(منسنج).

٢- الاتحاد الأممي للمجامع العلمية.

٣- والمجامع العلمية البريطانية، والدانمركية، والسويدية، والهولندية، واليونسكو، وإلك ف. س، والهيئة الهولندية للبحث العلمي البحت.

إن هذا هو ما نسميه بالعقل الجماعي، أو المؤسسات العلمية المستوحاة من تراثنا- كذلك- وليس لمجرد التقليد، فكلنا يذكر بيت الحكمة وكلنا يذكر المكتبات العامة التي أنشأها (الحكم بن عبد الرحمن الناصر) في الأندلس، وكلنا يذكر المؤسسات التي أنشأها (المأمون العباسي) للترجمة. ونذكر- كذلك – بالفخر- دون أن نحاول المحاكاة- مدرسة الحديث، ومدرسة الرأي... ومدرسة البصرة والكوفة.. والفقه المصري والفقه العراقي، والاتجاه المغربي المالكي... وغيرها من المدارس والتيارات المتعاونة والمتداخلة أحيانا، والتي يخضع كل منها لمنهج ورؤية و(أصول) تميزه!!

بل إن بعض هذه المدارس كان يسير وفق منهج يلتزم به في العقيدة والفقه والنحو... وأسلوب الحياة.

وابن حزم الظاهري من هذه الأدلة القوية الشامخة على هذا الاتجاه المنهجي الواحدي!!

إنه طبق المنهج الظاهري على دراسته للعقائد والفقه والنحو.. بل والعواطف الشخصية!!

ونحن لا نتبنى آراء ابن حزم في كل ما رأى، كما لا نرى أن يكون هناك التزام مذهبي صارم.. فهذا الالتزام المذهبي حائل دون الاجتهاد والعقلانية التي ندعو إليها... وإنما نرى أن يكون هناك منهج علمي واضح، ومدارس للاجتهاد تمثل العقل الجماعي، وترعاها مؤسسات تنشأ باسمها.. ومؤسسات للفقه، وللغة العربية، وللأدب العربي، ولفقه العقيدة، وللعلوم الطبيعية والاجتماعية والتربوية والاقتصادية.. وغيرها.

أما الإصرار على الجزئية في التفكير وفي الاهتمام، والفردية في التطبيق والاجتهاد.. فلن يصلا بنا إلى القدرة على المنافسة الحضارية في عالم القرن الخامس عشر الهجري!!

* * *

وليس يعنينا كثيرا أن تعود هذه المدارس على النحو الذي كانت عليه، فلا شك أن ثمة متغيرات وتحديات جديدة يطرحها العصر الحديث.. لكن الذي يعنينا أن تكون هناك (مؤسسات) فكرية تملك القدرة على البحث في المنهج، وعلى إخضاع الجزئيات لهذا المنهج، ويكون من حقها- أكثر من غيرها- استخلاص الأحكام العامة.. وتطوير مناهج البحث في تخصصها.. وإنجاز المشروعات الكبرى.. إن الموضوع العلمي ليس هو القضية.. بل المنهج العلمي هو العمود الفقري للتطور. وإن العلم لا يرتبط بموضوع معين؛ لأن موضوعات البحث العلمي تتعدد، وكما يذكر الدكتور زكي نجيب محمود في كتابه حول (المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري) فقد يكون موضوع البحث العلمي هو تركيب المادة أو هو التفاعل بين عنصرين أو أكثر من عناصر المادة، أو قد يكون موضوعه هو حركة الأفلاك أو مسار الضوء أو سرعة الصوت أو فاعلية الكهرباء، أو سقوط المطر أو هبوب الريح، أو قد يكون موضوعه أوزان الشعر العربي أو خصائص فن العمارة في عصر من العصور... [١].

---

(١) د/ زكي محمود، المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري، القاهرة، دار الشروق، ص٦٠.

ومن جانبنا نقول: إن موضوعه قد يكون قضايا العصر الفقهية الملحة، أو تطوير تعليم اللغة العربية للأجانب والعرب، أو بناء نظرية اجتماعية إسلامية، أو نظرية تربوية.. أو نفسية، أو اقتصادية إسلامية.. كل ذلك يخضع للمنهج العلمي الجماعي الرصين.. الذي يتميز بوضع الجزئيات في نسيجها المتشابه والمتشاكل.. وفي إخضاعها لقانونها، وفي استنباط القوانين والقواعد منها.. شريطة أن نلتزم الحذر والدقة والاستقصاء في خطوات بحثنا.

إن الدكتور زكي نجيب محمود (وهو كاتب موضوعي غير منحاز لتراثنا) لم يملك نفسه من الإعجاب بالدور المنهجي الممتاز الذي لعبته حركة دراسة اللغة العربية في عصور الازدهار.. إنه يقول: (ولست أنا الكاتب الذي يستطيع أن يحدث القراء بشيء من التفصيل المفيد عن هذه الحركة في دراسة اللغة ونحوها وصرفها، لكنني أترك حقلا عجيبا في دقته العقلية، غزيرًا في خصوبته وثماره، إذا أنا تركت حقل الدراسات اللغوية وما يدور حوله من أبحاث كادت تبلغ مبلغ الدقة الرياضية في دقة التحليل وفي سلامة الاستدلال.

وأول ما نلحظه في هذا الصدد هو الصلة الحميمة الوثيقة بين بحوث الباحثين وبين حياة الناس العملية، حتى في مثل هذا المجال. اللغوي، الذي قد يبدو لِعَين القارئ العربي اليوم وكأنه مبتور الصلة عن تلك الحياة، جريا منه على ما قد ألفه في عصره هذا من بعد الشقة في كثير جدًّا من الحالات بين رجال اللغة من جهة، وضروب النشاط العملي من ناحية أخرى، حتى لقد سار فينا سريان الأمثال أن يكون رجل اللغة العربية ونحوها ومعاجمها ومصادرها وتصاريفها- رجلا غريبا على مسرح الحياة اليومية، لا تسيغ سمعه الآذان، إذا حرص على ضبط اللغة مقروءة أو مكتوبة..لا... لم يكن رجال البحث اللغوي إبان الفترة التي نتحدث عنها مبتوري الصلات عن مجرى الحياة العملية ومشكلاتها، ومن ثم كانت منزلتهم العليا عند الناس!!)[1].

* * *

(١) المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري، ص ٨٤.

إن ما نريد أن نصل إليه وأن يستقر في الأذهان هو ضرورة أن ندخل عصر العلم كما دخله أسلافنا، فإنهم ما دخلوه إلَّا لكي ينجحوا في إبداع حضارة ترتفع إلى مرتبة قيادة عصرهم.. ونجحوا.

ويظن بعض الناس أننا عندما تفوقنا ونشرنا ديننا إنما تفوقنا بدفعة الروح وحدها، متجاهلين دفعة العقل كذلك.

إننا لو نظرنا إلى العواصم الإسلامية.. دمشق.. بغداد القاهرة.. المدينة.. قرطبة.. مكة.. القيروان.. فاس، وقارناها بعواصم أوربا وإفريقيا وآسيا- غير الإسلامية- لعرفنا أننا كنا نحكم العالم.. بالعلم والدين معا.. وكانت لغتنا- كالإنجليزية الآن- هي لغة الحضارة، وهي لغة الثقافة العالمية.. ولا يصلح طبيبًا ولا فلكيًا ولا رياضيًا ولا فيلسوفا.. إلا من يتعلمها.

وحتى- بعد هذه الدفعة الأولى- وعندما التقينا بالصليبيين اللقاء العالمي الذي استمر قرنين.. والذي هزمناهم فيه.. حتى في هذا اللقاء كنا العلماء، وكانوا الجهلاء.. وبهذا – بعد الدين – انتصرنا.. كان صلاح الدين الأيوبي في عقله ورفيع خلقه ودينه أفضل من ملوك أوربا.. وكان طبيب صلاح الدين أعلم- بخمسة قرون على الأقل- من طبيب ريتشارد قلب الأسد، وكان (سكرتير) صلاح الدين.. العالم الكبير (القاضي الفاضل) أعلم من أي مساعد أو كاتب- إذا كان هناك كاتب- لدى ملوك أوربا النصرانية- وخيول صلاح الدين كانت أسرع وأقوى من خيول النصارى البطيئة!!

في كل حروبنا.. نجد لمسة العلم – بعد دفعة العقيدة وراء انتصارنا – ولم ننتصر أبدا بجهلنا وتخلفنا واستيرادنا.. كلا.. فما تقوم حضارة أبدا ولا تنتشر عقيدة أبدا تحملها عقول محاصرة بالجزئيات، مدمرة بالشكليات، مليئة بالترهات، لا تتفوق على عصرها (في أسلوب التفكير العلمي، ولا في طرق البحث العلمي، ولا في التطبيق العلني للمعارف التي تصل إليها).. وهذه الثلاثة هي الأركان الأساسية التي يقوم عليها العلم، أي علم!!

ونحن نعلم أن هناك بعضًا من المتحمسين يربطون بين (العلم) وبين (أوروبا) ولأنهم يرفضون أوروبا- وهم محقون- فهم يرفضون بالتالي- العلم!! كلا..فإن هذا الخلط واحد من الأخطاء الكبيرة التي سيطرت على عقول المسلمين.. ولنبدأ في تحليل هذه القضية من تراثنا نفسه قبل أن نصل إلى العصر الحديث.

فإن أوروبا- كما هو معروف- قد جلست من أساتذة الحضارة الإسلامية مجلس التلميذ، وتلقت- حتى رهبانها- العلم على يد علماء، بل وفقهاء قرطبة، وأشبيلية، وبجاية، وفاس، والقيروان.. وقد سرقت من مخطوطاتنا ما لا يعلم إلا الله، واحتفلت بعلمائنا أكثر منا، وقررت كتبهم في جامعاتها..

أجل لقد اعتصرت أوروبا كل علمنا، ووضعته على مشرحة البحث والتحليل، لكنها مع ذلك رفضتنا.. إنها ترفض عقيدتنا فحسب، بل إنها رفضت حتى صياغتنا للحياة، بل إنها- لم تكتف بهذا- فعمدت إلى تشويه حقائق الإسلام، وجندت لذلك جيوشا من المبشرين والمستشرقين، حتى تحول دون وصول الإسلام إلى أوروبا..

لقد اتخذت أوروبا ضدنا كل وسائل الوقاية.. ومع ذلك فقد أخذت كل ما في أيدينا تقريبا من علوم ومعارف!!

وبعد ذلك، وبعد انتصارنا عليها في الحروب الصليبية بالعقيدة وبالخيول السريعة، وبالعلم الذكي، وبالقيادة الواحدة الرشيدة، بعد ذلك- وفي غفلة وجهالة منا استمرت عدة قرون- فاجأنا نابليون بونابرت في سنة ١٧٩٨ بالمدفع المحمول على عجلتين.. فانهارت أمامه خيول المماليك الذين- لم يتعلموا علم عصرهم- وأصروا على القتال بخيول سريعة.. في عصر انتهت فيه حروب الخيول..واشتعلت حروب العقول!!

وفي عصرنا الحديث عرفت اليابان هذا السر، ولم تكابر، ولم تذهب لشراء الحضارة أو منتوجاتها، أو للحصول على شهادات أوروبا في العلوم الإنسانية أو في الديانة البوذية أو في اللغة اليابانية.. أو في علوم الاجتماع والاقتصاد والسياسة والآداب والفنون.. كلا فهذه علوم خاصة تتصل بشخصية الأمة، وتعلمها خارج نطاق الأمة نفسها عبث وتبعية فكرية.. وانتحار!!

وإنما ذهبت اليابان لشيء واحد.. للعلم والتكنولوجيا.. اللذين هما سر تفوق أوروبا، ولا تفوق لها في غيرهما.. بل إنهما ليستران عوراتها الكثيرة..

وبإيجاز.. إن الحضارة الأوروبية الحديثة لها جانبان:

١- جانب شخصيتها والعلوم المتصلة بها.. بدينها المسيحي وبنظمها الليبرالية ولغاتها وعاداتها وتقاليدها وموروثاتها الثقافية والاجتماعية.. وألعابها الرياضية.

٢- جانب عطائها العلمي (أسلوبا، وطرائق، وتطبيقا) وهذا جانب إنساني وعلمي عام، وكما أن استيراد الجانب الأول (الجانب الشخصي) تدمير للأمة، كذلك فإن إغفال الجانب الثاني العلمي البحت تدمير للأمة بالمستوى نفسه!! ونحن- للأسف الشديد- قد ذهبنا إلى أوروبا نأخذ الأول.. وكرد فعل، رفض بعضنا الثاني.. وكلا الأمرين خطأ، والمعادلة الصحيحة أن نتجه لأخذ كل علوم أوربا التقنية ولست أعني بالأخذ استيراد منتوجاتها فهذا غاية الدمار، وإنما أعني معاناتها وفهمها وتطويرها وتصنيفها، تماما كما فعلت اليابان!!

ومن أغرب الغرائب في مواجهتنا للحضارة الأوربية بعد ظهور مدافع نابليون المحمولة على عجلتين وسريعة الحركة التي فاجأ بها خيول المماليك على مصر سنة ١٧٩٨- أننا ذهبنا بقيادة رفاعة الطهطاوي، ومرورا بطه حسين، وسلامة موسى، وكمال أتاتورك، ولطفي السيد، وأمثالهم.. ذهبنا نعب من العلوم الشخصية للغرب، ونترجم الإلياذة والأوديسة وندعو إلى اللاتينية.. بل واليونانية والرومانية.. وإلى لبس (القبعة).. ونتمنى لو تعلمنا مصارعة الثيران إضافة إلى كرة القدم..

بينما لم يبذل أي جهد محترم في معرفة (العلوم البحتة) وممارستها وإدخالها إلى حياتنا.. وكان هذا الاتجاه الخاطئ- وما زال- بتوجيه من الاستعمار نفسه سببا في ضياع قرنين كاملين منذ ضربتنا مدافع نابليون.

بينما نشاهد أمامنا دولا دمرت ثم قامت وتفوقت في أقل من ربع قرن.. لماذا؟

لأنها تعرف الطريق!!

* * *

سيطرت على مسيرة تاريخنا ذي الأربعة عشر قرنا ونَيِّف، ولا سيما في فترات الانحلال، قاعدة غريبة هي أن يوسد الأمر إلى غير أهله!!

وقد زاد الطين بلة في العصر الحديث أن تلقفت الشعوب الجاهلة - ومن بينها الشعوب الإسلامية - فكرة ماسونية كان لها تأثيرها المدمر في حاضر المسلمين.. إنها فكرة المساواة المطلقة بين الناس، تقيهم وفاجرهم، عبقريهم وخاملهم، مهذبهم وسافلهم، وحق الجميع- وهم على ما هم عليه- في أن يصلوا إلى مراكز القيادة الحضارية في كل المجالات.

وبدهي أن الناس- في الإسلام- متساوون في أصل الفطرة، وفي الحقوق الإنسانية العامة، وفي حق الوصول إلى القيادة الحضارية عندما تتوافر شروطها.. ومتساوون أمام شريعة الله.

أما تفلت أمور الأمة بحيث يتأخر علماؤها ومفكروها، ويعتزلون الحياة حرصا على كرامتهم ومكانتهم الضائعة، وفي المقابل يتصدر الجهلة، تحت أية لافتة- فتلك كارثة كبرى توشك أن تصيب حضارتنا بالعقم الشديد.

وفي كثير من أدوار حضارتنا سيطر كثير من الجهلة والمنافقين، وكانوا في كل ما يأتون ممثلين لأنفسهم فقط ولا يمثلون الإسلام ولا سياسته الشرعية ولا قانونه الحربي ولا نظامه المدني، ولا تعاليمه الأخلاقية إلا في النادر.

وكما ذكرنا فقد تقلد هؤلاء الأمور في معظم دورات تاريخنا وإليهم تعزى كل مصائبنا ونكباتنا...

وقد حجبوا بسلطتهم وجهلهم كل الكفايات، ومنعوا كل مستشار أمين من أن يكون له نفوذ، ولم تعش معهم إلا طبقات الوصوليين المنافقين!!

وأصبح الأمر كما قال الرسول ﷺ: «**أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر**».. لأن كلمة الحق عند هؤلاء كانت تساوى حياة قائلها. **وبالتالي**: انكمشت الصفوة وساد

الغوغاء ووضع مصير الأمة في يد اللصوص وأشباه اللصوص.

(وكان من جراء هذا الخلل أن زالت رقابة الدين والأخلاق، واختفت الحسبة، وفقدت حركة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سلطانها، وتنفست الجاهلية ورفعت رأسها، وأخلد الناس إلى الترف والنعيم، وإلى الملاهي والملاعب، وانغمسوا في الملذات والشهوات) [1].

* * *

إن رفض مبدأ (المساواة المطلقة) الذي تتستر وراءه المذاهب الفوضوية وأتباعها من الجهلة والغوغاء.. وفي الجانب الآخر رفض مبدأ تمتع (أقلية مسيطرة) لا تملك القدرة النفسية ولا الخلقية ولا الفكرية على القيادة.. هذان الرفضان ضروريان للقيام بنهضة إسلامية معاصرة.

إن العالم المتحضر يقوده خلاصة صفوته المثقفة، وإن هذه الصفوة لتشكل مؤسسات تستغل كل معطيات العقل الحديث، وتتمتع- كقيادة حضارية- بكل الإمكانات الاجتماعية التي تمكنها من أداء دورها.

وقد فطنت (اليابان) بعد أن دمرت في الحرب العالمية الثانية إلى أهمية هذا الأساس في بناء الأمم، فأعطت للمدرسين مرتبات وكلاء الوزارة وصلاحيات وكلاء النيابة، ووفرت لهم كل إمكانيات البناء، أما طبقة (العلماء) أو (التكنوقراطيين) فهي تتمتع في العالم المتقدم كله بما كانت تتمتع به أي صفوة ممتازة في الحضارات السابقة.

ولذا.. فليس عجبا أن عادت اليابان خلال أقل من ربع قرن لتشارك في قيادة العالم.. بعد أن كانت قد دمرت تدميرا شبه كامل بأسلحة أمريكا الذرية.

إن الطبقات التي تقود الفكر والأخلاق يجب أن (تستشار) على الأقل، بطريقة مدروسة ودائمة وبشكل قانوني- في خطوات الطريق الحضاري للأمة المسلمة.. على أن تكون هذه الطبقات موثوقا بها في انتمائها لعقيدة الأمة وتراثها، وعلى أن تكون من

---

(١) أبو الحسن الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص ١٩١، طبع الاتحاد الإسلامي العالمي.

أهل الكفاية والدين لا من أهل الثقة والدنيا.

وإن أمر الأمة يجب أن يكون شورى بينها، سياسة واجتماعا واقتصادا وفكرا.. ومن باب أولى يجب أن يكون شورى بين أهل الحل والعقد فيها، ويجب أن توضع القواعد والنظم لكي لا يصل إلى الإمارة والحكم والقيادة إلا خيار الأمة وصفوتها، لا أن يترك الأمر فوضى دون ضوابط وقواعد.

ومن خلال الخطين المتكاملين- لا المتوازيين- أي خط القيادة الحضارية المتمثلة في الصفوة المختارة.. وخط الرعية المسئولة أيضا قدر حجمها «**كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته**» من خلال هذين الخطين المتكاملين تتحرك الأمة كلها في سلم الحضارة بانسجام وتآزر.

(ولا ريب أن أعباء ومسئوليات التوجيه والابتكار والنظر إلى المستقبل، والتطلع إلى الأعلى، تلقي بثقلها على كواهل النخبة والصفوة، وبقدر ما يكون شعور الطليعة بضخامة الأعباء مرهقا، وبقدر ما تواجهه النخبة بتصورات سليمة وبعقليات متفتحة، بقدر ما تتمكن هذه النخبة من تجاوز المشكلات الحضارية، ومن دفع الأمة في مجالات الرقي والصعود الحضاري.

وتظل الأمة والجماعة بخير طالما أن هذه الطليعة متفتحة الأفق، مدركة لحركة التطور، عارفة بطبيعة عصرها، وبأساليب الحياة المستجدة، وعندما تبدأ هذه النخبة بالانغلاق على نفسها أو عندما تصاب هذه الفئة أو تفسد، أو يقع الشقاق بين أفرادها، فإنها تكون قد استنفدت أغراضها فتعجز عن القيادة الراشدة) [1].

فالنخبة في ظل القاعدة البشرية التي تتجاوب معها، تستطيع أن تترجم تطلعات الأمة إلى واقع ملموس، كما أن القاعدة الواعية تستطيع أن تحاسب النخبة الراشدة، وتعصمها من أمراض الزعامة وانحرافاتها، وبالتالي تتبادل النخبة والقاعدة التأثير والتأثر...

---

(١) محمد علي، الحضارة الإسلامية بين التحدي والتعطيل، اللقاء الرابع للندوة العالمية بالرياض١٣٩٩هـ.

وتمضي سفينة الأمة متخطية العواصف والتقلبات بفضل تماسكها التام، ووعيها الحضاري الكامل.

والحق أن أمتنا الإسلامية- صفوة وقاعدة، قيادات وشعوبا - في حاجة إلى إعادة احترامها وتقديرها الكامل لأساسين كبيرين:

أولا: الإنسان.

ثانيا: الوقت.

والإنسان في حقيقته كائن متصل اتصالا وثيقا بالحقيقة الزمنية، وهو لا يستطيع أن ينفك عنها.. فضياع الوقت إنما هو بالتالي ضياع للإنسان.. كما أن ضياع الإنسان.. وإهماله يعني- كذلك- الضياع للأساس الثابت في أي عمل حضاري.

وهذان الأساسان ينتظمان في كل عناصر الأمة، ولا غنى عنهما - أي عن احترام الحقيقة الإنسانية، واحترام عنصر الزمان - بحال من الأحوال.

أما الصفوة المختارة، التي تمثل عناصرها القيادة الحضارية للأمة، أو الطليعة المؤمنة الراشدة.. أما هذه النخبة، فلابد من أن يتحقق فيها شرطان أساسيان، لا ينفصل أحدهما عن الآخر..

إن انفصال هذين الشرطين هو أكبر أسباب البلاء التي حاقت بمسيرة الأمة الإسلامية.. وأدت إلى كثير من التقلبات والهزات.

إن هذين الشرطين اللذين يمثل التحامهما وامتزاجهما (معادلة صعبة) هما:

١- القوة.

٢- الأمانة.

وإن القوة وحدها لا تكفي، بل هي سبيل لتدمير القوي لنفسه ولأمته.

وإن الأمانة وحدها لا تكفي، بل هي سبيل استبداد الحجاب والوزراء والمنافقين، وتاريخنا مليء بالشواهد على استبداد الطبقات الأدنى في القيادة حين تلمس (الأمانة والضعف) في الطبقات الأعلى!!

يقول الإمام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية في كتابه العظيم (السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية) محللا هذه المعادلة ومبينا رأيه فيها، بأسلوب رائع.. يقول في الفصل الثالث الذي جاء تحت عنوان (قلة اجتماع الأمانة والقوة في الناس):

(اجتماع القوة والأمانة في الناس قليل، ولهذا كان عمر بن الخطاب ﷺ يقول: اللهم أشكو إليك جلد الفاجر وعجز الثقة، فالواجب في كل ولاية الأصلح بحسبها. فإذا تعين رجلان أحدهما أعظم أمانة والآخر أعظم قوة، قدم أنفعهما لتلك الولاية، وأقلهما ضررا فيها، فيقدم في إمارة الحروب الرجل القوي الشجاع، وإن كان فيه فجور، على الرجل الضعيف العاجز، وإن كان أمينا (!!)، كما سئل الإمام أحمد عن الرجلين يكونان أميرين في الغزو، وأحدهما قوي فاجر والآخر صالح ضعيف، مع أيهما يُغْزَى؟ فقال: أما الفاجر القوي، فقوته للمسلمين، وفجوره على نفسه، وأما الصالح الضعيف، فصلاحه لنفسه، وضعفه على المسلمين، فيغزى مع القوى الفاجر، وقد قال النبي ﷺ: «إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر» وروي: «بأقوام لا خلاق لهم» فإذا لم يكن فاجرا، كان أولى بإمارة الحرب ممن هو أصلح منه في الدين إذا لم يسد مسده.

ولهذا كان النبى ﷺ يستعمل خالد بن الوليد على الحرب منذ أسلم وقال: «إن خالدا سيف سله الله على المشركين» مع أنه أحيانا كان قد يعمل ما ينكره النبي ﷺ، حتى إنه- مرة- رفع يديه إلى السماء وقال: «اللهم إني أبرأ إليك مما فعل خالد» لما أرسله إلى جذيمة فقتلهم، وأخذ أموالهم بنوع شبهة، ولم يكن يجوز ذلك، وأنكره عليه بعض من معه من الصحابة، حتى وداهم النبي ﷺ وضمن أموالهم؛ ومع هذا فما زال يقدمه في باب الحرب؛ لأنه كان أصلح من غيره، وفعل ما فعل بنوع تأويل.

وكان أبو ذر ﷺ أصلح منه في الأمانة والصدق ومع هذا قال النبي ﷺ: «يا أبا ذر إني أراك ضعيفا، وإني أحب لك ما أحب لنفسي: لا تأمرن على اثنين، ولا تولين مال يتيم» رواه مسلم... ينهى أبا ذر عن الإمارة والولاية؛ لأنه رآه ضعيفا. مع أنه قد روي: « ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبي ذر».

وأمَّر النبي ﷺ مرة عمرو بن العاص في غزوة (ذات السلاسل) استعطافا لأقاربه

الذين بعثه إليهم، على من هم أفضل منه. وأمَّر أسامة بن زيد لأجل ثأر أبيه. ولذلك كان يستعمل الرجل لمصلحة، مع أنه قد يكون مع الأمير من هو أفضل منه، في العلم والإيمان!!)[1].

* * *

إن هذا النص حريٌّ أن يكتب بأظهر مداد، وحريٌّ أن يوضع في برامجنا لإعداد القادة المفكرين أو العسكريين أو الوزراء السياسين أو الإداريين!!

ولو أن رجلا غير ابن تيمية قال هذا الكلام لما قبله كثيرون. أما وصاحبه ابن تيمية، الرجل الذي أثبت لنفسه مكانة رفيعة في تراثنا وحضارتنا- فإن أحدا من الناس لا يستطيع أن يطعن فيه!!

إن فقيهنا المجدد... صاحب أكبر موسوعة للفتاوى في تاريخنا- فيما نعلم- يفتي المسلمين- في صدق الرائد الذي لا يكذب أهله- بأن التقوى لا تكفي.. وليست هي المؤهل الوحيد للقيادة، ولصناعة الحضارة، ولتسيير مصالح العباد، وتحقيق النفع لهم.. بل إنه ليفتيهم اعتمادا على سلوك النبي محمد إمام حضارة المسلمين عليه الصلاة والسلام- بأن التقوى ما لم تصحبها قوة فإن ضررها قد يكون أكثر من نفعها بالنسبة للأمة.

ومن منا يرتاب في تقوى أبي ذر؟.. ذلك العلم الفذ الذي يموت وحده ويبعث وحده!!

لكن هذه التقوى قد تكون غير مصحوبة بقلب قوي، وعقل عملي، ورؤية شاملة متجددة للوقائع المتطورة، وبالتالي قد تكون آثارها محصورة في إطار صاحبها، ولا تستطيع أن تمنح دفعة التغيير المناسبة.

بل إن الإمام ابن تيمية يرى أن (مصلحة الأمة) هي المقياس، فقد يقدم الفاجر إذا كان في تقديمه المصلحة.. والرجل يقول بصراحة يعجز عنها كثيرون: (والواجب في

---

(١) تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، السياسة الشرعية، طبع وزارة الشئون الإسلامية بالمملكة العربية السعودية، ١٤١٩هـ، ص ١٥، ١٦.

كل ولاية الأصلح بحسبها) [1]... ويؤيد كلامه بقول إمام أهل السنة أحمد بن حنبل: (أما الفاجر القوي فقوته للمسلمين، وفجوره على نفسه، وأما الصالح الضعيف، فصلاحه لنفسه وضعفه على المسلمين)!!

أجل إن القوة هي الشطر المكمل للأمانة، والذي لا تتقدم الحياة إلا به في عصر يركل الضعفاء، ويبحث عن الأقوياء ويسميهم الخبراء.

ويؤيد الرأي الذي ذهب إليه الإمام ابن تيمية ما ورد في القرآن الكريم في معرض الحديث عن قصة موسى عليه السلام مع شعيب... فقد كانت (قوة موسى) هي المؤهل الأول الذي رشحه للعمل عند شعيب... وقد جاءت بعدها الأمانة: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص:٢٦].. وهذا حق... فكيف تنجح القيادة الحضارية في أي مجال إذا لم يكن لديها قوة؟!!

وكيف تفيد الأمة وتحرس قضاياها إذا لم يكن لديها أمانة؟!!

أجل: إنها (معادلة صعبة).. لكنها – مع ذلك – الحل الحضاري الوحيد لمشكلة (القيادة) في تاريخنا..!!

* * *

الضمير الإسلامي.. وحقوق الإنسان المسلم

يعطينا القرن الرابع عشر المنصرم والعقود الأولى من القرن الخامس عشر عدة دلالات يجب أن تستقر في ضمير المسلم.

– ومن أبرز هذه الدلالات أنه لا أحد في العالم يشفق عليه أو يأبه به أو يحترم إنسانيته، على الرغم من لافتات حقوق الإنسان وهيئاتها المختلفة!!

– والضمير العالمي.. ضمير النصارى واليهود والشيوعيين ضمير ميت إزاء الإنسان المسلم.

(١) السياسة الشرعية، ص ١٥.

فقد يقتل أو يؤسر عشرون جاسوسا أمريكيًا أو بريطانيًا أو فرنسيًا.. فتقوم الدنيا ولا تقعد.. ويتجمع العالم كله من أجل حقوق الإنسان وهيبة المدنية والأعراف الدولية والدساتير والقوانين المتحضرة.. وهلم جرا.

لكن – على النقيض من ذلك – قد يباد شعب مسلم بأكمله.. يبيده الروس، أو يبيده حاكم مأجور، أو تبيده اليهودية، أو النصرانية.. فهنا... ينام الضمير الأوروبي نوما عميقا، بل قد يدافع عن هذه التصفية الجسدية العامة ويلتمس لها المبررات والأسباب!!

وقد ثبت أن أوروبا وأمريكا وروسيا على استعداد لتصدير كل شيء إلينا.. من طائرات وملابس وتيارات فكرية مدمرة وحبوب منع النسل المسلم.. أجل كل شيء إلا الأشياء النافعة نفعا حضاريًا مستمرًا...

– فهي ليست على استعداد لأن تصدر مبادئ الحرية التي تتشدق بها.. بل بدلا منها تقوم بتصدير الانقلابات العسكرية الدكتاتورية فقط!!

– وليست على استعداد لأن تصدر التكنولوجيا المتطورة.. بل يكفي أن تعطينا منتوجات التكنولوجيا.. وحسبنا أن نكون مستهلكين!!

– وليست على استعداد لأن تعطينا القنبلة الذرية... في مواجهة إسرائيل والهند.

وإزاء هذا الضعف المعنوي والمادي الذي تريد فرضه علينا القوى المعادية لكي نموت مخذولين أو نعيش مقهورين... فإنه من المحتم علينا أن نبحث نحن عن حقوق أنفسنا المادية والمعنوية... ولأنه في عالم القرن العشرين ثم القرن الحادي والعشرين لا حقوق للضعفاء فقد سمحت لنفسي أن أمزج بين أهمية حصولنا على (حقوق الإنسان والتكنولوجيا والذرة).. وكل ذلك بالطبع في إطار أصالتنا الإسلامية!!

والحقوق لا تمنح... وإنما تفرض!!

والطريق إلى فرض الحق.. هو أداء الواجب.. وأداء الواجب يستلزم القوة.. ويؤدي إليها..

وإن ملفات الأمم المتحدة وقراراتها تثبت أن هذا العالم الذي تُسَيِّره أمريكا وتعبث بمصيره الصهيونية العالمية لم يعط أي ضعيف حقه.. كما أن هذه المنظمة أعجز من أن تفعل أي شيء لمن لا يفعل لنفسه ويسعى إلى مصلحتها!!

والخريطة الإسلامية مثخنة بالجراح.. إنها كمأدبة الأيتام يقتسمها اللئام..!!

ولا أمل في استعادة هذه الخريطة لهيبتها وحقوقها إلا بيقظة الضمير الإسلامي والعقل الإسلامي والروح الإسلامية..

وفي الداخل.. داخل المجتمعات الإسلامية.. قبل خارجها يجب أن تستقر قواعد حقوق الإنسان المسلم بضميره اليقظ، وعقله الواعي البصير، وإرادته الإيجابية، وواجباته المؤداة، وروحه المؤمنة – حقوقه على جميع من يوجهون دفة الأمور في داخل المجتمعات الإسلامية وخارجها.

وفي تصورنا أن الطريق الوحيد لتحقيق حرياتنا ضد القوى الخارجية هو أن تتحقق حرياتنا وإنسانيتنا في داخل المجتمعات الإسلامية.. وذلك بأن تعود المجتمعات الإسلامية إلى داخل قضبان الحضارة.. فتحكم الرعية والرعاة بشريعة واحدة ثابتة لا بقوانين استثنائية ولا بأحكام عرفية ولا بدكتاتوريات تستمر أحقابا وأجيالا...

وبعيدا عن الاستطرادات التفصيلية نرى أن (**حقوق الإنسان المسلم**) تتلخص في الأساسيات الآتية:

١- الحق في حماية الحياة وتوفير الطعام والملبس والمسكن والدواء والتعليم والأمن للإنسان المسلم.

٢- العدل.. فلا يقتل الإنسان بالظنة، ولا يؤخذ البريء بذنب الجاني، وحق أي إنسان في مقاضاة أي إنسان أمام قضاء محايد.

٣- المساواة في الحقوق والواجبات بين أفراد المجتمع.

٤- حق المشاركة في أمور بلده وأمته سياسيًا واجتماعيًا واقتصاديًا وثقافيًا.

٥- الحرية في الاعتقاد والتفكير والتعبير في إطار الشريعة الإسلامية.

٦- حقه في عصيان ما يخالف دينه.. لأن دينه يأمره بهذا ويقول له: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ [المائدة:٢]، ويقول له: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق».

٧- الحق في حماية السمعة والعرض والحياة الخاصة التي تخلو من عنصر المجاهرة وتحدي المجتمع.

٨- حماية الملكية الخاصة المكتسبة بالطرق المشروعة.

٩- الحق في أخذ الأجر الملائم دون إراقة ماء الوجه.

* * *

وعلى المستوى الخارجي.. فإن الضمير الإسلامي يجب أن يستيقظ، ويتحدى التآمر العالمي ضده.. ففي قارة آسيا- ونترك الآن الكتلة الشيوعية – أقليات إسلامية محرومة من حقوقها الإنسانية، في تايلاند، وبورما، والفلبين، وتايوان وسيلان، ونيبال، وهونج كونج، ولاوس، وكمبوديا، وفيتنام.

ومذابح المسلمين في الفلبين، ومساعدة أوربا وأمريكا لسفاحها (ماركوس) أمر معروف، وفي إفريقيا أقليات أخرى محرومة من حقوق المساواة والتعليم الإسلامي والحياة الآمنة واقتناء الكتب الإسلامية أو تكوين إطارات تدافع عن حقوقها الإنسانية المهضومة.. وكل ذلك تحرسه أوروبا وأمريكا..

ومن هذه الأقليات مسلمو غانا، وأوغندة بعد عيدي أمين، وأنجولا، وكينيا، وليبريا، وموزمبيق، وروديسيا الشمالية (زامبيا)، وروديسيا، ومدغشقر. ولا نظن أن الأكثريات الإسلامية في آسيا وإفريقيا تتمتع بحقوق الإنسان،.. كلا.. وألف كلا.. فإن الأجهزة العالمية المتآمرة تأبى أن تترك هذا العالم الإسلامي ينطلق من عقاله.. لكي يعمل ويتقدم ويبدع، وهي ترصد كل هاجسة تقدم حقيقي، وتقاومها بأعنف الوسائل وأكثرها وحشية وهمجية.

وأمامك أربع دول إسلامية كبرى ثنتان في آسيا وثنتان في إفريقيا.. باكستان وأندونيسيا في آسيا، ونيجيريا ومصر في إفريقيا.. انظر ماذا آل إليه أمرها!!

فأما الأولى فقد أساء إليها حكامها بعد الانفصال عن الهند حين ربطوها بالغرب وبمعاهدة مع أمريكا، وكان جزاؤها أن يحكمها عدد من العسكريين الدكتاتوريين انتهوا بها إلى أن تشطر شطرين، وأن يحرم عليها أن تمشي في طريق التصنيع، وأن تهدد تهديدا صريحا حين يذاع أنها بصدد الدخول إلى الحقل الذري، بينما عدوتها الهند تخطت هذه المرحلة ولم تلق أية مقاومة، وبينما تتمتع إسرائيل- فضلا عن الدول الأوربية- بهذه الطاقة!!

وأما الثانية فقد سلط عليها الشيوعيون بقيادة سوكارنو، وعندما استبد الشيوعيون أسقطوا وحل محلهم التبشير النصراني المدعم من أمريكا وأوربا والفاتيكان، ووضع برنامج لتنصيرها- وهي أكبر دولة إسلامية- في خمسين سنة.

وقد ورد في أحد التقارير أن النصارى يزمعون الانتهاء من تنصير جزيرة جاوة التي يقطنها نحو ستين مليون مسلم خلال عشرين سنة.

وحتى الآن فإن التخطيطات ناجحة كل النجاح، وقد تم تنصير عشرة ملايين مسلم من فقراء أندونيسيا ومرضاها وجهلائها... تنصروا بسد عوزهم وعلاج أمراضهم وتعليم أبنائهم في مدارس التبشير، بينما أموال المسلمين تتخم بها بنوك أمريكا وأوروبا واليهود!!

* * *

وفي إفريقيا حاول النصارى مع أكبر دولة إفريقية إسلامية أسلوب التمزيق وفصل بعض أقاليمها عنها.. فلما فشلت التجربة سلطوا عليها جيوشًا من النصارى وقطعوا وشائجها بالعالم الإسلامي.. حتى تؤكل منفردة..

وفي بعض البلاد الإسلامية سلطوا الشيوعية الدكتاتورية لتقوم بإهدار كرامة الإنسان المسلم، وفتحوا لكل حر كريم، ولكل مفكر مستقل، ولكل مؤمن بالإسلام عقيدة وشريعة.. فتحوا لكل هؤلاء أبشع معتقلات عرفها البشر!!

فلما سقطت الشيوعية في بعض البلدان كان البديل إحلال أمريكا والصهيونية العالمية، بكل ما عرف عن الصهيونية من وسائل استنزاف الشعوب وتدميرها عقائديًّا وأخلاقيًّا واقتصاديًّا.

وهناك أقليتان إسلاميتان تعتبران من أكبر الأقليات في العالم، وهما الأقليات الإسلامية في الهند، وتبلغ نحو مائة وأربعين مليونا، وتمثل أكثر من ٢٠٪ من مجموع سكان الهند.

والأقلية الإسلامية الواقعة تحت النير الشيوعي سواء في الاتحاد السوفييتي السابق أو الصين.

وتبدأ قصة مسلمي الهند سنة ١٩٤٧م، وذلك بعد استشراء ظاهرة الذبح الجماعي للمسلمين في الهند بمساعدة الإنجليز، وبتواطؤ حزب المؤتمر الذي كان يحكمه جواهر لال نهرو.. ففي هذا العام ١٩٤٧م وافق البرلمان البريطاني على قيام حكومتين في الهند باسم (الهند) و(باكستان)، ولكن أرض الهند لم تقسم بين الهندوس والمسلمين قسمة عادلة، بل سيطر الهندوس يدعمهم الحقد الصليبي البريطاني على كثير من بلاد المسلمين، وكانت حكومة الهند ترسل الجيش ليستولى على المقاطعات المختلف عليها، كما حدث في كشمير التي تبلغ نسبة المسلمين فيها أكثر من ٨٠٪ وكما حدث في حيدر آباد، وكذلك استأثرت بالموانئ الهامة مثل بمباي وكلكتا، وبالمدن الكبيرة كدلهي وبمعظم الثروات الوطنية وأموال الدولة.

ولم يطفئ هذا كله الحقد الوثني، بل قام الهندوس والسيخ بمذابح وحشية بين المسلمين وقتلوا مئات الآلاف في دلهي وامرتسار وغيرهما، وفي عربات القطار المكتظة بالمسلمين المهاجرين من أطراف الهند إلى دار الهجرة (باكستان)، وكان الجيش الهندي هو الذي يشرف على هذه المذابح، وهو الذي يطرد المسلمين الآمنين من بيوتهم في المناطق التي قررت حكومة الهند أن تكون تابعة لها[1].

---

(١) محيي الدين القضماني، حاضر العالم الإسلامي، ص٧٩، مطبوعات الجامعة الإسلامية.

وقد بقي في الهند ـ بعد انفصال باكستان ـ أكبر أقلية في العالم.. وهذه الأقلية الكبيرة لا يمر شهر دون أن تدبر لها المذابح، التي يتعاون فيها رجال الشرطة، مع الجماعات الهندوسية المتطرفة، وينغصون على المسلمين كل مناسباتهم الدينية، ويذبحون منهم بالمئات في كل مرة.. دون أن يوضع حد لهذه المجازر المكرورة والمستمرة، ودون أن يرتفع الضمير الإسلامي إلى مستوى المسئولية!

أما قصة الأقلية الإسلامية الواقعة تحت نير الشيوعية، فتبدأ في الاتحاد السوفييتي من سنة ١٩١٨م (١٣٣٦هـ) حين زحف الجيش الشيوعي بعد نجاح الثورة البلشفية على جمهورية أورال وشمال القوقاز (قفقاسيا) وحكومة خوقند في تركستان. وفي سنة ١٩١٩م (١٣٣٧هـ) استولى على جمهورية آلاش أوردو، وفي سنة ١٩٢٠م (١٣٣٨هـ) احتل القرم وجمهورية أذربيجان وجمهورية خيوة في بلاد التركمان، وفي سنة ١٩٢١م (١٣٣٩هـ) هاجم جمهورية بخارى واستولى عليها بعد قتال مرير.

وفي هذه الفترة كان عدد المسلمين في الاتحاد السوفييتي أكثر من ستين مليون مسلم. وقد حاول الشيوعيون أن يغيروا معالم البلاد الإسلامية فهجروا المسلمين من بلادهم إلى مجاهل سيبريا وأواسط آسيا، وأتوا بآلاف الروس والسلاف فأسكنوهم أذربيجان وتركستان والقرم، وهلك من المسلمين عند مقاومتهم خلق كثير حين رفضوا ترك أرضهم والخضوع لهذا المخطط الرهيب، واستطاع الشيوعيون أخيرا أن يغيروا معالم البلاد الإسلامية ويشردوا أهلها..!!

فقد كان في القرم مثلا خمسة ملايين مسلم سنة ١٣٢٥هـ ـ ١٩١٧م فأصبحوا عام ١٣٥٩هـ ١٩٤٠م أربعمائة ألف، وشبيه بذلك ما حدث لملايين المسلمين في روسيا وغيرها من جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق.

أما الصين الشعبية فلم تكن أقل اعتداء على المسلمين من روسيا حين اغتصبت بلادهم وحاولت إفناءهم، وكان في الصين خمسون مليونا من المسلمين وأكثر من ٤٢ ألف مسجد كما جاء في إحصاء ١٩٣٦م ويسكن هؤلاء المسلمون مقاطعات واسعة

أهمها سينكيانج ومنشوريا وهابي وهانان وسان نو، وغيرها. ولم يكن مصير المسلمين في الصين أفضل من مصير إخوانهم في الاتحاد السوفييتي[١].

وهناك شعوب إسلامية كاملة محرومة من حقوق الإنسان، وتنسحب عليها المؤامرة العالمية ضد الإنسان المسلم. ومن هذه الشعوب شعب (ألبانيا) المسلم الذي وقع فترة طويلة تحت نير الاحتلال الشيوعي، وشعب أفغانستان، الذي حُكم بجيش شيوعي مقيم ثم باحتلال أمريكي غاشم، وشعب أريتريا المسلم الذي يحكمه نصارى أثيوبيا، وشعب أثيوبيا المسلم الذي يزيد المسلمون فيه عن ٦٥٪ وتحكمه أقلية نصرانية رأت أن تتستر في ثوب الشيوعية، وشعب الصومال وعدن المسلمان اللذان يحكمهما حفنة شيوعية، وشعب تنزانيا المسلم (تنجانيقا وزنجبار) الذي كان يحكمه نصراني يتستر في الشيوعية وهو (جوليوس نيريري)!!!

والحق أنه من الصعب استعراض كل أجزاء الخريطة الإسلامية للتعرف على أوضاع مسلميها الممتهنين.. فحتى تلك الشعوب التي يبدو وضعها من الناحية الشكلية القانونية سليما.. فإن إهدار الحقوق فيها بواسطة بعض أبنائها الذين رباهم الاستعمار على عينه، وبغَّض إليهم الإسلام أمر مقرر معروف بحيث إننا لا نكون مبالغين إذا قلنا: إن عالم المسلمين يحتاج إلى (هيئة إسلامية) ترعى حقوقه المهضومة وكرامته المستباحة... هيئة تنبثق من صفوة الأمة ومخلصيها وفقهائها في القانون الدولي العام، والخاص، ويكون عملها أن تدافع عن إنسانية المسلمين الضائعة.. في عالم تحكمه عصابة من الذئاب، تتشدق ليل نهار بالحرية والإخاء والمساواة والحضارة.. وهي من كل هذه المعاني الكريمة براء.

* * *

الدور العالمي:

لن يستطيع المسلمون الخروج من مشكلاتهم الصغيرة والجزئية في أكثر أركان

---

(١) محيي الدين القضماني، حاضر العالم الإسلامي، ص١٦، ١٧، مطبوعات الجامعة الإسلامية.

فكرهم وحياتهم، إلا بالإصرار على رفض التمزق الداخلي والانهيار النفسي الذي تحدثه هذه المشكلات، ولن يتم لهم ذلك إلا بالإحساس بمسئولية كونية وعالمية، ليس تجاه أنفسهم ومجتمعاتهم فحسب، بل تجاه الإنسانية كلها.

وهذا ما تحدده لنا الآية الكريمة: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [البقرة:١٤٣].

وكما يقول المفكر الهندي المسلم (وحيد الدين خان): (فإنه لم يوجد عصر من العصور تفتحت فيه آفاق العمل لرسالة الإسلام العالمية مثل القرن العشرين، بفضل النتائج الدنيوية لثورة الإسلام التوحيدية)...

فهناك كل أنواع التأييد للفكر الإسلامي والتصور الإسلامي للكون والحياة، تقدمها العلوم الإنسانية، التي تندرج تحتها علوم النفس والاجتماع والتاريخ والتشريع، كما أن ما اكتشف من حقائق الكون، قد دحض الأساطير التي قدمتها الأديان الأخرى، كاليهودية، والمسيحية، وأكدت في الوقت نفسه أحقية الدين الوحيد الجدير بهذه التسمية، وهو الإسلام.

ومما قدمه العصر من وسائل الدعوة الإسلامية والحضارة الإسلامية:

١ - فصل السياسة عن الخرافات التي كانت تسمى دينا، بعد أن فقدت الكنيسة قدرتها على الإرهاب والسيطرة والتسلط... بينما الإسلام وحده هو الذي يقدم الدين والدنيا في سياق معقولي واحد.

٢- شيوع حرية الرأي والبحث، وهو أمر خطر على الأديان الأخرى إلا الإسلام.

٣- شيوع تدبر ظواهر الكون وتسخيرها.

٤- شيوع المنهج العلمي والفكر التاريخي، الذي قضى على الأسطورة والفكر الخرافي.

٥- توافر الوسائل الإعلامية كأجهزة الإعلام السمعية والمرئية والمطبعة.

وثمة جانب آخر خطر يساعد على تحول المسلم إلى رسول حضارة إنسانية في هذا العصر بحيث ينظر إليه على أنه المنقذ من خطر الفناء الإنساني الشامل.

وهذا الجانب يتمثل في الأوضاع التي انتهت إليها الحضارة الأوربية التي توشك أن تقضي على إنسانية الإنسان ومستقبله.

وفي ظل هذه الحضارة: (لا ندري إلى أين نحن سائرون... ولكننا نسير) كما عبر الشاعر الأمريكي (بينيه).

أما (رينيه دوبو) فيعبر عن هذا الانهيار في كتابه إنسانية الإنسان، ويصف الحضارة الأوربية في كلمات قليلة:

(كل حياة شخصية ناجحة، وكل مدينة ناجحة، دعمتها أجهزة منظمة من العلاقات التي تصل الإنسان بالمجتمع وبالطبيعة، وهذه العلاقات الأساسية تضطرب بسرعة وعمق الآن بسبب الحياة العصرية التي نحياها، والخطورة ليست مقصورة فقط على اغتصابنا للطبيعة، بل في تهديدنا لمستقبل البشرية نفسها).

وعن (دوبو) ننقل كلمة رئيس بلدية (كليفند) متهكما: (إذا لم نكن واعين فسيذكرنا التاريخ على أننا الجيل الذي رفع إنسانا إلى القمر، بينما هو غائص إلى ركبتيه في الأوحال والقاذورات).

ولن نستطيع تتبع كل ما قاله المشخصين لحضارة أوربا من أبنائها: وذلك كألكسيس كاريل في كتابه (الإنسان ذلك المجهول)، أو أرنولد توينبي في دراسته للتاريخ، أو إشبنجلر في كتابه عن أفول الغرب، أو روجيه جارودي في كتابه (حوار الحضارات) أو كونستاتنان جيوروجيو في روايته (الساعة الخامسة والعشرون) وهي الساعة التي يرمز بها (جيورجيو) إلى أفول الحضارة الأوربية وانهيارها، واكتساح حضارة جديدة قادمة من الشرق:(حيث يكتسح رجل الشرق المجتمع الآلي، ويستعمل النور الكهربائي لإضاءة الشوارع والبيوت، لكنه لن يبلغ به مرتبة الرقيق، ولن يرفع له معابد وصوامع كما هو الحال في بربرية المجتمع الآلي الغربي... إنه لن يضيء (بنور النيون) خطوط القلب والفكر..إن رجل الشرق سيجعل نفسه سيدا للآلات والمجتمع الآلي).

إن الفكر الإنساني المتحرر، المستوعب لأزمة الحضارة المادية، التي تكاد تخنق إنسانية الإنسان، وتدمر الجنس البشري...

هذا الفكر الإنساني سيجد في الصياغة الإسلامية للحضارة المحضن والملاذ والملجأ.

لكن المهم أن يدرك المسلمون دورهم، ويخططوا له، ويستغلوا الإمكانات المتاحة للدعوة في هذا العصر.. ويتقدموا بقلب واثق مؤمن، وعقل قوي متفتح إلى الساحة التي تناديهم: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الروم].

* * *

وأخيراً..

عالم الإسلام المرتقب:

نقرأ كثيرا أن الإسلام (بناء كامل متوازن) وأنه (نظام شامل للحياة)، و (دين ودولة)...

وهذه الأقوال لشيوعها قد بدأت تفقد معناها الحق، وفعاليتها الواجبة في الفكر الإنساني... وقد أصبحت - في رأي الكثيرين - وكأنها كلمات إنشائية فارغة المحتوى..

ونحب أن نوضح أن هذه المصطلحات التي شاعت في الفكر الإسلامي الحديث تعني - في تصورنا - معنى واحدًا لا يفهمه كثير من الذين يلوكونها..

إن هذا المعنى هو (الحقيقة الإسلامية) التي نتقدم بها إلى إنسانية القرن الخامس عشر..

وهذه الحقيقة الإسلامية ليست هذا الإسلام الموجود في مخيلة كل منا، وليست الإسلام المذهبي الذي يركز فيه على مذهبية سنية أو شيعية أو صوفية.

ليست إسلامًا رجعيًا أو تقدميًا أو ثوريًا...

وليست إسلامًا (يساريًا) أو (أمريكيًا)...

كلا... إنما الحقيقة الإسلامية بناء له طوابقه وله أساسه، ويخضع لنظام دقيق من (النسب) المتوازنة والمنسجمة والمتكاملة.. فللعقيدة دورها الأساسي، وللنظم الاجتماعية والاقتصادية والتربوية والسياسية حجمها ودورها... وللأخلاقيات حجمها ودورها...

وهكذا تتسلسل الحقائق والقيم في الإسلام خاضعة لاعتبارين:

١- مكانة وأولوية لا تتعداها.

٢- حجم لا تتجاوزه.

وهذا البناء الهندسي الدقيق نفهمه من قول الرسول ﷺ: «الإيمان بضع وستون شعبة»... وليس من حق أحد أن يعطي شعبة من هذه الشعب (مكانة) ليست لها، أو (حجمًا) لا تستحقه... كما أنه ليس من حق أحد أن يركز على شعبة من الشعب بحيث تكون ظلالها أكثف من غيرها فتبدو كثير من الشعب المجاورة لها باهتة.. أو عاجزة عن أداء دورها.

إن هذا الإسلام ـ بهذا النظام النسبي ـ هو الإسلام الذي يسقط ـ علميًّا ـ كل التيارات الاجتماعية والاقتصادية والترفيهية الوافدة علينا، والتي تسعى لتغيير صياغة حياتنا... كما أن هذا النظام هو ـ وحده ـ الحقيقة الإسلامية التي نستطيع أن نتقدم بها إلى إنسانية القرن الخامس عشر للهجرة!!

وعندما ننجح في الاحتفاظ للإسلام بنظامه وحقيقته، ونحسن التعبير عن هذه الحقيقة، ونترجمها إلى واقع مُعاش، فإن الناس ـ في كل العالم المتخبط المرتبك ـ سيدخلون في دين الله أفواجًا... لماذا؟

لأنهم سيجدون في الإسلام الإشباع الكامل لكل احتياجاتهم الروحية والعقلية والنفسية والجسدية... وسيجدون العدل الذي يهيمن على كل الجزئيات، ويحفظ لكل منها حجمها ودورها.. وسيجدون أنهم لا يستطيعون أن يلتمسوا في الإسلام شيئًا فلا يجدونه، أو أنهم مضطرون لأخذ بعضه وترك بعضه كما فعلوا مع غيره من الأديان والمذاهب.

كلا...

ففي عقيدة الإسلام ستتحقق الحاكمية لله وحده، وستسود شريعته، وستزول ـ بالتالي ـ سائر الحاكميات البشرية، وينتهي الطغيان من على الأرض...

وسيجد الناس أن هناك ميزانًا ثابتًا عادلا تعرض عليه كل الآراء وكل الأشياء فيثبت منها ما يثبت، وينفى ما ينفى...

وستحل العبادات الإسلامية عندما يطبقها الناس على حقيقتها في إطار من الوعي بدورها والشعور بمكانتها الحقة... ستحل هذه العبادات محل سائر الأحقاد الاجتماعية، وستوجد المساواة والرحمة والصدق مع النفس ومع الآخرين... وستجعل من خشية الله ومراقبته حقيقة واقعة.. وستقوم الأخلاق الإسلامية بعملية الترميم الشامل لكل الفجوات التي ربما تظهر في بعض مراحل التطبيق من جراء سيطرة الطبيعة البشرية الضعيفة...

وكذلك تقوم الأخلاق بعلاج الحالات التي توجب الالتزام بروح الشريعة،... إنها مرحلة (الإحسان) و(الإيثار)...

وفي كل ذلك ـ لو قدمنا الحقيقة الإسلامية ـ كما أرادها الله ـ ستجد الإنسانية حقيقتها الضائعة ومنهجها القويم:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الفتح].

(صدق الله العظيم)

* * *

الإسلام والمسلمون بين تشويه الخاصة وجهل العامة في أوروبا :

إنهم يجهلوننا حقا، فالذين يفهموننا من رجال الاستشراق أو الاستخبارات لا يمثلون إلا نسبة ضئيلة.. والأنكى من ذلك أن هؤلاء - بطبيعة عملهم - لا يقولون الحق عنا، بل يصوروننا في أغلب الأحوال صورة نمطية بعيدة عن الحق والخير، تسمح لهم بتشويهنا وإعلان الحرب علينا إن اقتضت المصلحة ذلك..

وقليل منهم ينفذون ببصائرهم وأبصارهم فيصلون إلى الحقيقة من خلال هذه السحب المتراكمة التي تحول دون ظهور شمس الحقيقة.

إن التاريخ الذي يتم تدريسه للتلاميذ الأوروبيين الصغار - كما تقول الدكتورة فوزية العشماوي[1] - يعلمنا أشياء مختلفة تماما عما يتم تدريسه للتلاميذ العرب المسلمين في مدارس جنوب البحر الأبيض المتوسط.

فنجد أن نبي الإسلام ﷺ يتم تقديمه أحيانا على أنه (رسول) وأحيانا أخرى على أنه (شاعر) ملهم يرى رؤىً خارقة.

أما حقائق الإسلام فتقدم تقديما يتفق مع المفهوم اليهودي المسيحي للإسلام بكل ما فيه من انحرافات وتشويهات تجرح شعور المسلمين...

وهذه المناهج الدراسية تقدم الحروب الصليبية على أنها هجوم أوروبي لتحرير بيت المقدس من أيدي الكفار - أي المسلمين - الذين كانوا حسب ادعاء الأوروبيين يحتلون فلسطين ويسيئون معاملة المسيحيين الشرقيين أي المقيمين بها، وكذلك المسيحيين القادمين من أوروبا لزيارة بيت المقدس، وتغفل هذه المناهج الدراسية التنديد بوحشية الصليبيين وعدم تسامحهم مع سكان القدس حين انتزعوها من أيدي المسلمين عام

---

(١) صورة الإسلام في الغرب من خلال المناهج الدراسية، وثائق ندوة صورة الإسلام في الغرب من خلال المناهج الدراسية فيينا - النمسا - شعبان ١٤٢٠هـ - نوفمبر ١٩٩٩م.

(٤٩٣ هـ / ١٠٩٩م) بينما التاريخ العالمي والموسوعات العلمية الكبيرة اعترفت بأن الصليبين ذبحوا أكثر من ٧٠ ألفا من المدنيين من أهالي القدس دون تمييز بين النساء والأطفال والشيوخ أو بين مسلمين ويهود وحتى مسيحيين من أهالي المدينة المقدسة العزل من السلاح، وكذلك لزمت المناهج الدراسية الصمت التام أو الإغفال التام لتسامح المسلمين الكبير حين استعاد المسلمون القدس عام (٥٨٣ هـ / ١١٨٧م) على يد القائد المسلم صلاح الدين الأيوبي الذي أصدر العفو التام عن كل الأهالي.

ولعل أكثر الأمثلة دلالة على ظاهرة الإغفال المتعمد لحقائق الإسلام ودوره الحضاري هي إغفال المناهج الدراسية الغربية الاعتراف بفضل الفلاسفة والعلماء المسلمين على النهضة الأوروبية[1].

وإذا كان الطفل ينشأ على هذه الصورة في هذه السن الصغيرة، فإنها تظل عالقة بوعيه دائماً، ولاسيما أن مناهج المراحل الثانوية والجامعية لا تختلف عنها إلا قليلا.

وإذا كانت هذه هي صورة الإنسان المسلم عبر تاريخه وعلاقته ومناطق اشتباكه مع الإنسان الأوروبي (المظلوم دائمًا) (المعصوم - كذلك - دائمًا) و(الباحث عن الإسلام) ولو من خلال إبادته للشعوب - دائمًا...

إذا كانت هذه هي صورة الإنسان المسلم - بهذا الميزان الأوروبي الظالم - فإن عقيدة هذا المسلم هي أيضًا عقيدة تقوم على القهر في علاقة الله بالإنسان، فالإنسان محكوم بالقدر الإجباري لا يملك أية مساحة من الحرية ولا يملك تحديد مصير حياته بل عليه أن يرضخ لهذا المصير.. وهنا على الأرجح تكمن جذور ظاهرة الميل إلى الاتكال على القدر التي يمكن ملاحظتها عند المسلمين.

وبما أن الفلسفات المادية المعاصرة تتخذ من الإنسان واختياره مركزاً للتفكير والتنظيم البشري، فإن الإسلام يقدم على أنه صورة مناقضة لهذه الفلسفة؛ لأنه يتخذ الله مركز الكون. أما حرية الإنسان فليس لها أهمية في النظام الكوني عند المسلمين...

---

(١) فوزية عشماوي: صورة الإسلام في الغرب من خلال المناهج الدراسية.

وبالتالي يتعلم الشباب في المناهج الغربية هذه الصورة التي يستنتج لهم منها أنها صورة حقيقية، وهي متخلفة وبدائية ولا تساعد المجتمع على النمو والنهوض والتطور كما هو حال المسلمين[1].

وبالنسبة للقرآن يعلمون الشباب هناك أن القرآن كتاب ألفه محمد للمسلمين، وقليلا ما يقولون: إنه كلام الله المنقول على لسان نبيه محمد، ويزعمون أن القرآن يتضمن أفكاراً كثيرة منقولة من العقيدتين اليهودية والنصرانية، كالاعتقاد بإله واحد وبيوم القيامة، ويحتوي كذلك على كثير من القصص الواردة في الإنجيل... متجاهلين حقيقة وجود قدر مشترك بين كل الأديان والفلسفات حول القيم الإنسانية المشتركة.. ومتجاهلين الفروق الدقيقة بين القرآن والعهدين القديم والجديد في كثير مما يتصل بالله وبكل الأنبياء، وبتفسير العلاقة بين الله والإنسان.. إنها في الإسلام علاقة ربوبية وعبودية لا مكان فيها لوساطات ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص].

هكذا بإيجاز يمكننا القول: إنهم يجهلوننا حقا؛ لأن مستشرقيهم ورجال العلم واللاهوتيين، فضلا عن كتبهم ومناهجهم لا تقول عنا الحق، ولا تتعامل معنا بصدق وتعمل منذ قرون لتشويهنا حتى لا تتيح للفرد الأوروبي حرية المقارنة وحرية القرار في اتخاذ الدين الذي يراه مناسبًا له.

عوامل التشويه للإسلام في الحضارة الأوروبية:

في العصر الحديث استطاعت القيادات الأوروبية الأمريكية أن تطور عوامل النفور من المسلمين مستغلة رقعة فترة الخلافة العثمانية في كتب تاريخها؛ حيث تناولت تلك الفترة بأسلوب يوسع العداء والنفور من المسلمين، مازجة بينها وبين عرض مغلوط للحروب الصليبية، وبين نظرتها الاستعمارية التي استقتها من خلال حكمها

(١) أحمد محمد بن الديبان، صورة الإسلام في بلاد الغرب من خلال المناهج الدراسية (جوانب العلوم الشرعية) المرجع السابق.

واستغلالها لكثير من بلدان المسلمين... ومن العجيب أنها تقلب الحقائق بطريقة تخالف أبجديات العقل فتدافع عن احتلالها وإبادتها في الجزائر – وحدها – ثمانية ملايين مسلم من الجزائريين خلال احتلالها الذي استمر مائة وثلاثين سنة، وتدافع كذلك عن الحروب الصليبية مع أنها المعتدي في المرتين..

والمهم عندها أن يستغل التاريخ والحضارة في التنفير من المسلمين؛ ولذلك تنكر أيادي علمائهم وفلاسفتهم عليها، مع أنها لقرون طويلة كانت عالة عليهم، كما يؤكد غوستاف لوبون وول ديورانت وسيجريد هونكة وغيرهم... وهم يستغلون هذا كله لصنع حواجز نفسية ضد المسلمين، ولا مانع عندهم من التنفير من الدين كله لتجربتهم المؤلمة مع الكنيسة.

أما الإعلام فله الدور الأكبر في بناء هذا الحاجز الذي كلف البشرية الكثير من الصراع والهدم دون التوجه إلى البناء والتعمير. وقد ذكرت الدكتورة (إرم كاربن) الباحثة في جامعة (آخن) في بحثها حول عرض الإسلام في وسائل الإعلام الغربية في المؤتمر الثالث للمجلس الإسلامي في ألمانيا – أن تشويه صورة الإسلام كان بسبب عدم استيعاب وسائل الإعلام لحقيقة الإسلام والمسلمين، واعتبرت ذلك تجهيلا متعمدا للرأي العام الألماني، كما أضافت أنها أجرت دراسة في معهد الإعلام التابع لجامعة (آخن) وتوصلت إلى حقيقة أن وسائل الإعلام الألمانية تشوه صورة الإسلام والمسلمين مرة عن جهل ومرة متعمدة[١].

لقد استطاعت وسائل الإعلام الأوروبية والأمريكية المغرضة أن توجه ظاهرة الإرهاب العالمي وعلى رأسه الإرهاب اليهودي للنيل من الإسلام وتشويه صورة المسلمين، وهي تحصره في المسلمين تغطية على جرائم الصرب في البوسنة والهرسك، وجرائم الصهيونية في فلسطين، وجرائم أمريكا في أفغانستان والعراق وغيرهما.

---

(١) انظر: صلاح الدين الجعفراوي، مخاطبة القيادات الأوربية ضمن وثائق ندوة صورة الإسلام في الغرب، المرجع السابق.

ولا نريد أن نستطرد في ذكر الأسباب التي عاقت الخطاب الديني والحضاري عن الحوار وجلبت كثيراً من الشرور على البشرية، ونشرت العنف في معظم دول العالم وعلى رأسها أمريكا وأوروبا وإسرائيل، ولكم ذكرت تقارير منظمة العفو الدولية أن هناك حالات كثيرة لعدم احترام حقوق الإنسان في هذه الدول الثلاث دون أن يسلط عليها الضوء أو تُوضع تحت المجهر... ولنتذكر هنا على سبيل المثال لا الحصر حوادث حرق بيوت اللاجئين السياسيين في ألمانيا، وقتل اللاجئة النيجيرية، والاعتداء على الأطفال في بلجيكا، وقتل بعض الشباب المغاربة في أسبانيا، وإلقاء المواطن الجزائري في النهر في فرنسا، والاعتداء على سائق التاكسي الأسود في أمريكا[1]...

ويرى (صلاح الدين الجعفراوي) أن عدم اعتراف معظم دول أوروبا الغربية بالدين الإسلامي وبالأقليات الإسلامية، مع أن الإسلام هو الدين الثاني في أوروبا، يؤكد أنه لا يوجد احترام لمواثيق وقوانين تلك الدول، ولا احترام لمبادئ حقوق الإنسان، ولا التزام بميثاق الأمن والتعاون الأوروبي الذي ينص في أحد بنوده على: (ضرورة الحفاظ على الهوية الثقافية للأقليات: الدينية والعرقية).

* * *

هذه هي بعض ملامح الخطاب الديني الأوروبي، فهو لم يعد خطابًا بين الكنيسة الممثلة للدين المسيحي وبين علماء الإسلام، بل أصبح بفضل الصهيونية واليمين المتطرف الصهيوني المسيحي ووسائل الإعلام خطابًا دينيًا عامًّا يتصل بكثير من شرائح الفكر الأوروبي والمتأثرين به من المتعلمين وأنصاف المتعلمين، وقد كان لتخلف المسلمين وجهلهم وعدم تمكنهم من اللغات الأجنبية وجمود كثير منهم يد كبيرة في تحقيق الهيمنة لهذه الصورة المشوهة والظالمة عن الإسلام والمسلمين دون أن نقلل من أثر الأهداف الاستعمارية للطرف الآخر، والذي يخشى عودة الإسلام الصحيح على الساحتين الإسلامية وغير الإسلامية؛ لأنها – في رأيه – تشكل خطراً عليه... وهذا أمر عجيب....!!

---

(١) صلاح الدين الجعفراوي، المرجع السابق.

لكن أيا كان الأمر فإن خطابنا الديني يجب أن يكون واعيا بهذا الواقع، وألا ييأس من مواجهته، وأن ينشئ وسائل التأثير الحضارية الإعلامية والثقافية والاقتصادية التي تقاومه، وأخيرا – وهذا هو الأهم – ألا ينطلق من شعور عدائي يجعله يقاوم العنف بالعنف والحقد بالحقد، بل يقاوم التزييف بشرح الحقيقة، والإعلام المشوه بالإعلام الصحيح، والصورة السلبية للمسلم بالصورة الإيجابية المتأسية بأخلاق الرسول ﷺ والصحابة ﷺ والتجار والدعاة الصادقين والأمناء الذين نشروا الإسلام سلما بأخلاقهم في قارات العالم.

صحيح أننا نواجه مشكلة غريبة... يقف فيها المجرم في موقف القاضي... والقاتل في موقف المقتول.. أوكما يقول جارودي: (فإن الغرب سلب ونهب وقتل الآخرين طوال خمسة قرون بمنهجية مؤسسة تارة على أصولية دينية طبقا لأخطر أساطير التاريخ الإنساني: الشعب المختار وأرض الميعاد، ومملكة المسيح على الأرض التي تشيد على دماء عشرات الملايين من القتلى.. وتارة على علمانية ليبرالية طبقا للداروينية الشاملة ذات البقاء للأقوى، وأن للأعراق الأعلى حقوقا على الأعراق الأدنى...)[1].

وبحسب تعبير ناعوم تشومسكي المفكر اليهودي الأمريكي عن هذا الغزو الأوروبي، بعنونة كتابه: (خمسة قرون ومازال الغزو مستمرا) وهو عنوان كتاب له يدل دلالة عميقة على ما فيه (ومع ذلك كله، أي مع غزو الغرب للشرق لمدة خمسة قرون، ومع أن الغرب هو الذي أطلق حلقة العنف الشرير الأول، فإنه إذا هبت شعوب الشرق والإسلام تدافع عن نفسها أصبحت إرهابية جديرة بسحقها).

الخطاب الديني... ومبدأ الحوار في الإسلام.

في الجزء الأول من كتابه العظيم (إحياء علوم الدين) يورد الإمام أبو حامد الغزالي (ت ٥٠٥هـ) آفات الجدال والمناظرة والضوابط المطلوبة فيها، متتبعا ظهور الخلافات

---

(١) روجيه جارودي: الإرهاب الغربي، مكتبة الشروق الدولية، ط ١، ١٤٢٥هـ.

الفكرية في الأمة، وهو يربطها بظهور الفقه (علم الاجتهاد في فروع الشريعة)، وعلم الكلام (علم العقيدة) منذ عصر التابعين والسلف الصالح؛ الذين اهتموا بعلوم الفتاوى والأقضية لشدة الحاجة إليها في الولايات والحكومات، مع اتساع الدولة الإسلامية ووراثتها للعالم القديم.

ويكشف أبو حامد الغزالي ما يدخل في المناظرات من تلبيسات إبليس وتمويه أجناده وأعوانه؛ فهو يفحص دعاوى الملبسين والمتوصلين بالجدال والمناظرة إلى التشكيك في الحقائق؛ ثم يضيف:

إن التعاون على طلب الحق من الدين، ولكن له شروطا وعلامات لا تتغير مع اختلاف الزمان ومستجداته[1].

ولهذا يرى الغزالي أن من شروط الجدال:

- أن يكون المناظر مجتهدا يقول برأيه، ويجتهد في طلب الحق، وأن يقبله بلا تعصب.

- ألا يناظر إلا في مسائل واقعة أو محتملة الوقوع غالبا.

- وأن تكون المناظرة – قدر الاستطاعة – بعيدة عن المحافل، وعن حضرة ولاة الأمر؛ لأن ذلك أجمع للفهم وأبعد عن الرياء.

- وأن يكون المناظر في طلب الحق كناشد ضالة؛ لا يفرق بين أن تظهر الضالة على يده أو على يد من يعاونه.

- وألا يمنع (أي المناظر) محاوره من الانتقال من دليل إلى دليل، ومن إشكال إلى إشكال؛ بل. يعطيه الحق الذي يعطيه لنفسه[2].

---

(١) الدكتورة آمنة نصير، حوار الحضارات مع أجل الإنسان تواصل لا صدام، ص ٢٥، العدد (١١٩) المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

(٢) الإمام أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، دار الكتب العلمية، بدون تاريخ (١/ ٥٦-٥٨).

وهكذا تدلّنا قواعد فنّ الجدال والمناظرة على أصالة الحوار في حضارتنا، بطريقة راقية تحترم العقل الإنساني وتمكنه من تحقيق التعاون والتعارف بين الحضارات؛ بحيث نستطيع القول: إن الحوار باعتباره صورة راقية من صور التفاعل الحضاري، ووسيلة سلمية تؤدي إلى هدف إنساني كريم هو الوصول إلى الحق؛ يجد – في ظل شروط فن الجدال والمناظرة – المناخ الملائم لتحقيق غايته الكريمة؛ لكنه إذا فقد هذه الشروط أصبح وسيلة لاستمرار الصراع وتكريسه بطرق أقل عنفا.

وإذا ذهبنا – كما يقول الدكتور / عبد الملك منصور – إلى بيان موقف الحضارتين – الأوروبية والإسلامية – من الحوار (أو الجدال والمناظرة)؛ في ضوء عامل المرجعية أو القيم الحاكمة؛ فسوف نجد أن التوجه الصراعي، وليس الحوار السلمي هو المسيطر على الفكر الغربي بما فيه الفكر الديني (صراع الآلهة)، والفكر الفلسفي (مقولات نيتشه وهيجل)، والفكر الاقتصادي (نظرية صراع الطبقات)، و (نهاية التاريخ لصالح الرأسمالية عند فوكويا ما)، والفكر الحضاري الصدامي (مقولات برنارد لويس وتلميذه هنتجتون)، والفكر السياسي (نظريات توازن القوة والواقعية الوضعية)، والفكر البيولوجي (نظرية البقاء للأصلح)، والفكر الاجتماعي (مقولات الداروينية وأوجست كونت الاجتماعية)، والفكر النفسي (نظريات فرويد) إلى غير ذلك[1].

ولعل النظرة العابرة في تاريخ الحضارة الغربية تفيدنا أن غلبة التوجه الصراعي على الفكر الغربي ليست أمرا نظريا فحسب، وإنما هي أمر يؤيده الواقع، وسواء في التاريخ الداخلي للمجموعة (الأوروبية – الأمريكية): (تاريخ الحروب الدينية في الغرب، والحروب الأهلية داخل دولها، والحرب الباردة بين شقيها الرأسمالي والماركسي و... إلخ)، أو تاريخها الخارجي (توسعات الإمبراطوريتين الرومانية واليونانية، وغزوات الإسكندر، والحروب الصليبية لثلاثة قرون، والحربين العالميتين، والحملات الاستعمارية و... إلخ)[2].

---

(١) الدكتور / عبد الملك منصور، دور المجموعة الحضارية الإسلامية في حوار الحضارات، مؤسسة المنصور الثقافية للحوار بين الحضارات، اليمن.

(٢) د/ عبد الملك منصور، دور المجموعة الحضارية الإسلامية في حوار الحضارات.

فإذا نظرنا إلى الحضارة الإسلامية في ضوء مرجعيتها الفكرية والقيمية، وكذلك المواقف العملية عبر التاريخ؛ فسوف نجد الحوار يمثل ركنا أساسيا وأصيلا في الشريعة والحضارة الإسلامية؛ إذ يوضح لنا القرآن الكريم – وهو أساس المرجعية الإسلامية – أن العلاقة الأساسية الأولى في هذا الوجود، وهي علاقة الخالق بالمخلوقات، قد بدأت وتأسست واستمرت على أساس الحوار وحده.

لقد أسس الله علاقته مع الإنسان والملائكة والجن على مبدأ الحوار، كما تروي لنا آيات قرآنية كثيرة؛ مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب]، والأصل في القول – وكذا في العرض – كما نعلم هو الحوار[1].

والقرآن الكريم حافل بالآيات الكثيرة الدالة على الحوار مع المخالفين، وتعد الآية القرآنية ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ﴾ [آل عمران:٦٤] دستورا للحوار الإسلامي، كما أن الآية القرآنية ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ [البقرة:٢٥٦] تمثل دستورا لحرية الاعتقاد الذي ينفي بطبيعته الإكراه ويدعو إلى الحوار والإقناع.

❋ ❋ ❋

إن الحوار بين الناس والحضارات والأفراد (هو ما سماه القرآن التعارف) في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجُرات:١٣]، بما يقتضيه التعارف من تبادل الخبرات والمعارف، وتحقيق التفاهم والود والتعاون... هذا الحوار ضرورة من ضرورات الحياة الإنسانية وبقاء الحضارات.. ولهذا كانت فترات السلام هي الأصل في بناء الحضارات واستمرارها؛ أما الحرب فشذوذ يؤدي إلى إزهاق الأرواح وتبديد الإمكانات؛ وما ينفق عليها قد يسعد الجنس البشري كله قرونا – كما نرى في حجم

---

(١) د/ عبد الملك منصور، المرجع السابق.

الإنفاق العسكري في العصر الحديث – ومن هنا يكتسب الحوار أهميته البالغة من كون الوجود الاجتماعي الإنساني لا يتحقق إلا بوجود (الآخر المختلف)؛ الذي يمكن أن تتعرف عليه، وتتبادل معه الخبرات وصور التعاون... وبالتالي تستطيعان معا – بالالتقاء والحوار – إنتاج المعرفة، وتوليد الأفكار الجديدة؛ حتى تتضح المعاني، وتغني المفاهيم؛ لأن الحوار في مستوياته العليا إنما هو نوع من إنتاج المعرفة الراقية؛ التي تتحاور مع كافة ضروب المعرفة الإنسانية.

وبالتزام الحوار، وتواصله بين الأطراف المختلفة؛ تتقلص شقة الخلاف شيئاً فشيئا، وبفضله تتسع قدرات العقل، وتتعمق مداركه، وفي أجواء الحوار ينمو العقل، ويقوى بما يتهيأ له من تنوع في الفكر، واختلاف في المنهج [1].

صور من حوار الرسول لليهود:

لقد حاور الرسول ﷺ اليهود، كما حاور غيرهم، واستمع إليهم وسمح لهم بأن ينشروا ما عندهم من معرفة، بل أذن لصحابته بأن ينقلوا أحاديثهم التي تطابق أصل ديانتهم، ولا تعارض ما جاء به الإسلام، وهكذا احتوت كتب الصحاح والسنن حوارا متنوعا؛ طرفاه الرسول ﷺ وبعض المسلمين من جهة وأحبار اليهود أو عامتهم من جهة أخرى.

والمتتبع لهذا الحوار يلاحظ أنه ينقسم إلى الأنواع الآتية:

أ - **الحوار الجدلي:** ويبرز في القضايا المتعلقة بالعقيدة والتي أثارها اليهود.

ب- **الحوار التشريعي:** وتظهر فيه القضايا التي كانت أصلا لحكم تشريعي.

ج - **الحوار الاجتماعي:** وهو الذي يهتم ببعض العلاقات الاجتماعية التي كانت قائمة بين المسلمين واليهود [2].

---

(١) محمد زرمان، ثقافة الحوار ودورها في التأسيس للتواصل بين الأنا والآخر، مؤتمر الإسلام والمسلمون في القرن الحادي والعشرين، عمان، إربد، الأردن، جامعة اليرموك، نوفمبر ٢٠٠٤ م.

(٢) الدكتور محسن بن محمد بن عبد الناظر، حوار الرسول ﷺ مع اليهود، ص ١٥، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ ١٩٩٢م، دار الدعوة، الكويت.

د - **الحوار المصيرى:** وهو الحوار السياسي.

وفي الصفحات التالية نقدم بعض النماذج لحوارات الرسول ﷺ والمسلمين مع اليهود في المجالات الجدلية (الفكرية) والتشريعية، والاجتماعية، وهي المجالات الألصق بموضوعنا.

* * *

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «بينما أنا أمشي مع النبي ﷺ في طرف المدينة وهو يتوكأ على عسيب معه، فمر بنفر من اليهود فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح. وقال بعضهم: لا تسألوه؛ لا يجيء بشيء تكرهونه.

فقال بعضهم: لنسألنه. فقام رجل منهم فقال: يا أبا القاسم، ما الروح؟ فسكت، فقلت: إنه يوحى إليه، فقمت فلما انجلى عنه قال:

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [الإسراء].

وقد أجابهم الرسول ﷺ بقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .. فقالوا له: من جاءك بهذا؟

فقال لهم النبي ﷺ: «جاءني به جبريل من عند الله».

فقالوا: والله ما قاله إلا عدو لنا».

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «أُتي رسول الله ﷺ بيهودي ويهودية قد أحدثا جميعا.

فقال لهم: ما تجدون في كتابكم؟ قالوا: إن أحبارنا أحدثوا تحميم الوجه والتجبيه.

قال عبد الله بن سلام: ادعهم يا رسول الله بالتوراة، فأُتي بها فوضع أحدهم يده على آية الرجم، وجعل يقرأ ما قبلها، وما بعدها.

فقال ابن سلام: ارفع يدك، فإذا بآية الرجم تحت يده، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما».

وعن أنس ﷺ قال: «بلغ عبد الله بن سلام مقدم النبي ﷺ المدينة فأتاه فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي؟

قال: ما أول أشراط الساعة؟

وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟

ومن أي شيء ينزع الولد إلى أبيه، ومن أي شيء ينزع إلى أخواله؟

فقال رسول الله ﷺ: أخبرني بهذا آنفًا جبريل.

قال: قال عبد الله: ذاك عدو اليهود من الملائكة.

فقال رسول الله ﷺ: أما أول أشرط الساعة: فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة: فزيادة كبد الحوت، وأما الشبه في الولد: فإن الرجل إذا غشي المرأة فسبقها ماؤه كان الشبه له، وإذا سبق ماؤها كان الشبه لها.

قال: أشهد أنك رسول الله، ثم قال: يا رسول الله إن اليهود قوم بهت،إنْ علموا بإسلامي قبل أن تسألهم بهتوني عندك. فجاءت اليهود ودخل عبد الله البيت، فقال رسول الله ﷺ :أي رجل فيكم عبد الله بن سلام؟ قالوا: أعلمنا وابن أعلمنا، أخيرنا. وابن أخيرنا. فقال رسول الله ﷺ: أفرأيتم إن أسلم عبد الله؟ قالوا: أعاذه الله من ذلك. فخرج عبد الله إليهم فقال:أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. فقالوا: أشرُّنا وابن أشرنا، ووقعوا فيه» [البخاري]

حوار المسلمين لليهود... والتجاوز عن التجارب الأليمة:

بعيداً عن المشاعر الشخصية الأليمة التي عانى منها المسلمون في المدينة من اليهود؛ بعد أن عقد محمد رسول الله ﷺ معهم معاهدة المواطنة الكاملة (الصحيفة- الدستور)؛ فإذا بهم يحاولون- مرة- الاعتداء على عرض امرأة مسلمة في أسواقهم (٢هـ)، ومرة أخرى يتآمرون على قتل الرسول نفسه(٤هـ)، ومرة ثالثة يقدمون على خيانة جماعية عظمى لمواطنيهم المسلمين، وهم في محنة حرب الخندق (بنو قريظة سنة ٥هـ)...

بعيدًا عن كل هذه الخيانات، وعن (الحرب التآمرية الباردة الدائمة المتآزرة مع

مشركي الجزيرة)، ومخالفتها لدستور المدينة...

بعيداً عن كل ذلك؛ يفتح المسلمون لليهود صفحة جديدة للسلام؛ حتى لا يظل المستقبل يدفع ثمن أخطاء الماضي.

* * *

كانت الأمة الإسلامية قد نجت من الإبادة بأعجوبة وقت حصار المشركين للمدينة في غزوة الخندق؛ في السنة الخامسة للهجرة؛ وقد أوشك بنو قريظة (اليهود) أن يدمروا المدينة؛ بعد خيانتهم للدستور الذي يلزمهم- كمواطنين- بحماية المدينة مع المسلمين.

ولو أن محمدًا أطلق سراحهم لعملوا على زيادة معارضة اليهود في خيبر، ولنظموا هجومًا آخر ضد المدينة؛ حيث لم يكن هناك ضمان لأن يحالف الحظ المسلمين مرة أخرى، كما أن المعركة الدموية من أجل البقاء كانت ستستمر إلى ما لانهاية، وتستمر معها المعاناة والموت، ولابد أن أحكام الإعدام ضد الخيانة العظمى ليهود بني قريظة؛ قد تركت أثرها المطلوب في نفوس أعداء الإسلام[1]. كما أنه لا يبدو أن أحدًا قد صدمته المذبحة (لأنها عدل بكل القوانين)؛ بالإضافة إلى أن القرظيين أنفسهم كانوا قد ارتقبوا حتميتها؛ فهم يعرفون معنى الجريمة التي ارتكبوها.

ومع ذلك؛ فمن الأهمية بمكان- كما تقول كاترين أرمسترونج - أن نسجل هنا أن تلك البداية المأساوية لم تؤثر بصفة دائمة في موقف المسلمين من اليهود؛ فبمجرد أن أقام المسلمون إمبراطوريتهم العالمية الخاصة، وطوروها نظامًا متقدمًا في شريعتهم؛ أسسوا نظام تسامح؛ ظل يسود الأجزاء المتمدينة في الشرق العربي لمدة طويلة؛ حيث تعايشت مجموعات دينية في ظله جنبًا إلى جنب.

إن المعاداة للسامية خطيئة مسيحية غربية، وليست خطيئة إسلامية، ويجب أن يكون ذلك حاضرًا في أذهاننا؛ كي لا نخضع لإجراء التعميمات.

---

(١) أرمسترونج كاترين: محمد، ط ١٩٨٨م. مسطور، مصر، ص٣٠٨.

ففي ظل الإمبراطورية الإسلامية تمتع اليهود- مثلهم مثل المسيحين- بحرية دينية كاملة، وعاش اليهود في المنطقة في سلام؛ حتى إعلان دولة إسرائيل في سنة ١٩٤٨م.

ولم يعانِ اليهود في ظل الإسلام قط ما عانوه في ظل المسيحية!!

أما الأساطير الأوربية المعادية للسامية فقد قدمت إلى الشرق العربي في نهاية القرن الماضي على يد البعثات التبشيرية المسيحية، وكانت الجماهير عادة ما تقابلها بالازدراء(١).

ومن الجدير بالذكر هنا أن نقول: إن تغاضي المسلمين عن إساءات اليهود البالغة لهم عبر التاريخ، وتغاضيهم عن خيانتهم للدستور الذي وضعه رسول الإسلام، وأعطاهم فيه حق المواطنة الكاملة في المدينة المنورة (وطنهم)، ومع ذلك خانوا الدستور والوطن في محنة شديدة؛ كاد المسلمون – لولا رعاية الله يبادون فيها..

إن هذا التغاضي من المسلمين عن صفحات خيانة اليهود الكثيرة ضدهم يؤكد أن المسلمين ينظرون إلى الحرب على أنها أمر استثنائي بغيض، وأنه لا ينبغي على المسلمين أن يبدءوا بالعدوان؛ لأن الحرب العادلة هي التي تشن للدفاع عن النفس فقط؛ ومع ذلك فمتى دخلوا الحرب وجب عليهم أن يقاتلوا بالتزام أخلاقي مطلق، لكي ينتهي القتال في أسرع وقت ممكن- كما تقول كاترين أرمسترونج - وإذا اقترح العدو هدنة أو أبدى استعدادًا للسلم؛ فإن القرآن يأمر المسلمين ألا تكون شروط السلام غير أخلاقية أو مخزية؛ لكن القرآن يؤكد أيضًا على أن إنهاء الصراع الحربي أمر مقدس؛ على أن تتم مواجهة العدو بحزم، وأنه يجب تحاشي أي تردد؛ لأن ذلك يعني أن يستمر الصراع لأجل غير مسمى.

إن هدف أي حرب في الإسلام هو إحلال السلام والوفاق في أسرع وقت(٢).

---

(١) أرمسترونج كاترين: محمد، ص٣٠٩.

(٢) المرجع السابق، ص٣١٠.

الحوار بين الإسلام، والمسيحية في المرحلة المبكرة:

منذ بداية ظهور الإسلام سنة ٦١٠م (١٣ق هـ) وهو يتعرض لحقد الحاقدين من أصحاب الوثنيات الوضعية والديانات الكتابية السابقة... وقد يكون هذا الأسلوب مقبولاً في حدود معينة، فليس من السهل ترك الإنسان لدينه وعاداته وتقاليده مهما كان بطلانها واضحاً، بَيْدَ أن الأمر يصبح غير مقبول- جملة وتفصيلا- حين يَتَعرَّف الإنسان على حقائق الدين الجديد ويرى سموها وتصويبها لما لحِقَ الأديان السابقة من تشويهات لا تليق بالدين ولا بالعقل كما يرى –في الناحية الحياتية- تسامحًا وتكريمًا، بل وتعاونا على شئون الحياة من أصحاب الدين الجديد.. ومع هذا كله يأبى الإنسان إلا تشويه الدين الجديد وتسفيه أصحابه والافتئات عليه؛ مستغلا تسامحهم وصفحهم والفرصة الذهبية التي أتاحوها لهم ليعمل معهم في أعلى المستويات الوظيفية، متجاوزين عن إساءته التي لا يعرفون إلا القليل منها، بينما يعمد هو إلى إخفاء الكثير مما يسيء فيه إليهم...!!

والحق أن هذه هي قصة يوحنا الدمشقي(٥٠-١٣٣هـ/ ٦٧٠-٧٥٠م) مع الإسلام، مع الكرم الكبير الذي أسبغه عليه خلفاء بني أمية، وهم يعلمون أنه- وأباه من قبله –يتعصبون للأرثوذكسية.

- لقد عمد يوحنا الدمشقي إلى كتابة كتابين يشير فيهما إلى الإسلام على مستوى التاريخ والعقيدة والقرآن والأخلاق والممارسات.

- ولقد انتهج منهجًا مبتورًا متعسفًا في كتابته عن الإسلام؛ ولذلك لم يدخل في نهجه، وهو يدرس الإسلام، مسائل جدالية حول ما إذا كان مجيء محمد قد ورَدَ في نبوءات أنبياء تقدموا عليه، أو ما إذا كان قد أتى بمعجزات تفوق مثيلاتها لدى عيسى وموسى عددًا وأهمية، أو ما إذا كان الأسلوب البلاغي في القرآن دليلا على نبوّة الرسول ﷺ.

بل من المؤسف أن نقول: إن يوحنا رفض التعرف الموضوعي على الإسلام، وإن المسيحية الأرثوذكسية هي التي استقطبت وحدها جلّ اهتمام يوحنا الدمشقي، فهو

يدرس الإسلام- ابتداءً- لتفضيل الأرثوذكسية عليه، ولتشويهه وتفنيد حقائقه، وهو تحيّز (غير علمي)، ومن أكبر أدلة تعمد يوحنا الدمشقي تشويه الإسلام ما اعترف به دانييل ساهاس من أن يوحنا كان يحاول التشكيك في كون الإسلام دين إبراهيم الحنيف من خلال وصفه المسلمين، على نحو لا يخلو من الخبث.

ويبدو أن يوحنا الدمشقي هو أول كاتب بيزنطي استخدم هذا التشويه (الأثيمولوجي)- كما يقول ساهاس- لأغراض الجدل العنيف وتحفيز الذاكرة أي لمجرد الشغب الجدلي الباطل.

كذلك فإنه يصف المسلمين بـ(المفسدين)؛ وهي التسمية التي درج اليونانيون على إطلاقها على المسلمين، لنزعهم عن الله كلمته وروحه، ردًا على تهمة الشرك التي يوجهها المسلمون إلى المسيحيين بسبب عقيدة التثليث.

ومن خبثه وفساد منهجه أيضًا (وهو الذي يعيش مع المسلمين) أنه يصور الرسول ﷺ واحدًا من أتباع عدة أديان، لا يعرف من العهدين، القديم والجديد، إلا ما ضحلت قيمته[1]، ومن المعروف أن الرسول محمدًا ﷺ كان أميًا لا يقرأ ولا يكتب، يقول فيه كتاب الله القرآن: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [العنكبوت]... فمن أين للنبي محمد ﷺ العلم بالعهد القديم وهو أمي من أهل مكة التي لا يعيش فيها اليهود، وأين هو تأثير العهد القديم- أو الجديد- في القرآن الكريم، مع أن القرآن يرفض معظم ما يقوله العهدان القديم والجديد عن الله وعن عيسى والأنبياء جميعا، ويدافع عن (التوحيد) و(عصمة الأنبياء)و(بشرية عيسى ونبوته)!!

وأيًا كان أمر المنهج الفاسد الذي استعمله بخبث شديد - (كما يقول ساهاس) - يوحنا الدمشقي، فإنه قام بإيجاد مناخ جدلي صاخب مع المسلمين.. كما أن عنصري الإثارة والجدَّة اللذين استخدمها الدمشقي في مناقشاته العقدية، ومراسه الفلسفيّ في

---

(١) دانييل ساهاس: مجلة الاجتهاد- بيروت، عدد ٢٨، ص١٢٦ بتصرف.

تطويع مقولات الفلسفة اليونانية والمنطق، شكلت- كما يقول ساهاس- أمورًا كان من نتيجتها أن استرعت انتباه المسلمين، وشدّت اهتمامهم إلى ما يتجاوز المضامين الفكرية (يقصد الباطلة) موضوع المناقشة[1].

كما أن يوحنا الدمشقي، الذي عاش في فترة متقدمة خلال العصر الأموي، كان واحدًا من الذين ألهموا المسلمين دراسة الإسلام، لأغراض ذاتية على وجه التحديد، باستخدام نماذج وإنجازات مستقاة من حضارة أخرى، (وهو تفاعل حضاري مقبول)[2].

* * *

وهكذا وعبر تناظرات وتقاربات ومحاولات، ووجود مساحات فكرية وعقدية يلتقي فيها الإسلام مع أرثوذكسية يوحنا الدمشقي.. عمد الدمشقي إلى توظيفها توظيفًا حضاريًّا، ويخدم به مباشرة عقيدة الأرثوذكسية، لكنه في النهاية يخدم قضية الحوار والجدل الديني المبكر في تلك المرحلة الأولى الخطيرة التي التقى فيها النظام الإسلامي (العقدي والفكري) بالمنظومة المسيحية...

* * *

عندما قدم جيش سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه من العراق بعد القادسية، وسقوط دولة فارس، أراد بعض الصحابة أن تقسم الأرض بمن فيها على المسلمين، لكن عمر رفض ذلك وقال: والله لن يُفتح بعدي بلد فيكون فيه كبير نيل، بل عسى أن يكون عبئًا على المسلمين، وإذا قسمت الأرض فما يُسَدُّ به الثغور؟ وما يكون للذريَّة والأرامل بهذا البلد وبغيره من أهل العراق والشام؟

فأكثروا على عمر في تقسيم الأرض ومن فيها، فكان عمر لا يزيد على أن يقول: هذا رأيي. قالوا له: فاستشرْ،... فاستشار عمر المهاجرين الأولين فاختلفوا، وكان عثمان وعليّ وطلحة على رأي عمر.

---

(١) مجلة الاجتهاد: مرجع سابق ص١٣٢ - ١٣٣ بتصرف.

(٢) دانييل ساهاس: الاجتهاد ٢٨،ص ١٣٤ بتصرف..

ثم أرسل عمر إلى عشرة من الأنصار، خمسةٍ من الأوس، وخمسة من الخزرج من كبرائهم وأشرافهم، فلما اجتمعوا حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، وقال:

إني لم أدعكم إلا لأن تشركوا في أمانتي فيما حملتُ من أمركم، فإني واحد كأحدكم، وأنتم اليوم تقرّون بالحق، خالفني من خالفني، ووافقني من وافقني، ولستُ أريد أن تتبعوا الذي هو هواي، معكم من الله كتاب ينطق بالحق، فوالله لئن كنتُ نطقتُ بأمرٍ أريده ما أردت به إلا الحق.

قالوا: بل نَسمع يا أمير المؤمنين.

قال: قد سمعتم كلام هؤلاء القوم الذين يزعمون أني أظلمهم حقوقهم، وإني أعوذ بالله أن أركب ظلمًا، ولقد غنَّمنا الله الفرس وأرضهم وعُلوجهم، فقسمتُ ما غنموا من مال أو متاع بين أهله، وأخرجت الخمس فوجهته على وجهه.... وقد رأيت أن أحبسَ الأرض بعلوجها، يرعونها ويؤدون الخراج عليها فيكون فيئًا للمسلمين، للمقاتلةِ والذريَّة ولمن يأتي بعدهم... ثم قال عمر: أرأيتم هذه المدن العظام (الشام- والجزيرة- والكوفة- والبصرة- ومصر)؛ لابدّ لها من أن تشحن بالجيوش، وإدرار العطاء عليهم، فمن أين يُعطى هؤلاء إذا قمستُ الأرضين والعلوج؟

فقالوا جميعا: الرأي رأيك، فنعم ما قلتَ وما رأيتَ.

فقال عمر: قد بان لي الأمر، واتخذ قراره بترك الأرض لأصحابها يزرعونها ويؤدون الخراج عليها. فكان ذلك خيرًا للمسلمين ولغير المسلمين، بسبب الشورى والحوار بين الحاكم والمحكومين للمصلحة العليا.

* * *

وعندما قدم عمر بن الخطاب إلى الشام وكان يركب على بغلة فتلقاه معاوية في موكب نبيل، فأعرض عنه عمر؛ فجعل يمشي إلى جنبه راجلاً، فقال له عبد الرحمن بن عوف: أتعبت الرجل فأقبل عليه.

قال عمر: يا معاوية، أنت صاحب الموكب مع ما بلغني من وقوف ذوي الحاجات ببابك.

قال: نعم يا أمير المؤمنين.

قال: ولم ذلك؟

قال: لأنا في بلاد لا تمنع من الجواسيس، ولابد لهم ما يروعهم من هيبة السلطان؛ فإن ألزمتني بذلك أقمت عليه، وإن نهيتني عنه انتهيت.

قال عمر: إن كان الذي قلت حقًّا فإنه رأي أريب، وإن كان باطلا فإنها خدعة أديب، لا آمرك ولا أنهاك[1].

* * *

وقام رجل إلى الخليفة سليمان بن عبد الملك فقال: إني مُكلمك يا أمير المؤمنين بكلام فيه بعض الغِلظة فاحتمله إن كرهته، فإن وراءه ما تحبُّه إن قبلتَه.

قال: هات يا أعرابي. قال: فإني سأطلق لساني بما خَرِسَتْ عنه الألسن من عظتك، تأدية لحق الله وحقّ إمامتك.

إنه قد اكتَنَفَكَ (أحاط بك) رجال أساءوا الاختيار لأنفسهم، فابتاعوا دُنياك بدينهم، ورضاك بسخط ربِّهم، خافوك في الله ولم يخافوا الله فيك، فهم حَرْبٌ (مبعدون) للآخرة سِلْمٌ للدنيا، فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله عليه، فإنهم لن يألوا (يقصروا) الأمانة تضييعًا، والأمّة عَسْفًا وخَسْفًا (ظلمًا وإذلالاً) وليسوا مسئولين عما اجترحْتَ، فلا تُصْلِحْ دنياهم بفساد آخرتك، فإن أعظم الناس غَبْنًا مَنْ باع آخرته بدنيا غيره[2].

* * *

أما الخليفة الراشد (عمر بن عبد العزيز) رحمه الله فالإجماع يكاد ينعقد على أن الركيزة الأولى لسياسته الداخلية والخارجية تقوم على أسلوب المراسلات والحوار مع الفرق المعارضة في الداخل، والقوى الخارجية، فقد نهج طريق الحوار مع فرق المعارضة مثل

---

(١) المرجع السابق، ١١٩، ١٢٠.

(٢) رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وأبو يعلى ورجاله ثقات (٥/ ٢٣٦).

الخوارج والقدرية، وغيرهما، على أساس أن هذا الحوار هو الوسيلة الإسلامية الأولى للتعامل مع المخالفين.

ومما هو معروف من تاريخه أنه وجه رسائل إلى حكام السند والهند وملوكهم، حثهم فيها على اعتناق الإسلام، وأنه بإمكانهم إذا ما فعلوا ذلك الاحتفاظ بسلطانهم وممتلكاتهم، وقد تحول بعضهم إلى الإسلام عندما سمعوا بعدل عمر، وقد أرسل عاهل التبت في الهند رسالة جوابية يطلب فيها من عمر أن يرسل له فقيها لكي يتعلم مبادئ الإسلام.

وثمة مراسلات دارت بين عمر بن عبد العزيز والعاهل البيزنطي ليو الثالث تنطوي على الجدال الذي يدور بين المسيحية والإسلام.

ويطلعنا المسعودي على سفارة أرسلها عمر إلى (ليو الثالث)، وكانت مهمة هذه السفارة التي نجهل الأشخاص الذين شاركوا فيها غير واضحة، غير أنها كانت (في أمر من مصالح المسلمين وحق يدعوه إليه).

وثمة رواية أخرى لابن عساكر، أحد المؤرخين المتأخرين، والذي يهتم بالروايات الشامية، تطلعنا هذه المرة على سفارة أرسلها (ليو الثالث) لعمر.

وعلى الرغم من الصعوبات التي تكتنف عملية الحصول على النصوص التي كانت موضوع هذه المراسلات، فقد أمكن حصر أربعة أنواع من نصوص المراسلات، منها النصوص ذات الأصل الأرمني والتي ترجمت ضمن كتاب (Ghevond) إلى اللغة الفرنسية وقام Arthur Jeffery بدراستها وترجمتها إلى الإنجليزية.

وفي هذه النصوص وجه عمر بن عبد العزيز إلى (ليو الثالث) عددًا من التساؤلات والاستفسارات حول المسيحية ومبادئها، في حين نجد أن رسالة ليو الثالث تضم الجواب والتفسير[1].

وهذه النصوص جميعها، تعطي- بدون أدنى شك- صورة للجدال العقائدي

(١) عز الدين جسوس، سياسة عمر بن عبد العزيز الخارجية وموقف حماة أهل الذمة، مجلة الاجتهاد، بيروت، العدد٢٧، ص ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٣١.

واللاهوتي بين المسيحية والإسلام، والأغلب على الظن- وهذا ما تشير إليه نتائج دراسة تواريخ كتابة هذه النصوص- أنها كتبت في فترة تدوين المعارف التاريخية في العالم الإسلامي، بل في أوج عملية التدوين والترجمة، لكنها على أي حال نوع من الجدال والحوار يدل على منهجية الحوار في الحضارة الإسلامية، كما يدل على وجود الحوار بين أصحاب القرار السياسي في الحضارتين الإسلامية والمسيحية[1].

* * *

وفي داخل الدولة الإسلامية عرف عمر بن عبد العزيز ﷺ بأسلوبه المتميز في حل المشكلات من خلال الحوار... فقد كتب ﷺ إلى الخوارج:

(من عبد الله عمر بن عبد العزيز أمير المؤمنين إلى هذه العصابة، أما بعد:

أوصيكم بتقوى الله، فإنه ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ۝٣ ﴾ [الطلاق] **أما بعد**... فقد بلغني كتابكم والذي كتبتم فيه إلى يحيى بن يحيى، وسليمان ابن داود، وقدوم صاحبيكم والذي أتى إليهما، وإن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ۝٢١ ﴾ [الأنعام]، وقال: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝١٢٥ ﴾ [النحل]، وقال: ﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ ۝٣٥ ﴾ [محمد].

وإني أدعوكم إلى الله، وإلى الإسلام، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ إن شاء الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، وأدعوكم أن تدعوا ما كانت تهراق عليه الدماء قبل يومكم هذا في غير قوة ولا تشنيع، وأذكركم بالله أن تُشبِّهوا علينا كتاب الله وسنة نبيه ونحن ندعوكم إليهما، هذه نصيحة منا نصحنا لكم

(١) عز الدين جسوس، مجلة الاجتهاد، بيروت، العدد ٢٨، ص٣٣.

فيها، فإن تقبلوها فذلك بُغيتنا، وإن تردّوها على من جاء بها فقديما ما استُغش الناصحون، ثم لم نر ذلك وضع شيئًا من حق الله، وقد قال العبد الصالح لقومه: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود:٣]، وقال عز وجل: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف].

* * *

حوار بين الخليفة المأمون ونصراني مرتد:

وقال الخليفة المأمون لمرتدٍّ إلى النصرانية: خَبِّرْنا عن الشيء الذي أَوْحَشَك من ديننا بعد أنسك به، واستيحاشِك مما كنت عليه؟

قال المرتدّ: أوحَشَني ما رأيتُ من كثرة الاختلاف فيكم.

قال المأمون: لنا اختلافان: أحدهما كالاختلاف في الأذان، والتكبير في الجنائز.. ووجوه القراءات، ووجوه الفتيا؛ وهذا ليس باختلاف، إنما هو تَخَيُّر وسعة وتخفيف، فمن أذَّن مَثنى وأقام مثنَى لم يخطِّيء من أذَّن مثنى وأقام فُرادَى، ولا يتعايرون بذلك ولا يتعايبون.

والاختلاف الآخر: كنحو اختلافنا في تأويل الآية من كتابنا، وتأويل الحديث مع اجتماعنا على أصل التنزيل، واتفاقنا على عَيْن الخبر.

فإن كان الذي أَوْحَشَك هذا حتى أنكَرْت، فقد ينبغي أن يكون اللفظ بجميع التوراة والإنجيل متفقًا على تنزيله، ولا يكون بين جميع اليهود والنصارى اختلاف في شيء من التأويلات، وينبغي لك ألا ترجع إلا إلى لغة لا اختلاف في تأويل ألفاظها، ولو شاء الله أن يُنزِّل كتبه، ويجعل كلام أنبيائه وورثة رسله لا يحتاج إلى تفسير لفعل.

قال المُرتدُّ: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن المسيح عبد الله، وأن محمدًا (رسول الله) صادقٌ، وأنك أمير المؤمنين حقًا.

* * *

حوار إسلامي مسيحي في بلاط السلطان العثماني:

ومما يذكره المؤرخون أن مطران سالونيك، (جيور جيوس بالاماس)، كان سليل عائلة نبيلة، نشأ في بلاط القسطنطينية إلى جانب أندرونيكوس (Andeonikos) الثالث؛ الذي قُيِّض له أن يصبح إمبراطورًا بعد ذلك، وكان – إضافة إلى ذلك – واحداً من ألمع اللاهوتيين البيزنطيين، وزعيماً لحركة هسيكاست (Hesychast) التي اعتمدتها الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية عقيدة رسمية لها[1].

وبينما كانت جحافل السلطان العثماني (أورخان) تحتل كاليبوليس (Kalipolis)، ألقى البحارة الأتراك القبض على بالاماس، وهو يبحر من جزيرة تينيدوس (Tenedos) إلى القسطنطينية، واقتيد إلى بيثينيا (Bithynia)، وقد مددت إقامته هناك بعد أن تبين للأتراك الهوية المميزة لسجينهم.

وقد تناهت بلاغة المطران بالاماس إلى السلطان (أورخان)؛ الذي بادر إلى عقد ندوة عامة في نيقية (Nicaea) حيث دعا عدداً من اليهود الذين اعتنقوا الإسلام لتمثيل الجانب الإسلامي في هذا اللقاء[2].

وبدا أن المناقشة ستجرى باليونانية، وهي اللغة التي كان يجيدها يهود نيقية، ويُرجح أن عدداً من المترجمين قد توافد إلى الندوة لمساعدة الأتراك على التقاط وقائع المساجلة.

وقد تناولت المناقشات مسائل جوهرية منها موسى والأنبياء، والبعث وصعود المسيح، وإحجام المسيحيين عن الاعتراف برسالة النبي محمد ﷺ، والختان، وبدا في تلك الندوة أن المسلمين كانوا مغتبطين مما سمعوا، وقد حيُّوا (بالاماس) باحترام كبير قبل أن تختتم المناقشات، وهذا يدل على احترامهم للحوار مهما تكن آراؤهم في الموضوعات، وفي المقابل أقدم أحد اليهود ممن اعتنقوا الإسلام على إهانة المطران وضربه، غير أنه اعتقل فوراً وجيء به إلى السلطان لتأديبه!!

---

(١) إليزابيث أ.ز خاريادر، مجلة الاجتهاد، بيروت، العدد ٢٨، ص ١٤٠-١٤١.

(٢) مجلة الاجتهاد، المرجع السابق، ص١٤٢-١٤٣.

وقد كانت مناقشات (بالاماس) اللاهوتية مع المسلمين معروفة تماماً لدى معاصريه؛ وفقاً لدلائل تشير إلى ذلك في كتابات كل من بطريق القسطنطينية فيلوتوس (Philotheos)، وعالم آخر يدعى نيكوفوروس غريفوراس[١].

وقد كان (غريفوراس) مناوئاً عنيداً لعقيدة الـ (هسيكاست) وبالتالي خصماً لبالاماس لا سبيل إلى تهدئته، وبناءً عليه فقد جاءت روايته التي ضمنها معلومات حول إقامة المطران في بيثينيا واضحة المقاصد، الغرض منها الإساءة إليه وإذلاله. وعلى الرغم من ذكر (غريفوراس) لوقائع الندوة الدينية العامة التي نظمها أورخان، فإنه يشير إلى أن هذه المساجلة لم يُقصد منها سوى إبراز (الفظاعة الجديدة) متمثلة في حركة (الهسيكاست)؛ وهكذا جاء الانتقاص لمكانة بالاماس ولعقيدته من غير المسلمين[٢].

وفي إحدى الليالي الباردة سنة ٧٩٤هـ/ ١٣٩١م، وبينما كان السلطان العثماني بايزيد جالساً في أنقرة بالقرب من المدفأة بصحبة أستاذ عراقي نابه مشهود له بالفضل وولديه الاثنين، أثيرت مناقشة حول بعض المسائل الدينية، ثم استؤنفت المناقشة في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، وفي هذه المناقشات الدينية كان مانويل الثاني باليولوغوس الإمبراطور البيزنطي ضيفاً على السلطان بايزيد ومشتركاً فيها، واستمرت على هذا المنوال حوالي عشرين يوماً متتالية.. وقد استعين بلفيف من المترجمين يتقنون العربية والفارسية اللتين كان يتحدث بهما بعض المتندين، وكان المسلمون في تلك الحلقة يتدخلون بطرح أسئلتهم؟ وأحياناً كثيرة كان السجال يتطور فيضفي على الحاضرين مناخاً حيويًا.

ومهما يكن الأمر فقد غطت هذه المناقشات موضوعات معترفاً بها حول اللاهوت، والتصور الإسلامي للجنة، وطبيعة النبات، والحيوانات والكائنات البشرية، والرسول ﷺ وعقائده، والأنبياء، وموسى، والروح القدس، وطبيعة الإيمان، والتصورات الإسلامية حيال الثالوث المقدس أو الشرك، إلى غير ذلك من موضوعات أخرى أثيرت في أجواء من المودة والصداقة.

---

(١) السابق، ص١٤٤.

(٢) إليزابيث أ. زخاريارد، مجلة الاجتهاد، ص ١٤٥.

وفي الوقت نفسه تقدم لنا هذه النماذج صورة التسامح الأخلاقي، والحوار الديني الإسلامي البيزنطي من قبل مستويات رفيعة دينيًا وسياسيًا[(١)].

* * *

الحوار والمناظرة في الأندلس:

وفي الأندلس شهدت قصور الأمويين، والعامريين (١٣٨-٤٢٢هـ/ ٧٥٥-١٠٣٠م)، وملوك الطوائف (٤٢٢-٤٧٩هـ/ ١٠٣٠-١٠٨٦م) ألواناً من المحاورات والمساجلات قامت بين شعراء وأدباء كابن العريف، وابن شهيد، والزبيدي، والقسطلي، والطبني، وأبي العلاء صاعد، وقد صارت قصصها ووقائعها مادة طيبة لحركة الفكر في الأندلس[(٢)].

وكانت هناك مساجلات أخرى هدفها الانتصار للرأي، ومقارعة الخصوم، سواء من خارج الدين الإسلامي أو من داخله، من أصحاب المذاهب الفقهية والكلامية الأخرى. ومساجلات أبي محمد بن حزم، وأبي الوليد الباجي من أشهر المساجلات التي تعكس هذا النوع من المبارزة الفكرية التي تعقد لها المجالس ويحضرها المثقفون من مؤيدين ومعارضين.

ولم يكن مجال هذه المناظرات التنافس والكسب فقط، كما أنها لم تكن لمجرد التسلية، وإنما كانت أسلوباً من أساليب امتحان القدرة الفكرية والفنية. والطريف من أخبار هذه الامتحانات هي تلك التي يقوم بها العلماء بعضهم لبعض في المجالس العلنية، ويترك الأمر لنتائج هذه الامتحانات لمنح الألقاب العلمية، وقد كان لبعض المناظرات أثر عظيم في تقرير مصير العلماء[(٣)].

---

(١) السابق، ص١٤٦-١٤٧ بتصرف.

(٢) د/ طه الحاجري، ابن حزم صورة أندلسية،، طبع ونشر: دار الفكر العربي، القاهرة، ص٥٣.

(٣) د/ وديعة طه النجم، مقال/ العلاقات بين العلماء، مجلة عالم الفكر، عدد١، مجلد إبريل سنة ١٩٧٠، ص٢٥٢،٢٥٧.

وشأن هذه المناظرات في الحياة العلمية القرطبية والأندلسية عامة شأنها شأن الرسائل العلمية في عصرنا، بل لقد كانت أبعد أثراً؛ لأنها شملت ذوي المكنة والتمرس في العلم، ولم يسلم منها كبار الشيوخ[1].

وكانت هذه المناظرات تقوم على أسس علمية رصينة، في أغلب الأحايين، يؤكد هذا ما قيل من أن متكلمين اجتمعا فقال أحدهما: هل لك في المناظرة؟ قال: على شرائط: ألا تغضب، ولا تعجب ولا تشغب، ولا تحكم، ولا تُقبل على غيري وأنا أكلمك، ولا تجعل الدعوى دليلاً، ولا تجوز لنفسك تأويل آية إلا جوزت لي تأويل مثلها، وعلى أن تؤثر التصادق، وتنقاد للتعارف، وعلى أن كلًّا منا يبني مناظرته على أن الحق ضالته، والرشد غايته[2].

الحوار الحضاري والديني في الحروب الصليبية:

لم تكن الحروب الصليبية- كما هو المتوقع- حرباً كلها، على امتداد كل الأيام أو الشهور؛ بل كانت تتخللها فترات سلم كثيرة، تمليها ضرورة الحياة والطبيعة الإنسانية؛ لحرب استمرت زهاء قرنين من الزمان...

وفي ضوء هذا، لا يبدو من المستغرب أن تزدهر العلاقات التجارية والثقافية بين الصليبيين الذين احتلوا الرها، وأنطاكية، وطرابلس، وبيت المقدس، واستوطنوها، وبين المسلمين في هذه الأيام التي يتقاتل الناس فيها حيناً، ويتبادلون التجارة والثقافة حيناً آخر؛ في عملية حوارية من أطرف العلاقات الجدلية في التاريخ.

وإذا كان (التتار)؛ الذين دمروا بغداد، وقضوا على الخلافة العباسية في العراق، قد خرجوا- وهم المنتصرون- مسلمين؛ بعد أن عمدوا- بفطرة غير مركبة – إلى التعرف الموضوعي على الإسلام.. فإن الأوروبيين الذين يحملون تراثاً مركباً، وفطرة دنيوية مصلحية بحتة (براجماتزم) قد خرجوا- وهم المنتصرون أولاً والمنهزمون أخيراً-

---

(١) السابق.

(٢) د/ وديعة طه النجم، العلاقات بين العلماء، ص٢٥٨، وانظر د/ أحمد شلبي، تاريخ التربية الإسلامية، القاهرة، دار النهضة المصرية، ص٨٥.

بإدراك حقيقة الإسلام؛ مع اتخاذ قرارهم بعدم الاقتراب الموضوعي منه، والعمد إلى تشويهه، والاكتفاء بنقل علومه وثقافته العامة، ونظمه، ونواحي تقدمه؛ وذلك خشية على أوروبا من الإسلام... وزادوا الطين بلة فكونوا كتائب من المستشرقين ثم المستغربين للحفاظ على التشويه؛ ولذلك فقد ظل الجهل والتحيز قروناً يحيطان بمعرفة بيزنطة والغرب بالإسلام وبالعالم الإسلامي؛ فالبيزنطيون الذين تصارعوا مع المسلمين لثلاثة قرون كان لديهم أدبهم الشعبي الذي يصور المسلمين يعبدون ثلاثين إلهاً أكبرهم (مهومد)، كما يذكر ذلك (ريتشارد سوذرن)؛ مستغرباً فظاعة الأساطير المنتشرة عن الإسلام في الغرب خلال القرن التاسع إلى الثاني عشر الميلادي. وعلى الرغم من التعايش عن قرب مع المسلمين لعدة قرون في أسبانيا، والحروب الصليبية، مما يفترض معرفة أفضل؛ فإن واقع الحال يذهب باتجاه مغاير[1].

ومن أدلة (الجهل المطبق) الذي كان عليه الصليبيون قبل أن يتعرفوا على المسلمين في الحروب الصليبية، ما هو معروف من الطبيعة الغوغائية لسلوكيات الحملات الصليبية الأولى؛ ليس ضد المسلمين وحدهم، بل ضد البيزنطيين أيضاً، ويضاف إلى ذلك أنهم عندما احتلوا مدينة (طرابلس- الشام) التي أصبحت إحدى مستعمراتهم- لم يترددوا في إتلاف مكتبتها العامرة بمائة ألف كتاب. ومع هذا فالزمن وما يحمله من احتكاك مباشر، وغير مباشر، والرغبة في معرفة العدو.. كل هذه الأمور ستدفع الصليبيين باتجاه التعرف أكثر على معالم المسلمين والاقتباس من المظاهر المختلفة للحضارة العربية الإسلامية التي ستفرض نفسها كحضارة أرقى على رجال الغرب[2].

❊ ❊ ❊

أجل، لقد حفزت الحروب الصليبية (الفرنجة) الهمج على التعلم من المسلمين، وقد اتسعت معرفتهم بما في العالم العربي من جغرافية بشرية، وتاريخ، وعلوم؛ مما خلق عندهم نهضة في دراسة القانون، والطب، والمنطق، وبدءوا بتكوين نقابات من

---

(١) شمس الدين الكيلاني، حقبة الحروب الصليبية، والوضع على طرفي المجابهة التاريخية- مجلة الاجتهاد، عدد ١٨، بيروت.

(٢) المرجع السابق.

المدرسين أسسوا عليها فكرة الجامعة. وهكذا نشأت الجامعات من جامعة باريس إلى أكسفورد، وكمبردج بدءاً من القرن الثاني عشر الميلادي.

كما اتسعت خبرة الصليبيين وثروتهم، ووقفوا على فنون الشرق وصناعته، وما فيها من رونق وفن ودقة. والراجح أن المستوى العام للمعيشة في الغرب- كما يشير إلى ذلك رنسيمان- لم يرتفع إلا بفضل رغبة العساكر والحجاج العائدين في أن يلجئوا في أوطانهم إلى محاكاة ما اشتهر به الشرق من مظاهر الحياة[1].

وأيضا- كما يعترف (رنسيمان)- سيصبح الأوروبيون- بفضل ما يأخذونه من المسلمين في الحروب الصليبية- قادرين على أن يميزوا بين السلوك، وأساليب الحياة الحضارية الإسلامية: (العلوم، والتقنيات، والذهنيات، والتفلسف العربي والإسلامي..) (وهذه يأخذونها وقد يعترفون أحياناً بفضلها وقد لا يعترفون في أحيان أخرى كثيرة!!).. لكنهم- كما يؤكد (رنسيمان) يظلون محافظين على جهلهم وعدائهم للإسلام وعقيدته (عقيدة التوحيد).. وهو ما يمثل ظلماً تاريخيًّا وأخلاقيًّا كبيراً.

ومع ذلك كله- يؤكد رنسيمان- على القيمة الحضارية للحوار أثناء فترة الحروب الصليبية مشيراً إلى أن هذه الفترة التي امتدت قرنين ونصف: (من أهم مراحل التاريخ المؤثرة في المدنية الغربية؛ إذ إن أوربا لم تكد تخرج من مرحلة غارات المتبربرين الجرمان الطويلة الأمد؛ التي يطلق عليها العصور المظلمة (العصور الوسطى)؛ حتى كانت -بفضل المسلمين- براعم ما نطلق عليه النهضة الأوربية تأخذ في الظهور)[2].

ونختم بالإشارة هنا إلى أن هذا التسامح والانفتاح من المسلمين جزء من دينهم؛ فهم دائماً يفتحون ذراعيهم للحوار، وتجاهل آلام الماضي؛ متغاضين عن الظلم الذي يعاملهم به الآخرون؛ تاركين الأمر لمحكمة الله العادلة.

---

(١) شمس الدين الكيلاني، حقبة الحروب الصليبية.

(٢) نقلاً عن المرجع السابق بتصرف.

اقتراحات في مجال الحوار المعاصر:

لعلنا بسطنا القول فيما يتعلق بالواقع الديني الأوروبي بالنسبة لنا نحن المسلمين، وعلى الطرف الآخر بسطنا القول في الطبيعة الحوارية الدينية الإسلامية من خلال التأصيل الإسلامي والتجربة الحضارية التاريخية.

ونحب أن نشير إلى أن احتمالات العنف والتسامح الفردية أو العابرة أو المحدودة واردة على الجانبين، لكننا هنا نتكلم عن الظواهر العامة التي تؤكدها تجربة التاريخ والتي لا تنفيها حالات الشذوذ... كما أن القواعد لا تعني عدم وجود حالات شاذة بصفة عامة.

ومع كل ما ذكرناه، ولأننا الطرف الأكثر فائدة من الحوار، لأننا أصحاب دعوة ورسالة ولأن ديننا في طبيعته دين حوار ورحمة للعالمين ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء] كما كان دين المسيح عليه السلام في أصله قبل أن تسقط على نصوصه الأهواء، مكتفية بما يشم منه رائحة السيف، وهي بعيدة جدًّا عن طبيعة المسيح عليه السلام الذي كان يأمر بإدارة الخد الأيسر لمن ضربك على خدك الأيمن.. وأيضا لأننا الطرف الذي لا تخدعه القوة، وهو لا يملك القوة المصحوبة بالاستعمار، والجنوح للإبادة والاحتلال، ومصادرة خصوصيات الآخرين باسم (العولمة) وثرواتهم باسم (الجات)...

لذلك- ولغيره- فإننا يجب أن نحاور في خطابنا الديني.. حتى ولو كنا- عبر قرون كثيرة- الأقوى والأعلم.. فهكذا أثبتت حضارتنا، تلك التي انطلقت من كتاب ربنا وسنة نبيه عليه السلام.. لقد أمرنا الله في كتابه الكريم ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾[النحل:١٢٥].. أما رسوله الكريم ﷺ.. فقد ذكرنا في الصفحات السابقة كثيرا من صور حواره مع اليهود والنصارى والوثنيين.. المسالمين والمحاربين.

وفي البداية نشير إلى أننا نحن المسلمين وحدنا الذين من حقهم ومن واجبهم- أن

يجددوا إطار خطابهم الديني منطلقين من الثوابت التي لا تتغير في دينهم، ومن المتغيرات التي تواجه التحديات في كل عصر، عن طريق باب الاجتهاد المفتوح دائما في ظل ضوابط الثوابت القرآنية والنبوية..

وليس من حق غيرنا- أمريكاناً أو يهوداً أو حكاما يسيرون في هذا الفلك أو ذاك- أن يجددوا لنا إطار خطابنا الديني.. وأن يخضعونا بالتالي لفكرهم العلماني أو لعقائدهم الدينية.. ولو وقع هذا- كما يراد لنا الآن- لفقد الحوار شرطه الأول الذي هو تعبير كل طرف عن فكره.. وتقديمه للآخر.. لا ليفرض عليه الإيمان به، فلا إكراه في الدين، ولكن ليتبين الرشد من الغي، بلا تدليس أو تأويل من مستشرقين أو مستغربين.

إن خطابنا الديني الأصيل نفسه هو الذي يفرض علينا أن نجتهد في مواجهة النوازل والوقائع وتغير العصور والأماكن بما يلائمها.. لكن ذلك كله يبقى في دائرة الثوابت والنصوص، وإلا فقد صفته الإسلامية.. فالإمام الشافعي في مذهبه القديم في العراق، وفي مذهبه الجديد في مصر، هو نفسه الإمام الشافعي الملتزم بالكتاب والسنة.. لم يحد عنهما قيد أنملة.

وقد تملي الظروف أن نخاطب- دعاة وعلماء- المثقفين بأسلوب يختلف عن خطابنا لغير المثقفين، أو أن نخاطب الأوروبيين بأسلوب يختلف عن خطابنا للهندوس في الهند.. أو أن نخاطب النساء أو الأطفال أو الحكام بغير ما نخاطب به غيرهم.. لكن هذا كله يجب ألا يحرف الكلم عن مواضعه، بل يجب أن يظل في دائرة الحكمة وفقه الدعوة والخطاب والبلاغ.. ومراعاة مقتضى الحال..

ولقد علمنا القرآن الكريم في أسباب نزول آياته ألوانا من هذه (الحكمة) في البلاغ، عبر مراحل نزوله المكية والمدنية، كما علمنا الرسول ﷺ أن الله يبعث لهذه الأمة في كل قرن من يجدد لها أمر دينها.. ومع ذلك، فنسيج القرآن- عبر سنوات نزوله المكية والمدنية- نسيج متكامل منسجم لا تناقض فيه.. قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾﴾ [الكهف].. كما أن تجديد الدين- في الإجماع

الإسلامي والملتزم بالإسلام- يجب أن يكون من داخل النصوص والثوابت، لا من داخل نسبية العقول، والإسقاطات الفكرية والمذهبية، أو التأويل المتعسف الذي يحرف الكلم، ويقرؤه كما يحب ويهوى، وليس حسب دلالات الكلمة أو الجملة في ضوء ضوابط المعاجم وإقرار أهل الاختصاص في المجامع العلمية أو الفقهية.

* * *

ضرورة الحوار الإسلامي

لقد درج الناس على ربط (الخطاب الديني والحوار) بالحوار مع غير المسلمين، ونسوا أن الحوار في داخل المجتمعات الإسلامية أهم، وهو من قواعد الانطلاق الناجح- في الحوار مع الخارج...

لقد آن أوان الوصول إلى القواسم الجامعة وشعب الإيمان المتفق عليها، بين كل العاملين في المجتمع الإسلامي تحت شعارات مختلفة، مثل: السلفية، والصوفية، والجماعات الإسلامية والحركات الإسلامية، وحركات الدعوة، والعلماء المتخصصين والدعاة المخلصين، سواء كانوا من أهل الاختصاص أو لم يكونوا.. ماداموا قادرين على البلاغ والانطلاق وفاقا لضوابط الكتاب والسنة، فالدعوة واجب إسلامي عام يؤدى عبر مستويات مختلفة، ومساحات مختلفة.. ولعل هؤلاء جميعا يلتزمون بالالتقاء على الكتاب والسنة الصحيحة، تاركين لأهل الذكر أمر الفتوى والاجتهاد، ملتزمين بالعمل المشترك في المتفق عليه والإعذار في المختلف فيه.. واضعين ميزانا لفكرهم وعملهم، وهذا ما قرره حجة الإسلام أبو حامد الغزالي في عباراته التي يرفض فيه الإفراط والتفريط ويجمع بين النقل والعقل..

قال أبو حامد[1]:

(إن أهل السنة قد اطلعوا على طريق الجمع بين مقتضيات الشرائع وموجبات

(١) الاقتصاد في الاعتقاد، القاهرة، مطبعة الحلبي، بدون تاريخ، ص٣.

العقول، وتحققوا أن لا معاندة بين الشرع المنقول والحق المعقول، فمن جمد على التقليد واتباع الظواهر ما جمد إلا من ضعف العقول وقلة البصائر، وأن من تغلغل من الفلاسفة وغلاة المعتزلة في تصرف العقل حتى صادموا قواطع الشرع ما أتوا به إلا من خبث الضمائر، فميل أولئك إلى التفريط، وميل هؤلاء إلى الإفراط، وكلاهما بعيد عن الحزم والاحتياط، بل الواجب المحتوم في قواعد الاعتقاد ملازمة الاقتصاد، والاعتماد على الصراط المستقيم، فكلا طرفي قصد الأمور ذميم وأنى يستتب الرشاد لمن يقنع بتقليد الأثر والخبر، وينكر مناهج البحث والنظر، أو لا يعلم أنه لا مستند لشرع إلا قول سيد البشر ﷺ، وبرهان العقل هو الذي عرف به صدقه فيما أخبر.

وكيف يهتدي للصواب من اقتفى محض العقل واقتصر، وما استضاء بنور الشرع ولا استبصر؟ هيهات، قد خاب على القطع والبتات، وتعثر بأذيال الضلالات من لم يجمع بتأليف الشرع والعقل هذا الشتات).

إن إصلاح البيت الإسلامي من داخله عن طريق الأمة- أولاً- والدول- إن استطاعت أو أرادت- ثانياً- هو المرحلة الأساسية لانطلاق دعوة الإسلام- فكراً وسلوكاً- فبدون (مؤاخاة) تقف فوق (الأخوة) وبدون (تكافل اجتماعي معنوي ومادي) وتأكيد عوامل الاتفاق وإخضاع مجالات الاختلاف للحلول المتدرجة اعتمادًا على العقل والوعي والثقافة والتطور- بدون هذا ستبقى الساحة الإسلامية حبيسة التنابز بالألقاب مكبلة بعدد من الانتماءات والشعارات التي خرجت من طور الوسيلة إلي طور الغاية، ومن الآلية القابلة للتغيير إلى الهدف والمقصد الشرعي الذي لا يقبل التغيير.. بل قد يتطور من كونه الفرع والنافلة إلى اعتباره الأصل والفريضة...

فإذا نجحت الأمة بصفوتها- في عبور هذه العقبة الكأداء، وانتشر الوعي بالحقيقة الإسلامية المتمثلة في القرآن الذي عاشه الرسول ﷺ على الأرض، وعايشه معه جيل خير أمة أخرجت للناس ففتحوا قلوب العالم بالإيمان وعقولهم بالمعرفة الكاملة النافعة.

إذا نجحنا في هذا نكون قد قطعنا شوطًا كبيراً في الطريق للحوار المتكافئ الندي مع غير المسلمين.. ويكون خطابنا الديني مؤهلا للحوار، ويقف على أرض صلبة...

فلديه حضارة الماضي التي هيمنت على العالم عشرة قرون كما يقول ول ديورانت في كتابه (قصة الحضارة)، ولديه واقع كريم ينطلق منه.. تتناغم فيه المعنويات والماديات والدنيويات والأخرويات ويعضد بعضها بعضاً.. صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة.

وفي خطابنا الديني المعاصر يجب أن نخاطب كل القيادات الدينية والاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية والتربوية والرياضية والأمنية والإعلامية.. ونظراً لأن الشعوب الغربية شعوب قارئة- وإن كانت تخضع للتضليلين: السياسي والإعلامي- فإن من الواجب الاهتمام بالحوار الثقافي معها- وهو في منظورنا حوار ديني ودنيوي- وبالتالي نقوم بإعداد تعريف عام بالإسلام يشرح القضايا التي يستفسر عنها الأوربيون عادة.. على أن يقوم بإعداده نخبة من المقيمين في أوروبا أو المترددين عليها، والمدركين لطبيعة الحياة الغربية، وإعداد دليل لبعض الألفاظ والمصطلحات، بعيداً عن حساسيات بعض المصطلحات التي يمكن أن تسيء إلى الحوار، ويا حبذا أن يكون رأي الإسلام والمسلمين الواعين الإسلام حاضراً في كل قضية تطفو على السطح، وفي كل مصطلح يراد تحريفه للإساءة إلى الإسلام مثل مصطلحات: الأصولية أو الإرهاب أو التطرف، ويجب توسيع دائرة إرسال النشرات والمجلات الصادرة باللغات الأوروبية عن المؤسسات الإسلامية إلى غير المسلمين بعد تمحيصها، وفتح المجالات لاستقبال الوفود التي تمثل المعاهد والمدارس والكنائس في مؤسساتنا الإسلامية في الشرق والغرب والتحاور معهم والرد على استفساراتهم، وإقامة ندوات للحوار بين رجال الكنيسة، وبين رجال المؤسسات الإسلامية بعد تزويد المدعوين بنشرات تشرح الإسلام شرحا موضوعيًا، ويمكن دعوة السياسين والبرلمانيين وسائر المسئولين في المناسبات وغير المناسبات للتعريف بالنشاطات وإقامة لون من التعارف والحوار[1].

وينبغي إبراز المشتركات بين الأديان، والأصول الواحدة لها، والأهداف المشتركة، والتعريف بفترات السلم والتعاون، ومناطق التفاعل الحضاري كأسبانيا، وجزر البحر

---

(١) صلاح الدين الجعفراوي، المرجع السابق (بتصرف).

الأبيض والحروب الصليبية، وما انبثق عنها في فترات التعايش السلمي من إيجابيات معرفية.

كما ينبغي الاتصال بإدارات المدارس والكليات والمؤسسات الثقافية، وعقد حوارات معهم وتعريفهم بحقائق الإسلام، وتصحيح المفاهيم المغلوطة عنه وعن أثره في الحضارة.

وهناك في الجوانب الاجتماعية مجالات يمكن طرحها، ومنها التعريف بحضارة إحدى الدول الإسلامية، ومناقشة مشكلات البلد الأوروبي الذي يعيش فيه المجتمعون...

وكل ذلك في إطار الود والعلاقات الكريمة، والمجاملة الإنسانية للغربيين في أفراحهم وأحزانهم حيث يفرض الإسلام حسن المعاملة مع المسلمين وغير المسلمين... ويا حبذا الوقوف معهم في الأزمات التي يمكن أن يمروا بها، وكما يرى الدكتور صلاح الجعفراوي [1] فإنه يمكن أن تكون هذه المجاملة في صور شتى منها: إرسال كروت تهنئة في المناسبات السارة، أو مواساة السلطة الحاكمة إذا توفي بعض أعضائها، أو تهنئة الأحزاب والأشخاص الفائزين في الانتخابات أو مواساة الجيران أو التفاعل الإيجابي مع أي مشكلة تلم بالمنطقة.

وفي الجانب الإعلامي ينبغي رصد ما يكتب في الصحف والمجلات، وتصحيح كل ما هو مخالف بأسلوب يتناسب مع العقلية الغربية، والمشاركة في البرامج الإذاعية والتلفازية المنصفة البعيدة عن الإثارة، شريطة أن يكون المتحدث المسلم مُلمًّا بمبادئ الإسلام وتعاليمه، مجيدا للغة القوم مطلعا على قضاياهم، حسن المظهر والأداء، مع حسن المجادلة والحوار، والتحلي بالهدوء التام.

ومن المفيد أيضا في المجال الإعلامي دعوة بعض الإعلاميين لزيارة الدول العربية والإسلامية ولقاء بعض قادة الفكر، وتوثيق العلاقة مع المنصفين من رجال الإعلام

---

(١) المرجع السابق.

الغربي، والتعاون مع بعض القنوات والإذاعات وتزويدهم ببرامج معدة سلفا من المسلمين عن الإسلام والمسلمين، وإنتاج برامج مشتركة معهم تحسن صورة الإسلام وتحسن تقديم حضارة المسلمين.. وتقدم تصورات للتعاون المستقبلي المشترك، مع بيان أهميته وضرورته، موضحة- في المقابل – أخطار هذا الصراع الديني أو الحضاري أو السياسي والعسكري على الأطراف المتصارعة وعلى الحضارة الإنسانية المعاصرة كلها...

إننا من خلال خطابنا الديني الأصيل والمعاصر، الجامع بين النقل والعقل، والوحي والعلم، والمصالح الإسلامية والإنسانية.. نستطيع- بالحوار- أن نخدم ديننا، ونخدم سفينة الإنسانية التي يدفعها الصدام الديني- الحضاري- إلى الموت والفناء.

❋ ❋ ❋

الوسطية والسلام الفكري

إشارات وإضاءات

* إن أي مجتمع في بدايته لا يكون قد شاد بعد (عالم أشيائه)، بل كل ما هنالك أن (عالم أفكاره) يبدأ في التكوين، دون أن يشتمل -أحيانًا- إلا على بوادر تفكير أيديولوجي.

* إن النشاط الاجتماعي والثقافي لفكرة ما مرتبط في الواقع ببعض الشروط النفسية الاجتماعية التي بدونها تفقد الفكرة فاعليتها.

* وإذاً ففاعلية الفكرة رهن بشروط نفسية واجتماعية؛ تتنوع بتنوع الزمان والمكان.

* من مظاهر الخلل الخلط بين صحة الأفكار وفاعليتها، فإن (فكرة أصيلة لا يعني ذلك فاعليتها الدائمة. وفكرة فعالة ليست بالضرورة صحيحة، والخلط بين هذين الوجهين يؤدي إلى أحكام خاطئة تلحق أشد الضرر في تاريخ الأمم).

مالك بن نبي

(مشكلة الثقافة – مشكلة الأفكار)

* * *

– لا أريد أن أقفز إلى (السلام الفكري العالمي) الذي تحققه الوسطية، على أساس أن هذا السلام إنما هو نتيجة طبيعية للمنهجية الوسطية، في عالم الفكر أو في عالم الحوار الفكري والثقافي العالمي القائم على الموضوعية الكاملة التي تعلمها لنا الآية القرآنية: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران:٦٤]، والآية الأخرى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ:٢٤].

– إن هذا (السلام الفكري العالمي) هو مرحلة تالية للسلام الفكري الذي يجب أن يتحقق في داخل الإنسان المسلم الفرد.. وفي داخل الأسرة المسلمة، التي تمثل الخلية الأساس التي يقوم عليها المجتمع، ومن ثم (السلام الفكري) الذي يجب أن يتحقق في داخل المجتمع الإسلامي.. والحضارة الإنسانية!

– إن (السلام الفكري) الذي ينبغي أن تبرز إشعاعاته وتجلياته عبر ثلاثية الفرد- رجلاً كان أو امرأة – والأسرة.. والمجتمع.. هو الطريق الأكثر فاعلية وجذبًا.. لتحقيق السلام الفكري العالمي..

– ولئن كانت الوسطية هي المنهجية المعتمدة في كل هذه المراحل، فإن الحصاد (السلام الفكري) سيكون إفراز طبيعيًّا لكل مرحلة سابقة.. وبالتالي يعمل عمله في المرحلة التالية، وتكتمل دوائر السلام في داخل الكيان الإنساني كله.

– في بداية الدعوة نزل الوحي على رسول الله ﷺ يأمره بتحقيق القراءتين المعرفية والكونية، حتى ولو كان أميًّا..فالتعامل مع المعرفة أو الثقافة والكون لا يقتضي بالضرورة الإلمام بالكتابة والقراءة بالمعنى الحرفي لهما..

– فكم تعامل فلاسفة في العصر اليوناني وأبدعوا – حتى وإن كانت لهم أخطاء- مع المعرفة والكون دون أن يمتهنوا القراءة والكتابة.

– وكم ظهر فلاسفة في الهند والصين ومصر، وكانوا عباقرة؛ مع أنهم لا يعرفون القراءة والكتابة..

- وتعويضًا عن القصور في المجال المعرفي التقليدي القائم على التراكم الكمي المعرفي- ركزوا على تراكم الكيف المعرفي من خلال التدبر العميق في الآيات الكونية.. وفي آيات الوحي التي من الممكن أن تكون قد وصلت إليهم..

- إن المنهجية الوسطية- في شتى مجالاتها- هي التي أضاءت الطريق لتحريك الإرادة الإنسانية في اتجاه المزج بنسب متوازنة بين عناصر الحضارة من عقل وعقيدة، ومادة (تراب)، ووقت، وبهذه المنهجية استطاع الإنسان امتلاك (رأسمال حضاري فطري)، وتقدم هذا الإنسان – من خلال عالمه الهادئ الفطري جدًا ومن خلال هذه الخمائر الأولية للحضارة- يشق طريقه نحو عالم الإبداع في عالم الجامعات والطائرات ووسائل الاتصال المختلفة.

- فالتناغم الفكري الذي يربط بين العقل والقلب والمادة والروح.. دون صراع- هو السبيل لميلاد (إنسان) يتميز بالعدل مع نفسه ومع كل القوى من حوله..

- وهو السبيل لميلاد (أسرة) تقوم على عنصري التكامل العادل، والتراحم النفسي والوجداني.

* وهو السبيل لميلاد (مجتمع) تنتظمه الوسطية في كل أموره ويحتكم إليها كل أعضائه، رجلاً كان أو امرأة، غنيًا أو فقيرًا، حاكما أو محكومًا.. قويًا أو ضعيفًا، شرقيًا أو غربيًا.. فكلهم راضٍ بما أراده الله له، متفاعل من خلال الموقع الذي وضعه الله فيه، وهو يتكامل مع الآخرين، ولا يصطدم بهم؛ لأن ميزان الوسطية العادلة يحكم الجميع.

* إن الوسطية تعني – في مجمل دلالاتها المعجمية والاصطلاحية – العدل والتوازن، والقصد، والاستقامة، وإنصاف الآخرين، والموضوعية، والخيرية القيمية والعقدية التشريعية...

ولهذا سميت الأمة الإسلامية الوسط ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [البقرة:١٤٣]. أي لتكونوا الأمة المعتدلة التي تعيد الناس إذا ما جنحوا وازدوجت معاييرهم إلى الصراط المستقيم.. صراط البُعد عند الإفراط

والتفريط والظلم، في حالتي الرضا والبغض، والسلم والحرب، والقوة والضعف... صراط إشباع جوانب المادة والعقل والروح، في نسيج واحد، وبنسب متوازنة... صراط التدرج والتكامل بين حقوق الإنسان الفرد، وحقوق الأسرة، والجيران، مسلمين وغير مسلمين، وحقوق الوطن-بكل شرائحه- وحقوق الأرحام.. وحقوق الله.. قبل كل ذلك، وفوق كل ذلك.

* * *

إن الوسطية – إلى جانب معانيها اللغوية والاصطلاحية الدالة على العدل والخيرية والتوسط والتوازن- تحقق وظيفيًا لكل إنسان (السلام الفكري والروحي) المستمد من ابتعاده عن النظرة الجانحة إلى الانحراف، إفراطًا وتفريطًا، والتي تريد –تحت ضغط الخوف من الله (التقوى) والمغالاة لدرجة الخروج عن شمولية الجوانب.. والاكتفاء بتكثيف جانب على حساب آخر.. وإهمال ما أتاحه الله من جوانب ضرورية لتعمير الكون وتحقيق الاستخلاف.

– وما نظن بهؤلاء النفر الثلاثة الذين تقالوا عبادتهم، فقرر أحدهم أن يصوم فلا يفطر، وقرر الثاني أن يقوم الليل ولا ينام، وقرر الثالث أن يحرّم النساء على نفسه.. ما نظن بهؤلاء إلا أنهم في قمة الإخلاص والتجرد والعبودية الكاملة لله.. لكن هؤلاء الثلاثة لو مشوا في الطريق الذي أرادوه سيكونون من أبعد الناس عن (الوسطية) الضابطة لإيقاعات النشاط الدنيوي والأخروي.. وسوف يجدون أنفسهم –بعد فترة وجيزة- قد فقدوا السلام الفكري الداخلي نتيجة اضطراب القوى والنزعات والإمكانات الداخلية.. فللجسم حاجاته من الغذاء والجنس والترويح والنوم.. وللمجتمع –كذلك- حاجاته، كما أن العمل والكدح في الأرض سنة من سنن الوجود، وكل ذلك يحتاج إلى جسد وعقل مؤهلين قادرين على تحقيق الفاعلية وشروط الاستخلاف..

– ولهذا عالجهم الرسول ﷺ (بالوسطية الإسلامية)، وبين لهم أنه –وهو أتقاهم لله وأخشاهم له – يصوم ويفطر ويقوم وينام ويتزوج النساء، وأن هذه (الوسطية

والتوازنية) من شأنها أن تحقق الصلات بالله إن توافرت لها كلها نية العبادة وحسن الغاية.

- وأن هذه الوسطية المحققة للسلام الفكري المنتظم لشتى شئون الحياة هي سنته وطريقته، ومن رغب عن سنته ﷺ فليس منه.. أي ليس مؤمنًا بسنة الرسول ﷺ وليس - بالتالي - على نهج القرآن والسنة الشريفة.

- ولنلاحظ هنا إشارة الرسول ﷺ الرائعة.. حين بين لهؤلاء النفر الثلاثة أنه مع ممارسته لكل جوانب العبادة والحياة- أتقاهم لله وأخشاهم له.. فكأن هذه الممارسة (الوسطية) هي المحققة للتقوى والانسجام الفكري والروحي.

- أما المنهج اللاوسطي.. القائم على رفض الحياة وإغفال حق الطاقات المختلفة الضرورية، وتكثيف العبادة على حساب الجوانب أخرى، فحسبه أن الرسول ﷺ رفضه، وأظهر شيئًا من الغضب عندما سمع به.. وأظهر خروجه عن منهجه للأمة كلها.. حتى تعلم الأمة طبيعة هذا الدين – وبالتالي - تعمل في إطار الوسطية العادلة.

* * *

السلام الفكري العالمي:

* فإذا انتقلنا من مستوى الفرد والأسرة والمجتمع الإسلامي.. إلى مستوى السلام الفكري العالمي الذي يؤصله الإسلام، من خلال التنظير الفكري (القرآن والسنة)، ومن خلال السلوك الإسلامي الوسطي مع العالم.. الذي يقوم على احترام فكر الآخرين وحريتهم العقدية والتعايش مع أفكارهم بعيدًا عن الإكراه أو التشويه والسب والقذف اللاأخلاقي (كما يفعل هؤلاء الرسامون والإعلاميون والفنانون في الغرب حين يسيئون إلى الرسول ﷺ والمسلمين في جميع الأرض).. قال تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ [البقرة:٢٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوَۢا بِغَيْرِ عِلْمٍۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام:١٠٨].

* ولقد سعى الإسلام إلى أن تقوم بين الناس (علاقات إنسانية) في السلم وفي

الحرب، والعلاقات الإنسانية أزكى وأشمل من العلاقات القانونية والدولية والرسمية؛ ذلك لأن الإسلام ينظر إلى الإنسان على أنه أخ للإنسان، وكل الناس مخاطبون في القرآن بعبارات تدل على هذه الشمولية؛ التي لا تفرق بين الناس من ناحية الأصل والحق الإنساني.. يقول الله في كتابه الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ [الحجرات]، ويقول: ﴿۞ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء:٧٠]، ويقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ٦﴾ [الانشقاق]، وعندما مرت جنازة يهودي على رسول الله ﷺ قام الرسول إجلالاً لهذه الجنازة، أي لهذا الإنسان الذي أنهى رحلة الدنيا وهو الآن يعبر إلى الآخرة ليلقى ربه بما كسبت يداه (فملاقيه)؛ فالرسول يستشعر عمق هذه اللحظة وروعتها، ويعرف ما وراءها، فهذا الإنسان المكرّم ليس حيوانًا يساق إلى مكان الذبح؛ بل هو إنسان كان له عقل وبصمات في هذه الحياة؛ إيجابية كانت أو سلبية، ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ١١٥﴾ [المؤمنون]، إن هذا الإنسان (الميت) اليهودي إنسان على أية حال وتربطه بالمجتمع علاقة إنسانية يجب أن تقدر في كل الأحوال.

وجدير بالذكر أن هذه العلاقة لا ترتبط بدين أو وطن أو قوم أو حياة أو موت؛ ولهذا جسد الرسول ﷺ هذه العلاقة؛ ليعطي للمسلمين وللإنسانية درسًا لايجوز أن يُنسى أو يُهمل؛ وعندما تساءل أحد الصحابة عن موقف الرسول ﷺ التكريمي لهذا اليهودي رد عليه الرسول ﷺ بعبارته الرائعة قائلاً: «**أليست نفسًا**»، فالنفس عضو من أعضاء الكيان الإنساني؛ بصرف النظر عن عضويتها القانونية أو الدولية.

لقد كان العدل - وما يزال - أساس العلاقات الإنسانية؛ (والعدل هو الوسطية)، أما الحرية والمساواة فيقومان في الإسلام على أساس العدل، وإلا فهما امتداد ظالم على حساب حقوق الآخرين، فحين تمتد الحرية الفردية لتلتهم حقوق الأفراد الآخرين؛ فإنها تتحول إلى ظلم وتصبح عبئًا على العلاقات الإنسانية، وكذلك حين يتساوى الخامل مع

العامل، والجاهل مع العالم، والضعيف مع القوي يختل الميزان، ويرتفع السفلة والأراذل على حساب المجدين والأذكياء، ويوسد الأمر إلى غير أهله وتختل موازين الحق والعدل، وتضيع معالم الوسطية الفكرية والروحية والأخلاقية بصفة عامة.

لقد كان من الضروري أن يكون لدى الوسطية الإسلامية مشروعها للسلام الفكري العالمي؛ وذلك لأن الإسلام دين عالمي بطبيعته، وتتمثل هذه الطبيعة العالمية في الإسلام القائم على العدل والرحمة في **ثلاثة جوانب أساسية وهي:**

أ- عالمية الزمان: فهو الدين الخاتم، الذي ليس بعده دين حتى آخر الزمان.

ب- عالمية المكان: فهو الدين الذي حطم الله به الحدود المكانية.

ج- عالمية معالجة القضايا المتصلة بالإنسان: علاجًا يتفق مع الطبيعة الإنسانية في مراحل حياتها المختلفة.

ومن جانب آخر ترتكز هذه العالمية الإسلامية على عدة مبادىء منها:

١- وحدة الأصل الإنساني.

٢- الهدف من تلك التجمعات البشرية.

أما المبدأ الأول: فقد ظهر في مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء:١].

وأما المبدأ الثاني: فيظهر في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحُجُرات:١٣]. فالتعارف وليس التدابر هدف أصيل يسعى القرآن الكريم إلى تأكيده بعد تأكيد وحدة الأصل البشري، وفي ظل هذين المبدأين يسقط من حساب الإسلام الصراع بكل مظاهره وأشكاله؛ ليتأكد معنى الوحدة الإنسانية العالمية كأظهر خصائص هذا الدين، وفي ضوء ذلك كله، ينتهي دور الأخلاقيات غير الإنسانية - من الصراع والعنصرية والأثرة وهضم حقوق الآخرين واحتقارهم[١].

---

(١) د. محمد عبد الستار نصار، بين الإسلام والغرب: صراع أم حوار، ص ١٨٨، ضمن أعمال ندوة الإسلام والغرب.. حوار أم صراع، جامعة القاهرة كلية دار العلوم، ٢٠٠٢م.

وقد زعم بعض الجاهلين أن الإسلام ينكر الديمقراطية ويتخذ منها موقف الخصومة والعداء، ولا يبالي بحقوق الإنسان ولا يعمل على دعمها وتأكيدها.. والحق أن الإسلام لا يعادي إلا التجاوز لحرمات الله وثوابت الدين، وكل ما لايتجاوز هذا النطاق، فهو طيب مباح، أو واجب.

والإسلام في الحقيقة أول من نادى بحقوق الإنسان وشدد على ضرورة حمايتها واحترامها، فمقاصد الشريعة الإسلامية تتمثل في حماية حياة الإنسان ودينه وعقله وماله وأسرته وعرضه وأمنه.

كما أكد الإسلام مبدأين أساسيين لحقوق الإنسان وهما الحرية والمساواة.. في إطار العدل والشرع.

- والإنسان في المنظور الإسلامي -كل إنسان- مخلوق كرَّمه الله وأسجد له ملائكته واتخذه خليفة في الأرض ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء:٧٠].

- والحكم في الإسلام لابد أن يقوم على أساس من العدل والشورى. والشورى مبدأ أساسي ملزم، وكان النبي ﷺ يستشير أصحابه ويأخذ برأيهم...

- وأتاح الإسلام الفرصة لتعدد الآراء، وأباح الاجتهاد وشجع عليه، حين جعل للمجتهد المخطىء أجرًا، وللمجتهد المصيب أجرين، ما دام المجتهد مستوفيًا شروط الاجتهاد.

* * *

وحتى في الحروب وهي كره للمسلمين ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦].

تتمثل أسبابها في الدفاع عن النفس، وفي رد العدوان: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾ [الحج:٣٩].

بالإضافة إلى تأمين الدعوة إلى الله، وإتاحة الفرصة للضعفاء الذين يريدون اعتناقها وللناس جميعًا لكي يعرفوها، ومن ثم يقررون رفضها أو قبولها بعد أن يعرفوها من مصادرها الحقيقية.

ومن دوافع الحروب المشروعة المطالبة بالحقوق المسلوبة والمغتصبة، كما في فلسطين، والعراق، وأفغانستان، وأيضًا نصرة الحق والعدل في أي مكان في العالم.

لكن هذه الحروب تخضع في الإسلام لضوابط تتجلى فيها الوسطية العادلة، حتى في أشد ساعات الحياة وفي صورتها الاستثنائية الشاذة وهي الحروب.. ومن هذه الضوابط التي وضعها الإسلام عدم الاعتداء على المدنيين من شيوخ وأطفال ونساء وعبَّاد في دور عبادتهم، فلا قتال إلا للمقاتلين، ولا عدوان على غير المقاتلين شريطة ألا يساعدوا المعتدين بصورة مباشرة أو غير مباشرة، وإذا جنحوا للسلم وانتهوا عن القتال فيقبل منهم، بالإضافة إلى المحافظة على الأسرى ومعاملتهم المعاملة الحسنة التي تليق بالإنسان، وكذلك المحافظة على البيئة، فينهى عن قتل الحيوان إلا أن يشارك في القتال، وتحريق الأشجار، وإفساد المياه والزرع والثمار، وتلويث والآبار، أو هدم البيوت أو اغتصاب النساء..!!

**** القرآن والسلام الفكري:**

نزل القرآن على نبي أمّي، وعلى أمة أُميّة، لكن هؤلاء الأميين كانوا يجلسون بين يدي رسول الله ﷺ ليزكيهم بالفكر الذي يحقق لهم الرقيّ الوجداني والعقلي، ويعطيهم مفاتيح بناء الحياة على السلام مع النفس والآخرين، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ [البقرة:٢٠٨].

وكان صحابة رسول الله ﷺ – وهم أميون – يجلسون بين يديه وكأن على رءوسهم الطير، وكان رسول الله ﷺ من جانبه يتخولهم بالموعظة، ويغذيهم وينميهم ويطهرهم ويزكيهم بالمنهج الرباني الذي يتنزل عليه من السماء، يقوم هو بتفسيره وتعليمه ليكون منهج صلاح وسلام للإنسان من داخله ومن خارجه.

ومن خلال دروس القرآن التي ينقلها النبيّ ويشرحُها للناس حقّق للأميين رقيًا فكريًا أصبحوا به خير أمة أخرجت للناس وخير سفراء للقرآن ولرسول الله ﷺ في أي مكان حلّوا فيه، وفي أي ابتلاءات أحاطت بهم.

وبهذا التربية القرآنية النبوية، تحقق لهم سلام فكري جعلهم دائمًا يشعرون بالمسئولية، يجتهدون للوصول إلى درجة الإحسان وهي أعلى مراتب الصفاء الفكري والطهارة السلوكية حين تُمارس العمل والعبادة على أساس أن الله يراك ويُراقبك في كل حركة وكلمة وفعل...

وقد انتصر هذا الفكر المرتبط بالروح والإيمان والمحرك لكل الفعالية الإنسانية على عالم المحسوس والقيم المادية، فأصبح أبو بكر الصديق ﵁ بفضل هذه التربية الروحية الفكرية قادرًا على أن يتبرع بكل ماله، وأصبح (عمر) ﵁ قادرًا على أن يتبرع بنصف ماله، وأصبح (عثمان) ﵁ قادرًا على أن يتنازل عن كل قافلته التجارية لوجه الله، مع أن تُجّار المدينة ساوموه على أن يعطوه ربحًا عظيمًا، وأصبح الأنصار قادرين على تقديم أعظم نموذج إيماني عرفه التاريخ، حين خلطوا إخوانهم المهاجرين بهم، وقاسموهم أموالهم، وكان هذا بدافع الحبّ والإيمان والتربية الأخلاقية النبوية بعيداً عن أية شوائب مصلحية... قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر].

ويضرب العلامة الجزائري مالك بن نبي – مثلاً – على تألق الروح والفكر فوق كل مستويات الواقع المادي المحسوس... وذلك في شخص بلال بن رباح.

فعندما يتحرر الفرد جزئيًا من قانون الطبيعة المفطورة في جسده، ويخضع وجوده في كليته إلى المقتضيات الروحية التى طبعتها الفكرة الدينية في نفسه، فإنه يمارس حياته في هذه الحالة الجديدة حسب قانون الروح...

وهذا القانون نفسه هو الذي كان يحكم بلالاً حينما كان تحت سوط العذاب يرفع سبابته ولا يفتر عن تكرار قولته المعروفة (أحد!... أحد!...) إذْ من الواضح أن هذه القولة لا تمثل صيحة الغريزة، فصوتُ الغريزة قد صَمَتَ، ولكنه لا يمكن أن يكون قد ألغي بواسطة التعذيب، كما أنها لا تمثل صوت العقل أيضًا؛ فالألم لا يتعقل الأشياء[1].

---

(١) مالك بن نبي: شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين، بيروت، ص ٦٧، ٦٨.

إنها صيحة الروح التي تحررت من إسار الغرائز بعد ما تمت سيطرة العقيدة عليها نهائيًا في ذاتية (بلال بن رباح)... وصيحة الروح هذه إنما تألقت وتفوقت بتأثير الفكر الذي غرسته التربية النبوية القرآنية فيها... ولهذا تساوت الروح مع الكلمة، وورد في بعض الكتب المقدسة أنه في البدء كانت الكلمة... كما ورد أنه في البدء كانت الروح!!

وقد كان المجتمع الإسلامي يحكمه هذا التغيّر نفسه. فقد كان شأنه شأن (بلال)... لا يتحدث بلغة غريزة اللحم والدم من ناحية، كما أن صوت العقل - بمعادلاته الجامدة - كان لا يزال صامتًا في هذا المجتمع الوليد من ناحية أخرى.

فاللغة السائدة في هذا العصر كانت روحية المنطق، إذ هي بنت الروح - أولاً - وقبل كل شيء. وأيضًا بنت الفكر المستقى مباشرة من فم النبي العظيم ﷺ... ناقل القرآن ومفسرة.. إنها الروح في صوت بلال كانت هي التي تتكلم، وتتحدى بلغتها الدم واللحم، كما أن ذلك الصحابي - بلالاً - كان يتحدى بسبابته المرفوعة، وهو يقول:(أحد... أحد) الطبيعة البشرية، ويرفع بها في لحظة معينة، مصير الدين الجديد.

كما أنها هي نفسها التي كانت تتحدث بصوت تلك (المرأة الزانية) (الغامدية)[1] التي أقبلت إلى (الرسول) لتعلن عن خطيئتها وتطلب إقامة حد الزنى عليها بإصرار لا حدود له...

فهذه الوقائع جميعها تخرج عن معايير الطبيعة المادية والغرائزية... وتخضع لموازين الروح والكلمة وحدها.

❋ ❋ ❋

**** القرآن والوسطية واستمرارية السلام الفكري:**

لم ينشئ القرآن جيل الصحابة الذي رباه الرسول ﷺ وحسب، بل امتدت أشعته، وما يقدمه من إضاءات فكرية فاعلية في التاريخ، وإلى يومنا هذا، وإلى يوم القيامة..

---

(١) مالك بن نبي، شروط النهضة ص ٦٨.

فهو – كما وصفه أحد المستشرقين – مازال غضًا طريًا كأن عهده بالوجود أمس... فالقرآن بإضاءاته وإشعاعاته...هو هو لم يأته الباطل قط، ولم يعمل فيه البشر، حتى ولو تآمر بعض البشر عليه، وحاولوا تحريفه، كما حاولت كثير من الترجمات (لمعانيه) إلى اللغات المختلفة، بتأثير الضغط الكنسيّ، ولكن كل ذلك ذهب كما ذهب كل زبد، وكل زيف، وبقي القرآن الذي تعهد الله بحفظه... كما هو ناطقًا بالحق، حجةً على البشرية، مهيمنًا على ما سبقه من كتب نُسبت إلى الله، وأكثر صفحاتها تحشد بما لا يليق بجلال الله وعظمته ووحدانيته، وربما لا يليق بعصمة الأنبياء وكرامتهم الإنسانية، وبمنزلة الاصطفاء... لكن المشكلة عبر العصور – جاءت من المتلقي، الذي تغير قلبه، واختلط – بكثير من الشوائب – وجدانه وعقله، ولم يعد هو الإنسان الصحابي أو التابعي... بل غيَّر وبدَّل، وحاول التلفيق، فضاع سلامه الفكري الداخلي، واختلت موازينه في التعامل الخارجي، وفقد إشعاع القرآن والعبادات، وانضباط عالم المعاملات ولم يعد (وسطيًا) ينتمي إلى أمة الوسطية الشهيدة على الناس الآمرة – بالفعل والقول – بالمعروف، والناهية – بالفعل والقول – عن المنكر... والمؤمنة بالله إيمانًا مطلقًا واثقًا لا يتزعزع ولا يهن أو يخور أمام جبابرة العالم وطغاته ومنحرفي العقل باسم العقلانية.

* * *

إن القرآن قادر – لو فتح الناس قلوبهم له كما فتحها الصحابة والتابعون – في كل وقت على إخراج أجيال قريبة من الأجيال السابقة، ذلك أن القرآن لا يعطي مدلوله الحقيقي ولا ينتج كنوزه ويكشف أسراره ويقدم ثماره إلا للمتلقي النقي التقي صاحب القلب المفتوح والعقل الصادق الراغب رغبة حقيقية في تعلمه والاستفادة منه والعمل بمقتضاه، وقد ورد عن بعض الصحابة ﷺ قوله: (كنا نؤتي الإيمان قبل أن نؤتى القرآن)، ولذلك كانوا يتذوقون القرآن ويتفاعلون معه، ويدركون معانيه وأهدافه، ويصوغون به ذلك التاريخ المجيد الذي صنعوه في أقصر وقت وبأقل التكاليف ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:١٨٨] .

ولنلاحظ هنا الجمع بين النذير والبشير، أي: الوسطية في الترهيب والترغيب.

وكما أحسن الصحابة فقه كتاب الله، علينا أن نحسن نحن أيضًا هذا الفقه، ونعمل بتوجيهاته كما عمل الصحابة... فحين عرَّف القرآن الصحابة أن الله سميع بصير وأنه ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [المجادلة:٧] ، ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ [سبأ:٢]، وأن ﴿ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ [المدثر] ، قويت مراقبتهم لأعمالهم ومحاسبتهم لأنفسهم، بفضل ما حصل لهم من اليقين بأن الله تعالى يراهم ويحاسبهم على أعمالهم.

وحين علموا أن الله ﴿ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [المؤمنون:٨٨] ، وأنه ﴿ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الزمر:٦٣] ؛ مات في نفوسهم التطلع لغيره تعالى، وقوي عندهم التطلع إلى الله، والتوكل عليه وانتظار الفرج منه، وعدم خشية الجبابرة و الطغاة، وتربوا على مواجهة الضراء بالصبر، والسراء بالشكر.

وحين علموا أن الله سبحانه ﴿ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات:٥٨]، وأنه ﴿ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ [الرعد:٢٦] ، وأنه ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ [فاطر:٢] ، أيقنوا بأن الرزق من الله؛ فلم يعد أمره يقلقهم ولا يشغلهم، فلم تذلّ قلوبهم لبشر من البشر، ولم ينكس رءوسهم الطمع ولا البخل.

وحين علموا أن الله هو الذي يحيي ويميت، وهو الذي يملك أمر الدنيا والآخرة، تعلقت قلوبهم بالله في السر والعلن، وتحررت نفوسهم من الخوف والجبن، وأصبح ذكر الله سبحانه حيًا في قلوبهم.

وحين علموا أن الله يثيب على الحسنة بعشر أمثالها وقد يزيد، ويعاقب على السيئة بمثلها وقد يعفو، وأنه تعالى أعد الجنة للمؤمنين، وفيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وأعد النار للكافرين، وفيها من العذاب ما تهون أمامه جميع شدائد الدنيا، تخلصوا من شهوات المال والجنس وظلم الآخرين والاستعلاء عليهم، واستعلوا على شهوة الغمز والتجريح، وشهادة الزور وحب الانتقام والتشفي،

وتحرروا من الشح والخوف، والاستسلام لعواطف القرابة أو الصداقة أو الجوار [1]، أو الجوانب المؤثرة الأخرى.

لقد كان الصحابة ﵁، يحرصون على اتباع الرسول ﷺ وتمثل أخلاقه والتأسي به في عبادته لله ومعاملته للناس، لعلمهم أن ذلك هو شرط رجاء الله واليوم الآخر ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب]، ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [النور]. ولعلمهم بأن الفعل هو الثمرة المقصودة بالقول، والأقوال والنصوص اللفظية في حقيقة أمرها أدوات لتبليغ أمر الله ونهيه، فإذا لم يتبعها صاحبها بالعمل والتطبيق وقع في دائرة المقت ولامس قلبه والعياذ بالله النفاق ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الصف]. وفي الحديث: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان**»[2].

لقد كان كل واحد من الصحابة يرى أنه مؤتمن على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ في العمل بها والتبليغ لها وحراستها من محاولات تحريف الغالين، وزيغ المبطلين، وعبث المبتدعة والمفسدين، وتعطيل الظلمة والمستبدين، فكل واحد كان حارسًا على الإسلام مبلغا له مدافعًا عنه بماله ونفسه ورأيه، وبكل ما آتاه الله تعالى من قوة لا يؤتى الإسلام من قبله [3].

لقد كان كل واحد منهم ﵃ كما يقول الشيخ البشير الإبراهيمي: (يقظ الضمير، متأجج الشعور، مضبوط الأنفاس، دقيق الوزن، مرهف الحس، متتبعًا لما يأتي الناس وما يذرون من قول أو عمل، سريع الاستجابة للحق إذا دعا داعيه، وإلى نجدته إذا ريع سربه، أو طرق بالسر حماه)..

---

(١) انظر بتصرف: الشيخ عبد الله جاب الله، المنهج السلمي في التغيير الاجتماعي، دار المعرفة، الجزائر، ص ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦.

(٢) متفق عليه، عن أبي هريرة ﵁.

(٣) انظر بتصرف: الشيخ عبد الله جاب الله، المنهج السلمي.

(كانوا يأخذون أنفسهم بالفزع لحرب الباطل لأول ما تنجم ناجمته، فلا يهدأ لهم خاطر حتى يوسعوه إبطالاً ومحوا، ولا يسكتون عليه حتى يستشري شرُّه ويستفحل أمره فتستغلظ جذوره ويتبوأ من نفوس العامة مكانًا مطمئنًا)..

(وكانوا يذكرون دائمًا عهد الله، وأنه أخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق، وأن الحق هو ما جاء به محمد عن ربه لهداية البشر وصلاح حالهم)..

(وكانوا يزنون أنفسهم دائمًا بميزان الكتاب والسنة، فما وجدوه من زيغ أو عوج قوموه في الحال بالرجوع والإنابة، كما يفعل المفتونون بالجسمانيات في عصرنا هذا في وزن أبدانهم كل شهر) [1].

ولتأكيد منهج الوسطية في تحقيق السلام الفكري، أقام الإسلام شرائعه على التدرج والبدء بالأهم فالمهم، والابتعاد عن مسائل الخلاف والأخذ بالتيسير وانتهاج التبشير والترغيب؛ قال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج:٧٨]، ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ [البقرة:٢٦٥].

وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا**» [2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة** [آخر الليل]» [3].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بال أعرابي في المسجد فقام الناس إليه ليقعوا فيه، فقال النبي ﷺ: «**دعوه وأريقوا على بوله سَجْلاً من ماء أو ذنوبًا من ماء، فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين**» [4].

وعن عائشة -رضي الله عنها- قالت: «ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما، فإن كان إثما كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه في شيء قط، إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله تعالى» [5].

---

(١) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي: ٤/ ١١١.

(٢) رواه الشيخان.

(٣) رواه البخاري.

(٤) رواه البخاري.

(٥) رواه البخاري.

لقد أكرم الله سبحانه صحابة رسول الله إكرامًا ليس له مثيل، لاتباعهم منهج رسول الله ﷺ في العدل والرحمة والأخذ بأسباب القوة، فجعلهم نجوما بأيها اقتدينا اهتدينا، وأكرم البشرية فنقلوا لها الإسلام كما أنزله على محمد ﷺ وحكموه فيها وأقاموا حياتهم على هداه، فعم نوره أرجاء الأرض وأضاء دربها ومسالكها المختلفة، وأنار جوانب النفس البشرية بالعقيدة والعبادات الصحيحة والآداب الرفيعة والخلق القويم، ولجم شهواتها وقيد هواها بالأوامر والنواهي الربانية التي لا خيار معها ولا مراجعة فيها، فانتقلت البشرية التي دانت به من الجهل إلى العلم، ومن الضلالة إلى الهدى، ومن الخوف إلى الأمن، ومن الفوضى إلى النظام، ومن التباغض إلى التحاب، ومن التنابذ إلى التآخي، ومن التنافر إلى التعارف، ومن الاضطراب إلى الاستقرار، ومن الاستبداد إلى العدل.

لقد قاد الإسلام العالم الإسلامي الذي آمن به، وخضع لأحكامه، إلى السعادة والخير بأصلين كبيرين هما (القوة المصحوبة بالرحمة)، ووسيلتين كبيرتين من وسائله في إرساء النظام والأمن والاستقرار وهما (العدل المتبوع بالإحسان) وبأحكامه الهادية للتي هي أقوم في عمارة الأرض وبناء الدولة وإصلاح المجتمع وتربية الأفراد [١].

إن القوة وحدها لا خير فيها؛ لأنها استبداد واستغلال واستعباد وقهر، والرحمة وحدها لا خير فيها؛ لأنها ضعف وخور وهوان، والعدل وحده لا يكفي؛ لأنه قد يفضي إلى الجفاء، والإحسان وحده لا خير فيه؛ لأنه قد يفضي إلى الاستهتار ويشجع على التمرد، أما إذا اجتمعت القوة والرحمة، وتكامل العدل والإحسان، فإن الخير يعم والحقوق تحفظ، والتكامل يتحقق بين شرائح الأمة ونخبها المختلفة، وصولاً إلى التقدم والترقي والكمال الذي تستطيعه الطبيعة البشرية.

* * *

**** الأخلاق الوسطية... والسلام الفكري:**

كان الرسول ﷺ، يدعو المسلمين إلى التفاؤل، انطلاقًا من تحريم القرآن لليأس تطبيقًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧].

---

(١) انظر – بتصرف – الشيخ عبد الله جاب الله، المنهج السلمي.

وعندما رأى رجلاً مهمومًا يجلس في المسجد وعرف أن عليه دينًا يؤرقه، فتح له مفاتيح الأمل.. حين نصحه بأن يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، ومن العجز والكسل ومن الجبن والبخل ومن غلبة الدين وقهر الرجال**».

ولا شك أن أكبر طارد للهمِّ، وأكبر عامل في تحقيق الانسجام الروحي والفكري.. هو الرضا بقضاء الله وقدره مع الأخذ بسنن الله في التغيير...

لا شك أن أكبر عامل لتحقيق هذا الهدف النفسيّ والأخلاقي، هو التوسط والتوازن في التعامل مع الخير والشر، والسّراء والضراء، والصديق والعدو، والمسلم وغير المسلم.. وفي هذا الإطار نجد بين أيدينا فيلسوفًا مسلمًا مثل أبي محمد علي بن سعيد بن حزم (ت/ ٤٥٦هـ) يرى أن الحياة الاجتماعية تدور حول هدف واحد يراه غاية النشاط الإنساني كله، فكريًا أو سلوكيًا، وهو هدف (طرد الهم)، وهو – كما يقول ابن حزم – غرض يستوي الناس كلهم في استحسانه وطلبه، ولا يتحركون حركة بل ولا يتكلمون كلمة إلا من أجله. فمن مخطئ وجه سبيله ومن مقارب للخطأ، ومن مصيب[(١)]، وهو (هدف قد اتفقت الأمور كلها عليه.. وكل الأهداف الأخرى لا تحظى بمثل الإجماع المعقود عليه، إذْ في الناس من لا دين له.. ومن لا يستحسن أذى الناس.. ومن يريد الخمول على الصيت والشهرة ومن لا يريد المال.. ومن يبغض اللذات.. ويؤثر الجهل على العلم، وليس في العالم كله من يستحسن الهم ولا يريد طرحه)[(٢)]. (وليس من سبيل لطرد (الهم) إلا التوجه إلى الله عز وجل بالعمل للآخرة)[(٣)].

ويكاد ابن حزم يشير إلى دور (الوسطية) في طرد الهموم والمؤرقات والصراعات الفكرية الداخلية، حين يرى أهمية الجمع بين (اللّذات المعنوية والحسية).. لكنَّ (ابن حزم) يفضل (اللّذات المعنوية) على اللّذات الجسمية، معتمدًا على مقياس مقْنع وهو أن الذين يلجئون إلى اللّذات الروحية، يفضلونها على اللّذات المادية وهم قد ذاقوا من

---

(١) ابن حزم الأندلسي: رسالة في مداواة النفوس ص ١١٦، من رسائل ابن حزم، بتحقيق إحسان عباس – مكتبة الخانجي بمصر والمثنى ببغداد.

(٢) ابن حزم الأندلسي، المصدر السابق، ص ١١٧.

(٣) ابن حزم الأندلسي، المصدر السابق، ص ١١٨، ١١٩.

اللّذات المادية وعرفوا... وقارنوا، وفضَّلوا اللّذات المعنوية، أما أصحاب اللّذات المادّية فلم يجرّبُوا اللذات الروحية، فالأولون أصدق حكمًا"[1].

ويرى ابن حزم أن هناك مرضين لهما خطورة كبيرة على السلام الفكري في مستوى الفرد والمجتمع، وهذان المرضان هما العُجب والكذب.

ويرفض ابن حزم العُجْب (الكبر) في كل حال، فسواء كان مصدره (الفضل)[2] أو (الفعل)[3] أو (الشجاعة) أو (الجاه) أو (المال)[4] أو (الحسن) أو (النسب)، فكل ذلك يدل على نقص، وهو مرض يحتاج إلى علاج، وهذا المرض يتفرع عنه التّيه والزهو والكبر والتعالي[5] ورفض فكر الآخرين ابتداءً من باب التضخم الذاتي والاستعلاء الفكري.

أما الكذب – فهو الداء الذي لا برء منه عند ابن حزم – فما رؤي كذاب قط ترك الكذب ولم يعد إليه، وهو أصل كل فاحشة وجامع كل سوء، وجالبٌ لمقت الله عزَّ وجل[6]، وهل الكفر إلا كذب على الله عز وجل[7]، أي أن الكفر جزء من الكذب.

وفي إطار اهتمام الوسطية الإسلامية بالأخلاق كطريق لتحقيق السلام الفكري الفردي والجماعي، شرع الإسلام للحاجات المادية، وأعطاها حقها من الوجود والفعالية والتكريم، ولم يركز على الروحانيات وحدها، على أساس أن الحاجات الأولى لا تشبع العلاقات الإنسانية وحدها، والثانية وحدها لا تصلح كذلك للحياة تعميرًا أو تنمية، ومن هنا ربط الإسلام ربطًا عجيبًا متناسقًا بين الروح والمتطلبات المادية، وتميزت وسطيته في بنائه للسلام الفكري داخل الكيان الإنساني من خلال آليات تغرس في الإنسان القيم الإيجابية مثل قيم الحق والعدل والصدق والتواضع،

---

(١) ابن حزم، المصدر السابق، ص ١١٦.
(٢) ابن حزم، المصدر السابق، ص ١٥٠.
(٣) ابن حزم، المصدر السابق، ص ١٥١.
(٤) ابن حزم، المصدر السابق، ص ١٥٣.
(٥) المصدر السابق، ص ١٥٨.
(٦) ابن حزم، طوق الحمامة تحقيق الطاهر مكي، ص ٨٥.
(٧) طوق الحمامة، ص ٨٦، ٨٧.

وحب الآخرين والرحمة وتدرُّبه على أن يكون كائنًا أخلاقيًا على نهج الرسول محمد ﷺ الذي حصر إرسال الله له في أنه بُعث ليتم – بعد غرس عقيدة التوحيد – مكارم الأخلاق [(١)]، في حين حصر الله رسالة نبيه ﷺ في أنه أرسله رحمة عامة ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء].

لقد كان الرسول ﷺ آية في الرفق والرحمة بالخدم وبالضعفاء؛ يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خُلُقًا» متفق عليه. وعنه رضي الله عنه قال: «ما مَسَسْتُ ديباجًا ولا حريرًا ألين من كفِّ رسول الله ﷺ، ولقد خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي قطُّ: أفٍّ. ولا قال لشيء فعلته: لِمَ فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلت كذا؟» متفق عليه. أيُّ أخلاق هذه وأي سمو هذا؟ إنه الكمال البشري في أبهى صوره وأشكاله، وكم كان الإسلام عظيمًا ونبيه صلوات الله وسلامه عليه يخالف الأعراف القائمة وقتها بقوله: «**إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده: فليطعمه مما يطعم، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم**» رواه مسلم.

وهذا السلوك النبوي دَرْسٌ لأدعياء الرحمة الكذابين الذين يرفعون الشعارات الجوفاء، ويمارسون أقسى وأعنف الجرائم في حق كل من يقع تحت أيديهم من الشعوب ومن الأفراد، فتحت ذريعة تحرير البلاد والعباد وترسيخ الحرية والديمقراطية، خربوا البلاد واسترقوا الأحرار من العباد وساموهم صنوف العذاب في أبي غريب وجوانتنامو وفي سجون الكيان الصهيوني، وحتى في حق كل الشعوب الإسلامية والعربية.

وبالإضافة للتوجيهات التربوية التي تزرع القيم الإيجابية، ثمة توجيهات أخرى تقوم بتطهير عالم النفس الداخلي، واجتثاث القيم السلبية مثل أمراض الحسد والحقد والغش والظلم والأثرة وغيرها.

كما أن هذه الوسطية تتمثل في المحافظة على حقوق الإنسان الفكرية والعملية دون

---

(١) حديث: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**» رواه أحمد، ومالك، والبزار.

تفرقة بسبب اللون أو المال أو التعليم – شريطة أن تتوازن الحقوق مع الواجبات – وقد حفلت نصوص الوحي بالحث على العدل والخير والإحسان لكل البشر، سواء كانوا مسلمين أم غير مسلمين، أي لكل خلق الله من البشر في أوقات السلم وفي أوقات الحرب، وفي الموادعة أو الخصومة.. فالعدل غير محدّد بالظروف أو الاعتبارات المصلحية أو الزمان – أو الأجناس، بل هو فوق كل الاعتبارات، وهو صمام أمان لتحقيق السلام الفكري في إطار الفرد والمجتمع الإنساني كله!!

إن هذا الطابع العالمي للرسالة الإسلامية، يجعل الوسطية وتحقيق السلام الفكري العام خصيصة أساسية في الأخلاق الإسلامية التي يجب أن تكون مطلقة تشمل كل الناس، وألَّا تكون أخلاقًا عنصرية تحترم قومًا وتجاملهم على حساب الآخرين – كما يقع الآن في عالم الإنسان الأول أو الأبيض الشمالي– فالأخلاق الإسلامية عكس ذلك، ولا تخضع إلا للحق وللعدل المطلقين، وللرحمة العالمية.. ونحن نلمس في تعاملنا مع رسالة الإسلام – قرآنًا وسنة – أن هذه الرسالة بطبيعتها رسالة رحمة وسلم وسلام وأمان للناس كافة..

❋ ❋ ❋

أربعة عشر عامًا من التعذيب والاضطهاد قبل الإذن بالقتال:

طيلة السنوات التي أمضاها الرسول ﷺ في مكة المكرمة وهي ثلاثة عشر عاما قمرية (٦١٠ - ٦٢٢م) تعرض - والمسلمون معه - لأبشع أنواع التعذيب والإيذاء، ولم يحاول يوما أن يرد السيئة بمثلها؛ بل كان يصبر الصبر الجميل، ويسأل الله لقومه الهداية فإنهم قوم لا يعلمون.

وعندما مرّ الرسول ﷺ على آل ياسر، وهم يعذبون لم يملك إلا أن يقول لهم: «**صبرًا آل ياسر**» وفي رواية: «**أبشروا آل ياسر، فإن موعدكم الجنة**»، ومات ياسر شهيدًا تحت وطأة التعذيب، أما سمية فقتلت بحربة أبي جهل، وأما عمار ابنها فقد صبر على التعذيب[1]، ولشدة وطأته سمح له الرسول ﷺ بمداراة الكافرين عملا بقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ [النحل:١٠٦].

- وعندما اشتد العذاب والتنكيل بعد وفاة عمه (أبي طالب)، وزوجته (خديجة بنت خويلد) ﵂... سأله (خباب بن الأرت) أن يسأل الله وأن يدعُوَ لهم، وأن يستغفر الله ليرفع عنهم هذا البلاء، وأظهر الرسول ﷺ شيئًا من الغضب قائلا: «**كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض، فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار، فيوضع على رأسه، فيشق باثنتين وما يصدّه ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمَّنَّ هذا الأمر حتى يسير الراكبُ من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون**»[2].

- وحتى الذين كانوا يرغبون من صحابته الأبرار في الهجرة من مكة إلى الحبشة أو المدينة؛ فإنهم كانوا يتعرضون للملاحقة والتفريق بين أعضاء البيت الواحد، كما حدث

(١) علي سامي نشار، شهداء الإسلام في عهد النبوة، القاهرة، دار المعارف، الطبعة الثالثة.

(٢) رواه البخاري، في باب المناقب، رقم (٣٣٤٣)، والإمام أحمد في مسنده.

لبيت أم سلمة؛ إذ حيل بين أبي سلمة وزوجه وابنه، ثم حيل بين أم سلمة والهجرة هي وابنُها حيث فرِّق بينه وبينها، وظلت تبكي ما شاء الله لها أن تبكي، إلى أن رقَّت قلوب بعضهم لها فأعادوا إليها طفلها وخرجت به وحدها مهاجرة من مكة إلى المدينة.

وهكذا تعرض المسلمون في مكة لمختلف أصناف الظلم؛ بل حرموا حتى من حق الحياة ومن الهجرة، وقد تعرضوا لمختلف أنواع الحرمان، فقد فارقوا زوجاتِهم وأولادَهم؛ حيث وقعوا في الأسر، فقد كان هناك من قضى نحو ثماني سنوات وهم مقيدون بالسلاسل... وحتى عندما لجأ بعضهم إلى ملك الحبشة؛ لأنه كما وصفه الرسول ﷺ ملك لا يُظلم عنده أحد... لاحقهم المشركون وحاولوا تأليبَه حتى يسلمَهم إياهم ليعذِّبوهم أو يقتلوهم... لكن النجاشي كان رجل عدل وصدق، فبحث في الأمر وتبيَّن له صدق المسلمين، فرفض تسليمهم وردّ الهدايا التي قدموا بها إليه.

❋ ❋ ❋

وعندما هاجر الرسول ﷺ بعد معاناة شديدة من مكة إلى المدينة، وأقام دعائم الدولة الجديدة التي تحتاج إلى هيبة وقوة ردع، حتى يستطيع أفرادُها من المسلمين وغيرهم أن يعيشوا في أمن وسلام، لم يكن قد أُذن للمسلمين بعدُ في الدفاع عن أنفسهم.

فلما بدأت الملاحقات القرشية تسعى للتكتل مع اليهود والمنافقين في داخل المدينة (وهم عناصر من الدولة تعيش في داخلها) من أجل الإجهاز على الدولة الناشئة، وشعر الرسول ﷺ والمسلمون بذلك، لدرجة أنهم كانوا يبيتون ليلهم في المدينة خائفين لا يعرفون من أين يُهاجمون، وبأية كيفية سيأتيهم الخطر الذي يمكن أن يغتالهم ـ مهاجرين وأنصار ـ وأن يقوِّض بناء دولة المدينة الإسلامية الناشئة.

في هذا الوقت العصيب جاء (الإذن) من الله سبحانه وتعالى للمسلمين بالقتال دفاعًا عن أنفسهم كأفراد، ودفاعًا عن العقيدة التي آمنوا بها، ودفاعًا عن دولة الإسلام الناشئة التي لا يمكن أن تستمر ـ دولة لها هيبة ـ إلا إذا كانت قادرة على الدفاع عن

نفسها من جانب، وعلى إقناع الآخرين بأنهم أمام دولة قادرة على تأديبهم إن اعتدوا عليها من جانب آخر...

ومرة أخرى نؤكد على مصطلح (الإذن بالقتال)، لدلالته الكبيرة؛ فإن مجرد التعبير القرآني (بالإذن بالقتال) كما جاء في قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج].. مجرد هذا التعبير يدل ـ بوضوح ـ على المنع قبل نزول الآية،ويدل على طروء القتال في الإسلام، وأنه ظل ممنوعًا طيلة أربع عشرة سنة قمرية.

ويعلق العلامة الأستاذ (محمد فريد وجدي) على هذا الإذن ـ بعد هذه المدة من تحمل العذاب والأهوال – بقوله: "هذا ولم يغفل الإسلام حتى في هذا الموطن ـ موطن الدفاع عن النفس والدين ـ أن ينصح لأتباعه بعدم العدوان؛ لأن الإذن خاص بحماية (حق) لا موضوع (انتقام) ولا (شفاء حزازات الصدور)، وهذا من مميزات الحكومة النبوية، فإن القائم عليها نبي يكون كالجرَّاح؛ يضع مشرطه حيث يوجد الداء لاستئصاله، مع عدم المساس بالأعضاء السليمة، ومقصده استبقاء حياة المريض لا قتله، والعالم كله في نظر الحكومة النبوية شخص مريض تعمل لاستدامة وجوده سليمًا قويًّا"[1].

ولعل الآية الكريمة التي يقول الله فيها في كتابه الكريم: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦] ، تدل على النزعة السلمية عند المسلمين، فالأصل عندهم الرغبة في السلم، والجنوح إلى السلم إن وجدوا إليه أدنى فرصة، حتى ولو بشيء من التنازل المقبول!!

---

(١) محمد فريد وجدي، السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الثانية ٢٠٠١م، ص١٦٣، وانظر د/ علي جمعة: شبهات وإجابات حول الجهاد في الإسلام، نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. ص٤٤.

وفي هذا السياق الذي يؤكد أصالة السلم يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ وللمسلمين: ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ﴾ [الأنفال].. ويقول أيضًا: ﴿ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾ [النساء:٩٠].. ويقول: ﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ﴾ [البقرة].

ومعروف أن المسلمين عندما خرجوا في غزوة بدر الكبرى (١٧ رمضان ٢هـ) لم يخرجوا للحرب.. وعددهم، ووسائلهم، وطبيعة اتفاقية العقبة الثانية (الكبرى) (٦٢١م - ١٢بعد البعثة) من المؤكدات الدالة على ذلك... كما أن القرآن الكريم صريح في تأكيد هذا المعنى السلمي النفسي عند الرسول ﷺ والصحابة... يقول تعالى: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ [الأنفال:٧] ، فهم ما خرجوا إلا استخلاصًا لبعض أموالهم المصادرة في مكة، و إلا تأكيدًا لقريش أنهم دولة، وأن عليها قبول السلام معهم والاعتراف بهم، وهو الأمر الذي لم يتحقق إلا في ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة في صلح الحديبية الذي رضي فيه الرسول ﷺ ببعض الشروط المجحفة إيثارًا للسلام.

إطار الجهاد الأخلاقي والحضاري:

وحتى (مصطلح الجهاد) يدل بذاته على أن الأمر فيه مشقة لا تنزع إليها النفس إلا إذا فُرض عليها، فالجهاد (لغَة) يعني المشقة، فيقال: جاهدتُ جهادًا أي بلغت المشقة، وأما الجهاد في (الشرع) فيعني بذل الجهد في قتال الكفار والمنافقين عند وجود الدواعي لذلك، وهو في هذه الحالة ليس طريقًا لفرض الهيمنة ولا السيطرة ولا لسرقة ثروات الآخرين، أو احتلال بلادهم؛ بل هو نوع من العبادات يجب أن تلتزم فيه آداب العبادة، ونحن نلمح هذا في الآيتين الكريمتين التاليتين قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ ﴾ [الحج] ، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ

﴿أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الصف]، فالجهاد يأتي ضمن منظومة عبادية أساسية.

وثمة ملمح آخر يعطي (الجهاد) معنى عباديًّا وإنسانيًّا وحضاريًّا، ويُبعده عن أن يكون مجرد وسيلة للغلبة على الأعداء واغتصاب أرضهم أو قهرهم على الدخول في الإسلام... هذا الملمح يقودنا إليه المعنى ـ أو الإطار العام ـ لمعنى الجهاد ومجالاته... فالجهاد ليس حربًا فقط؛ بل الجهاد جهد متعدد الآفاق؛ فهو جهد (أولا) مع النفس لكبح الشهوات، وجهد جماعي (ثانيًا) لفرض الخير ومنع الشر في قلب المجتمع، وجهد مسلح أخيرًا مفروض على المؤمن بمفرده، أو على الجماعة بأسرها، تبعًا للظروف.

- ولا يمكن أن يتخذ الجهاد (طابعًا عسكريًّا) إلا في الحدود المنصوص عليها في الشريعة القرآنية، وعندئذ يصبح قتالاً مقدسًا ودينيًّا عادلاً في الدافع إليه وفي مباشرته وفي غايته.

والحرب العادلة الوحيدة المقبولة في الإسلام هي المرخص بها في التنزيل، والتي تُشن في (سبيل الله)[1]، ولنلاحظ هذا التعبير عن الجهاد بمصطلح (سبيل الله)، ومعنى هذا أنَّ كل حرب أو جهد يبذل ـ في غير سبيل الله ـ لا يمكن أن يكون جهادًا ولا حربًا مشروعة... بل هو (حرب مادية) استعلائية أو مصلحية ليس لها صلة بالقتال الإسلامي الذي حارب في إطاره رسول الله ﷺ بعد أربعة عشر عامًا منعه الله فيها ومن معه من أية محاولة للدفاع عن النفس والمعاملة بالمثل... وهي المرحلة المكية، وطليعة المرحلة المدنية بعد الهجرة الشريفة.

ولئن كان (القتال) في الإسلام محاطًا بالدائرة (العبادية)، و (الإيمانية) انطلاقًا من قوله تعالى: ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ على أساس أن القتال إذا لم يكن ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فليس جهادًا إسلاميًّا!، فإنَّ ثمة إطارًا آخر يعمِّق هذه الوظيفة للجهاد، ويربطها بآداب الإسلام وقيم

---

(١) فرانسو بوازار، الإسلام، ص٢٩٢.

الإسلام، فوظيفة الرسول ﷺ والمسلمين ابتداءً، إنما هي (البلاغ لا الحرب)، وإنما هي (التيسير) وليس (التَّعْسير والتنفير)، هي (الدفاع عن المستضعفين) من الرجال والنساء والولدان الذين تصادر حقوقهم الإنسانية، ويحرمون من حرية الفكر والعقيدة؛ بل تُفرض عليهم الفتنة ـ بالترغيب والترهيب ـ ليكفروا بالله ـ وهي ـ مع كل ذلك ـ وظيفة (الشهادة على الناس) بما تتضمنه من نشر الإيمان بالله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والوقوف مع موازين الحق والعدل بالنسبة للإنسانية كلها.

والنصوص القرآنية الكريمة تؤكد هذه الوظائف المنوطة بالأمة المسلمة، وهي تؤكد على أن حركة المسلمين (الحربية) أو (السلمية) لابد أن تكون محاطة بسياج من القيم والأخلاق والآداب الراقية التي ترى فيها الإنسانية (سفينة النجاة) التي تحلم بها، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ﴾ [المائدة:٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ [الحج].

يستنتج العلامة (محمد فريد وجدي) من وظيفة الشهادة على الناس أن المسلمين مطالبون بحكم هذا التقدير السماوي الكبير لهم بالمداومة على مراقبة ذاتهم في جمع حركاتهم وسكناتهم، والثبات على الطريق السوي في رغباتهم ونزعاتهم، والقيام على القسطاس المستقيم في معاملاتهم ومنازعاتهم... ثم إنَّ هذه المكانة العالية التي أعطاها الله لهذه الأمة تفرض عليها أن تكون نزَّاعة إلى التفوق في كل فضيلة، سباقة إلى التحلي بكل خصلة نبيلة، وهذا يفسِّر ما اشتهر عن هذه الأمة من سعة الصدر في معاملة المخالفين، ورحب الذرع في حماية المستضعفين، مما كان له أثره في نشر دينها وإحياء لغتها، ما لا تستطيعه الجيوش الجرارة، ولا الدعايات القائمة على أشد الوسائل الإرهابية[1].

---

(١) محمد فريد وجدي، من معالم الإسلام، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى ١٩٩٤م، ص٨٢.

وقد حقق الرسول ﷺ هذا الكمال الأسمى، وحققه السلف الصالح معه، عندما جاء أوان استعمال القوة وتهيأت الظروف المناسبة لها، فقد استعمل الرسول ﷺ القوة بعد حساب دقيق ومنطقي، وحسبنا أن نقول هنا: إن جميع من استشهد في جبهة الإسلام في العهد النبوي بعد أكثر من سبعين غزوة وسرية كان مائة ونيفًا من الشهداء فقط، أما عدد من قتل من الجانب الآخر فهو في حدود ثلاثمائة إنسان أو أقل، أي أنه خلال عشر سنوات وأكثر من سبعين غزوة وسرية لم يقتل من المسلمين والمشركين إلا أقل من أربعمائة إنسان، بينما تجاوز عدد ضحايا الحرب العالمية الثانية أربعين مليونًا من القتلى نتيجة الصراع الوحشيّ بين الطرفين، وهذا بالطبع دون حساب الجرحى والمشوهين والمعوقين الذين مات معظمهم بعد ذلك، وكذلك فإنه كي يستقر نظام باطل في روسيا قُتل ما يقارب مائة مليون إنسان، حتى كان من الممكن إبحار سفن في الدماء المراقة هناك وبناء بنايات من جماجمهم، كل هذه الوحشية التي لا مثيل لها كان من أجل توطيد نظام جديد اسمه (الشيوعية).

وهكذا ـ بالإحصائيات ـ أثبت العصر النبوي ـ إنْ في سلمه أو في حربه ـ أنه عهد احترام لإنسانية الإنسان، واحترام لأفكاره، ومشاعره، ولم تصل دعوة (الإنسانية Humanizm) الحقة ـ عبْر كل العصور ـ إلى هذا المستوى، وليس من المنتظر أن تصله أبدا؛ ذلك لأن الرسول محمدًا ﷺ هو صاحب ذلك العهد!!

فالمؤمن ـ حسب تعليماته ﷺ ـ يقاتل ويحارب، ولكنه لا يسد أبدًا أبواب الصلح، ولا يزيف القيم الإنسانية ولا يهينها، ولا يقتل أي إنسان دون سبب، ودون حق، ولا يحتل البلدان الأخرى، ولا يمتص خيرات الأمم الأخرى[1]!!

---

(١) محمد فتح الله كولن، الرسول ﷺ قائدًا...التنظير والتطبيق، ترجمة أورخان محمد علي، دار النيل للنشر ـ إستانبول تركيا، الطبعة الثالثة ١٤٢٥ هـ ص ١٨، ١٩.

الطبيعة الإنسانية والأخلاقية لأسباب الحرب وضوابطها في الإسلام:

من المعروف أن الدول والأمم ذاتَ الطبيعة اللادينية أو العنصرية لا تحتاج إلى أسباب أخلاقيةٍ للحرب؛ بل ترتكز حروبها على الطبيعة الاستعلائية والاستغلالية، ومحاربة حقوق الآخرين الإنسانية فكريًا ودينيًا واقتصاديًا واجتماعيًا. وكلُ ما تأتي به من أسباب هي ذرائع كاذبة، تشبه ذرائعَ التطرفِ والإرهابِ وحقوقِ الإنسان ونشر الديمقراطية المعاصرة... في سبيل السيطرة وإبادة الأمم واستغلال ثرواتها... ويكفي أن (الجَزائر) احتُلت لمدة مائة وثلاثين سنة بسبب حادث مفتعل بين الوالي الجزائري والقنصل الفرنسيّ... وأُبيد فيها خلال هذه المدة ثمانيةُ ملايين مسلم.

أما في الإسلام فالأمور مختلفة تمامًا؛ لأنها تخضع لدين، وتمارس كعبادة، ويمنع فيها الغش والتدليس، كما أن طبيعة الحرب الأخلاقية والإيمانية والإنسانية لا تنفصل عنها وإلا أصبحت حروبًا دنيوية استعلائية!!

ويكاد الإجماع ينعقد بين فقهاء الإسلام على أن أهم أسباب الحرب في الإسلام لا تخرج عن الأسباب التالية:

١ – مقاومة العدوان على المسلمين وبلادهم وعقائدهم، ومقاومة العدوان على غير المسلمين المستضعفين من جانب قوى الشرّ إذا طلب منا هؤلاء المظلومون مساندتهم.

٢ – مقاومة الظلم العالمي بوسائل مختلفة ممكنة، فالإسلام ضد الظالم، ومع المظلوم دائمًا بصرف النظر عن الدين أو الجنس، وقد أثنى الرسول ﷺ على حلف الفضول مع أنه كان قبل الإسلام.

٣– مقاومة القوى الظالمة التي تمنع أهل الدين والحق من التعريف الصحيح بدينهم ليتخذ الناس قرارهم بشأن الإيمان به؛ قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ [البقرة]... لكن ذلك يجب أن يتم في إطار قوله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾ [البقرة:٢٦٥].

٤ – القتال ضد البغاة ولو كانوا مسلمين.

٥- نقض العهد من المشركين كما قاتل الرسول ﷺ قريشًا، وقام بفتح مكة حين نقضت العهد واعتدت على حليفته قبيلة خزاعة.

٦- الحرب الوقائية ضد الذين يعملون على إرهاب المسلمين، ويطعنون في الإسلام بطريقة غير علمية هدفها الإساءة والتشويه والافتراء.

٧- رفض الأعداء لمبدأ (الأمان) الذي يسمح بالتعايش السلمي والتبادلات التجارية والحوار الفكري والحضاري؛ لأن هذا يعني أنهم مناصرون لدار الحرب علينا، وأن محور سياستهم الاعتماد على القوة والحرب.

٨- مقاومة الخارجين على نظام الدولة المسلمة والمتآمرين عليها من منافقين وخونة وموالين للكافرين والرافضين لوحدة الصف مثل القبائل التي ارتدت عن الإسلام بعد وفاة الرسول ﷺ.

وإذا كانت هذه هي أسباب الحرب في الإسلام، وهي أسباب كما نرى تعكس الطبيعة الإنسانية والأخلاقية للحرب في الإسلام ـ فإن الضوابط العامة للحروب في الإسلام تؤكد ـ كذلك ـ الطبيعة الإنسانية والحضارية لسلوكيات الحرب في الإسلام...

ومن هذه الضوابط التي يطلق عليها (فرانسو بوازار) المبادئ الأساسية (للنظام القانوني) المطبَّق في النزاعات المسلحة الدولية والداخلية على السواء، وهي المبادئ الموجَّهة في الإسلام ـ كما يقول بوازار ـ داخل منظومة القوة والرحمة معا **الضوابط التالية:**

١- حظر التجاوز والغش والظلم في جميع المجالات حربية أو سلمية، فالقيم لا تتجزأ.

٢- منع إنزال الأضرار الزائدة على الحاجة بالعدوّ، كالقتل، والقسوة، والتعذيب المهين.

٣- حظر أعمال التدمير غير المفيدة ولاسيما إتلاف المزروعات أو قتل الحيوانات

أو ما يتصل بإفساد البيئة، وتلويث المياه، وهدم البيوت إلا في حالات الضرورة الحربية.

٤ - رفض الأسلحة المسمومة والتدميرات الجماعية العشوائية إلا بالمثل.

٥ - التمييز بين المقاتلين - وهم يحملون في الجيوش الإسلامية شاراتٍ مُمَيِّزة - وبين المدنيين غير المشتركين في القتال.

٦ - احترام المنسحبين من الالتحام، كالجرحى، والجنود المتمتعين بأمان محلي أو دولي.

٧- المعاملة الإنسانية للأسرى الذين يُبادل بهم أو يُحَرَّرون من جانب واحد شرط ألا يبقى أي أسير مسلم في قبضة الأعداء.

٨- حماية السكان المدنيين: احترام أديانهم - وبالتالي حضارتهم - ورؤساء هذه الأديان، ولا شرعية لقتل الرهائن واغتصاب النساء.

٩- تأكيد المسئولية الفردية: إلغاء كل عقوبة تصدر بحق أشخاص عن جرائم لم يرتكبوها بأنفسهم.

١٠ - لا شرعية في مقابلة الأذى بالأذى ولا التدابير الردعية التي قد تكون مخالفة للمبادئ الإنسانية الأساسية.

١١ - التعاون مع العدو في الأعمال الإنسانية.

١٢ - منع كل عمل مخالف لأحكام المعاهدات التي يعقدها المسلمون منعا باتًّا[١].

١٣ - ضرورة تأكيد الطابع الأخلاقي والنبيل والإنساني في أثناء الحرب في المواقف التي تتطلب ذلك.

١٤ - وإذا جنحوا للسَّلم وجب الجنوح إليه من المسلمين عندما يتأكدون من صدق نوايا أعدائهم.

---

(١) فرانسو بوازار، إنسانية الإسلام، ص٢٩٤.

وهذه الضوابطُ المستقاةُ من توجيهات الرسول ﷺ جزء لا يتجزأ من نظام الحرب في الإسلام. وعندما تكون الحروب محددة بهذه الضوابط فإنها ـ بالضرورة ـ لابدَّ أن تلتزم بجميع الوسائل الكريمة التي تحقق لها غايتها ـ بأقل التجاوزات والخسائر التي تفرضها طبيعة الحروب!!

المنهي عن قتلهم في السنة النبوية وفقهها:

أشرنا إلى بعض الجوانب المؤكدة لأخلاقية حروب الرسول ﷺ وإنسانيتها وسموّها عن الأساليب الهمجية والأطماع الدنيوية... وفي هذه الصفحات نتحدث عن جانب له صلتُه المباشرة ـ بل الأساسية ـ بهذه الطبيعة الحضارية لحروب الرسول ﷺ من الناحيتين الفكرية والتشريعية.

إنَّ السنة الشريفة التي هي أقوالُ الرسول وأفعالُه تزخر بعدد كبير من التوجيهات والوصايا التي كان الرسول يأمر فيها سراياه وجيوشه وكل المسلمين بالامتناع عن قتل المدنيين الذين لا صلة لهم بالقتال تخطيطًا أو محاربة أو تجسسًا.

ففي حديث بُريدة بن الحصيب رضي الله عنه أن الرسول ﷺ كان إذا أمَّر أميرًا على جيش أو سرية أوصاه ومن معه بتقوى الله (أي مراقبة الله والخوف منه) في تعاملاتهم العسكرية مع الأعداء مدنيين أو محاربين... ثم يقول لهم: "اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله[1]، اغزوا ولا تغلّوا، ولا تغدروا، ولا تمثّلوا ولا تقتلوا وليدًا، وإذا لقيتَ عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال أو خلال، فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم: ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون

---

(١) لا يفهم من هذا أن الكفر هو باعث القتال بدليل أنهم لو جنحوا للسلم قُبل منهم، وبدليل أنه: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ ، كما أن (الجزية) بديل لعدم اشتراكهم في الدفاع عن أنفسهم؛ فإن اشتركوا في الدفاع عن أنفسهم فلا جزية عليهم.

كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين (فهم مواطنون) فإن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم.

وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه ﷺ فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه ﷺ، ولكن اجعل ذمتك وذمة أصحابك، فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله ﷺ.

وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تُنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا»[1].

وقد ورد في الحديث المتفق عليه: عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «وُجدت امرأة مقتولة في بعض مغازي رسول الله ﷺ، فنهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان».

وفي سنن أبي داود: عن رباح بن الربيع رضي الله عنه قال: «كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة فرأى الناس مجتمعين على شيء، فبعث رجلا فقال: **انظر علام اجتمع هؤلاء؟** فجاء فقال: على امرأة قتيل! فقال: **ما كانت هذه لتقاتل!**».

وفي رواية أخرى صحيحة لابن ماجه: «**انطلق إلى خالد بن الوليد فقل له: إن رسول الله ﷺ يأمرك يقول: لا تقتلن ذرية ولا عسيفًا**» (أي أجيرًا أو خادمًا أو عبدًا لا صلة له بالأمور القتالية بطريقة مباشرة).

وقياسًا على هذا فالفلاحون في الحقول، والعمال في المصانع، وعمال النظافة في الطرقات، والأطباء والأجراء الذين يقومون على المرضى والجرحى.. هؤلاء ومن على شاكلتهم في بلاد الحرب يَصْدُقَ عليهم وصف العُسفاء، حتى ولو كانوا من بلاد الأعداء؛ لأن النص الشرعي ينطبق عليهم بوصفهم أجراء.

وقد ورد في سنن أبي داود عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا بعث

(١) أخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير، رقم (٣٢٦١)، وأبو داود في كتاب الجهاد، رقم (٢٢٤٥، ٢٢٤٦).

جيشًا قال: «**انطلقوا باسم الله لا تقتلوا شيخًا فانيًا، ولا طفلاً صغيرًا، ولا امرأة، ولا تغلّوا وضموا غنائمكم، وأصلحوا وأحسنوا إن الله يحب المحسنين**».. وهو حديث مقبول وصححه ابن حبّان، كما أن هناك أحاديث أخرى تقويه، وهو يفيدنا أن الشيخ المسن الضعيف لا يقتل، بالإضافة إلى الطوائف الأخرى العاجزة عن القتال.

لكن حديث أبي داود والترمذي المروي عن الحسن بن سَمُرة بن جندب، والذي يقول: إن رسول الله ﷺ قال: «**اقتلوا شيوخ المشركين واستبقوا شرْخهم**»، (والشرخ جمع شارخ وهو الشاب الذي لم يبلغ الحُلم)...

وهذا الحديث – إذا صح – ينبغي الجمع بينه وبين النصّ السابق الذي ينهى عن قتل الشيخ الفاني، فيقصد به التصريح بقتل الشيخ الذي بقي فيه نفع للكفار ولو بالرأي كما في (دُريد بن الصمة) وقد أحضره أصحابه ليدبّر لهم الحرب وقد زاد عمره على المائة، فقتله أبو عامر الصحابي، وذلك بعد حُنين، ولم ينكر النبي ﷺ ذلك كما ثبت في الصحيحين [(١)].

وفي هذا السياق نذكر – أيضًا – أن رسول الله ﷺ كان إذا بعث بعثًا قال: «**تألفوا الناس وتأنوا بهم، ولا تغيروا عليهم حتى تدْعوهم، ولأن تأتوني بهم مسلمين، أحبُّ إليَّ من أن تأتوني بأبنائهم ونسائهم وتقتلوا رجالهم**»[(٢)].

فإذا كان المحارب الذي حمل السلاح وقاتل، ثم تخلى عن هذا السلاح بأسر أو استئسار (أي تسليم نفسه) فحولت صفته من محارب إلى (أسير) وتحول هو من شخص مستهدف للقتل، إلى شخص له حقوق الأسرى.. إذا كان المحارب الذي حمل السلاح يتمتع بحقوق الأسرى، وتفرض الحماية على حياته، فإن المدني الذي لم يحمل السلاح ولم يقاتل، وإنما وُجد في (أرض المعركة) لأي ظرف من الظروف، فوضعت القوات المحاربة يدها عليها... فإنه من باب أولى يصبح (أخيذًا) أو (أسيرًا)، ولا يجوز

---

(١) محمد خير هيكل، الجهاد والقتال، بيروت، دار البيارق ٢/ ١٢٤٧، ١٢٤٩.

(٢) الشيباني، شرح السير الكبير ١/ ٧٩١، وانظر: المرجع السابق.

أن يعامل بأقسى مما يعامل به (الأسير المقاتل)، كما أن المدني الذي يعجز عن حمل السلاح أو المنصرف عن القتال لأمور الفلاحة، أو الصناعة، أو العبادة في الصوامع، أو العاجز لمرض أو عمى – هو من باب القياس الضروري لا يجوز قتله؛ بل من حقه حماية حياته وعدم التعرض لها... ولهذا فإن الآراء الاجتهادية القائمة على فقه السنة الشريفة تتفق على أن (القتال هو مناط القتل)، أي أن الذي يقاتل هو الذي يقتل أثناء قتاله... وبالتالي، فإن الذي لا صلة له بالقتال لا يقتل، كالصبيان والنساء والمجانين والمرضى أمراضًا معوقة.

وقد روي عن ابن عباس في شرحه لقوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ ﴾ [البقرة:١٩٠] ، قوله: «**لا تقتلوا النساء والصبيان والشيخ الكبير**» وهذا التحديد لهذه الطوائف على سبيل المثال لا الحصر.

وقد وردت نصوص أخرى تنهى عن قتل الراهب في صومعته (أي غير المشارك في الحرب بالتحفيز والتحريض) وتنهى عن قتل أهل الكنائس الذين لا يخالطون الناس...

وقاس ابن عمر رضي الله عنهما عليها الفلاح الذي لا يقاتل، وقال: «اتقوا الله في الفلاحين الذين لا ينصبون لكم الحرب»... والعبارة الأخيرة تؤكد أن القتال مناط القتل، فما داموا لم ينصبوا لنا حربًا فلا يجوز قتلهم... وهذا الفقه أخذه ابن عمر من قوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ ﴾ [البقرة:١٩٠].

ويقاس على الفلاحين الصناع والرعاة والمشتغلون بالأعمال المدنية كلها... بل وبقية المدنيين البعيدين عن الاشتراك في الحرب بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.. ومن المعلوم أن المدنيين الذين لهم صلة بالحرب كالجواسيس، ورجال التحريض الإعلامي المرتبطين بالجيوش، أو الذين يقومون بتشويه الإسلام والتحريض على أهله ونشر الشائعات الكاذبة عنه وعن المسلمين... كل هؤلاء يجوز قتلهم.

ومن الأدلة النبوية على ذلك إقرار الرسول ﷺ لذلك المسلم الغيور الذي جاء إلى

الرسول ﷺ وقال له: «إني سمعت امرأة من يهود وهي تشتمك فقتلتها فأقره النبي علي فعله»، وكذلك روي أن عمير بن عدي سمع عصيما بنت مروان تؤذي النبي وتعيب الإسلام، وتحرض على قتال المسلمين فقتلها، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال: **«إذا أحببتم أن تنظروا إلى رجل نصر الله ورسوله فانظروا إلى عمير»**.

وقد ورد أيضًا في شرح السير الكبير للشيباني، أن زيد بن حارثة ﷺ قتل فاطمة بنت ربيعة بن بدر، حيث كانت تحرض على قتال رسول الله ﷺ، وقد ورد أنها جهزت ثلاثين راكبًا وقالت لهم: (سيروا حتى تدخلوا المدينة فتقتلوا محمدًا)[1].

وهكذا – كما تدلنا النصوص السابقة – فإن الحصانة الشرعية للمدنيين والضعفاء غير المشتركين في الحرب تسقط ويجوز قتلهم إذا قاموا بعمل ذي صفة قتالية بالقول أو العمل...

كما أنه في بعض الحالات الاستثنائية حين شن الغارات الليلية على الأعداء في الليل أو في النهار، واستخدام ما تقتضيه الحرب ضدهم من صواريخ وكتل نارية، واستعمال الأسلحة الثقيلة، وقذائف الحجارة الثقيلة والمتفجرة، وما يُسَمَّى بأسلحة الدمار الشامل، (من باب المعاملة بالمثل).

ففي هذه الحال، لا يمكن التمييز بين من يجوز قتله ومن لا يجوز قتله من أهل الحرب في تلك البلاد المعادية؛ ومن أجل هذا فقد جاءت النصوص الشرعية بمشروعية هذا النوع من القتال، وإن ترتب عليه ذلك القتل الجماعي الذي يذهب ضحيته – تبعًا لا قصدًا – قليل أو كثيرٌ من الأرواح التي يحرم في الأصل قصدها بالإزهاق من صفوف الأعداء[2].

وكذلك يتفق الفقهاء على أنه يجوز قتل من يحرم في الأصل قتله من الأعداء أثناء الحرب عندما يتترس بهم الأعداء، أي حين يتخذ الأعداء من أطفالهم ونسائهم

---

(١) الحديث في صحيح البخاري رقم (٣٠١٤، ٣٠١٥)، وفي صحيح مسلم رقم (١٧٤٤).

(٢) محمد خير هيكل، الجهاد والقتال في السياسة الشرعية ٢/ ١٢٦٤.

وشيوخهم ومَنْ شاكلهم - تُروسًا إنسانية، ودروعًا بشرية، يحتمون بها، لعلمهم أن المسلمين يحرم عليهم قتل أطفال العدو ونسائه فيتخذون منهم وسيلة إلى حماية أنفسهم من ضرب المسلمين لهم.

جاء في الشرح الكبير للمقدسي: (وإذا تترسوا في الحرب بالنساء، والصبيان، ومن لا يجوز قتله - جاز رميهم، ويُقصد المقاتلة؛ لأن النبي ﷺ رماهم بالمنجنيق، ومعهم النساء والصبيان، ولأن كف المسلمين عنهم يُفضي إلي تعطيل الجهاد؛ لأنهم متى علموا ذلك تترسوا بهم عند خوفهم، وسواء كانت الحرب ملتحمة أو لا؛ لأن النبي ﷺ لم يكن يتحيَّن بالرَّمي حال التحام الحرب)[1].

وفي نهاية هذا العرض الذي يتعلق بشرعية التعامل الإنساني الذي يوجب حفظ الحياة والحقوق الإنسانية الأخرى لقطاع كبير من طوائف الأعداء أثناء الحرب؛ من مستضعفين عاجزين، وعابدين في صوامعهم، ومن زراع، وصناع، وتجار، وسياح وغيرهم ممن يثبت عدم وجود صلة لهم بالحرب.. أي أن المدنيين جميعًا - غير المتصلين بالحرب وقضاياها - يتمتعون بحق الحماية...

و أراني غير مبالغ إذا قلت: إن الرسول ﷺ في أحاديثه وتوجيهاته كان يحاول تحجيم حالات القتل، وتحديدها تحديدًا دقيقًا، لدرجة تمنح الأكثرية الساحقة من الشعب المعادي حق الحفاظ على حياته وإنسانيته في الحرب، وتجعل دائرة القتل دائرة محدودة إلى أقصى درجة ممكنة، ولا يُتوسع في الحرب إلا من باب المعاملة بالمثل، وضرورة اللجوء إلى ذلك إيقافًا لطغيان العدوّ وتجاوزاته.

صلاة الحرب (الخوف) ودلالتها الإيمانية :

من الأدلة القوية الدالة على الطبيعة الإيمانية والإنسانية لحروب الرسول ﷺ إلزامه المسلمين - بأمر القرآن - والتزامهم - واقعيًا وعلميًا - بإقامة الصلاة أثناء الحرب.. وعلى مرأى من العدوّ، وفي حدود مرماه... فحتى في هذه اللحظات الحرجة

---

(١) المقدسي: الشرح الكبير ١٠ / ٢٠٤، وانظر أيضًا: ابن قدامة، المغني ١٠/ ٥٠٤، نقلا عن محمد خير هيكل، المرجع السابق٢/ ١٢٦٨.

التي تكون فيها حياة النبي ﷺ وأصحابه مهددة كل التهديد؛ لأبُدَّ من الالتزام بأداء الفرائض الخمس اليومية التي لا يجوز أن تُترك إلا عند وجود عُذر شرعي عند المرأة، أو لغياب العقل، أو لمن هو دون سن البلوغ... وبعد ذلك لا تسقط عن الإنسان أبدًا، وجد الماء أو لم يجده، عرف القبلة أو لم يعرفها... بلغ به المرض مبلغه أو لم يبلغ – مادام فيه عقل... فلكل ذلك ميسرات شرعية... لكنها لا تسقط أبدًا أثناء حياة المسلم، مما يدلّ على المكانة العظيمة للصلاة في الإسلام.

وما كانت الحرب لتستثنى من هذه القاعدة... فبما أن الصلاة اتصال مباشر بالله، فكيف يقطع المسلم صلته بالله، وهو على باب الآخرة، يكاد يطرقها في أية لحظة أثناء المعركة!!

إن من شأن هذه الصلاة بصورتها الجماعية التي تحدث بها في جبهة القتال ويراها العدوّ، نشر روح الإيمان وروح الاطمئنان في الجيش المسلم، وهي – كذلك – تشيع روح الاستخفاف بالعدوّ والثقة في مدد السماء وعون الله... ومع ذلك فهذه الصلاة لا تسمح للعدوّ أن يستغلها فرصة يضرب فيها المسلمين، فالتنظيم الإلهي لها تنظيم خاص يتَّفق مع ظروف الحرب... وقد ذكر القرآن هذا التنظيم وطبَّقه الرسول ﷺ والمسلمون في حروبهم بدقة كاملة... يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾ [النساء].

أي عندما تقف للصلاة فلتقم جماعة خلفك للصلاة معك، ولتقف جماعة أخرى على أهبة الاستعداد لأي طارئ، وعندما تنتهي الجماعة الأولى من صلاة ركعة تتبادل الفئتان موضعيهما، فتقف الفئة الأولى للحراسة وتأتي الثانية وتصلي خلف رسول الله ﷺ.

أما الأعداء الذين يراقبون المسلمين عن بُعد فهم يرون عجبًا... يرون المسلمين

يصلون ومعهم سيوفهم ودروعهم ونبالهم، وعندما ينوون الهجوم إذا بهم يرون الفئة الأخرى، ويرون المسلمين ينتقلون من صف الصلاة إلى صف الحراسة، ومن صفّ الحراسة إلى صف الصلاة [1].

ونحن هنا لا نهتم بالجانب الفقهي في صلاة الحرب أو الخوف، وإنما تهمنا دلالتها الإيمانية والإنسانية، التي تشي بطبيعة الحرب في الإسلام، فهي تمارس – عندما تفرض الحرب على المؤمنين وهي كره لهم – في إطار عبادي مربوط بأعظم ركن في الإسلام بعد الشهادتين، وهي الصلاة، ومربوط – ضمنًا – بالحب والأمل في أن يحق الله الحق ويبطل الباطل... ولعلَّ صلاة الخوف عندما يراها الأعداء تمثل رسالة لهم من المسلمين... بأنهم (أهل الله وجند الله) وبأنهم لا يحاربون لحقد أو انتقام أو لمغانم دنيوية... وإنما يحاربون (في سبيل الله...) وأنَّ على هؤلاء الأعداء – بالتالي – أن يجنحوا إلى السِّلم، وأن يدخلوا فيه كافة!!

إنسانية الرسول في السرايا والغزوات (المجال التطبيقي):

ذكرنا قبل ذلك بعض النصوص الواردة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وبعض التحليلات لها، والتي تشكل – في مجملها – الإطار المحدد للجوانب العقدية والتشريعية التي توحي – بدورها – بالقسمات الإيمانية والإنسانية والأخلاقية في حروب الرسول ﷺ...

ويبقى هنا أن نقدم الجوانب التطبيقية (العملية) التي تألقت فيها الروح الإنسانية والأخلاقية للرسول ﷺ عبر أكثر من سبعين سرية وغزوة...

فعندما نزل الإذن بالقتال من الله بعد أربعة عشر عاما من الصبر على أقسى صور الإذلال والملاحقة لم يتوان الرسول ﷺ في الخروج بالمسلمين على شكل سرايا وغزوات، وذلك لتأمين حياتهم في المدينة، في مواجهة القبائل المتربصة بهم، وفي مواجهة قريش التي لا تريد أن تعترف بكيانهم الجديد، ولا أن ترفع سياطها عن المستضعفين المعتقلين لديها الممنوعين من الهجرة، ولا أن تكفّ عن مصادرة أموالهم، وعن ملاحقة الدولة الجديدة بصورة التآمر والتأليب والتحريض لليهود والمنافقين في

---

(١) محمد فتح الله كولن، الرسول قائدا، ص ٣٠، ٣١.

المدينة، وللقبائل الأخرى في الجزيرة...

وكانت السرايا أشبه بالدوريات الاستطلاعية التي تسعى لفرض الهيبة وإشعار الآخرين باليقظة ، وأيضا لاستكشاف الطرق المحيطة بالمدينة، والتي يمكن أن ينفذ منها الأعداء، وعقد معاهدات السلام مع القبائل التي تقع مساكنها على هذه الطرق، فضلا عن جمع المعلومات عن هذه القبائل وصلتها بقريش، والتفاهم معها لتزويد المسلمين بالمعلومات عن تحركات أهل مكة ضد دولة الإسلام في المدينة.

ومن متابعة حركة السرايا يبدو أن السرايا التي يقل عدد أفرادها عن عشرة أفراد كان هدفها استقصاء الأخبار وجمع المعلومات.. إلا إذا فرض الأعداء عليها الدفاع عن نفسها... أما السرايا الأكثر عددا فكانت سرايا مسلحة ومدربة هدفها إرهاب العدوّ حتى لا يفكر في غزو المدينة، وكانت على استعداد للاشتباك عند اللزوم – مع جمعها للأخبار والمعلومات أيضا – وكان عدد بعض هذه السرايا يتجاوز مائتي مقاتل [1].

وثمة ملمح هنا نسوقه لتأكيد الطبيعة الإنسانية الأخلاقية لهذه السرايا، فمن المعروف أن جزيرة العرب كانت في عصور كثيرة، ومنها العصر الذي نتكلم عنه، تعج بكثير من قوافل السلب والنهب (لنتذكر هنا قصة سلمان الفارسي، وزيد بن حارثة وغيرهما)... وكانت الصحراء تبدو ملكاً لهذه القوافل التي يمكن أن تستغل أيضا عن طريق المال لجمع المعلومات عن المسلمين لصالح قريش وغيرها وترويع أهل المدينة... فكانت السرايا هي الحلّ الأمثل للوقوف ضدّ هذه القوافل – من جانب – ومن جانب آخر سوف يرى الناس في الجزيرة أن قوافل – أو سرايا – رسول الله ﷺ، على العكس من هذه السرايا في سلوكها وتعاملها، فهي لا تمدّ يدها بسوء لأي شخص، لا لماله ولا لعرضه، ولعلها المرة الأولى في الجزيرة التي تمرّ فيها قوافل على هذا النحو من أمام البيوت والمساكن، تبعث على الأمن لا الخوف، وتدعو إلى التعاهد على السلم... وتقاوم قوافل السلب والنهب... وسوف يشعر العرب بأن هناك من يمكن أن يطمئنوا إليه ويجدوا في ظلاله الأمن إذا وضعوا أيديهم في يده... كما أن قريشا التي كانت تريد أن تبقى مسيطرة على الجزيرة كلها... لم يعد الظرف الجديد يسمح لها بذلك... فهناك

(١) أقرب الآراء إلى القبول أن السرية هي التي لم يخرج فيها الرسول ﷺ، والغزوة هي التي قادها الرسول ﷺ.

من يتربصون بها وبتجارتها، ولن يكفوا عنها حتى تسالمهم وتعترف بكيانهم وحقهم في الحياة والدعوة لعقيدتهم... وهذه المعاني السامية كلها حققتها السرايا – أولا – والغزوات ثانيًا.

(١)

وكانت السرية الأولى في رمضان من السنة الأولى للهجرة، جعل الرسول ﷺ عليها عمه حمزة بن عبد المطلب، ومعه ثلاثون شخصًا، أرسلوا إلى سيف البحر، فلقوا عيرا لقريش بقيادة أبي جهل فيها ثلاثمائة مشرك... ولم يحدث قتال.. إلا أن أبا جهل – بالطبع – قد فهم الرسالة الموجهة إلى أهل مكة، وهي أن هناك قوة جديدة تفرض عليهم السلام والاعتراف بها و إلا ستهدد مصالحهم التجارية.

(٢)

وفي شوال خرجت السرية الثانية في ثمانين راكبًا على رأسها عبيدة بن الحارث، وفيها سعد بن أبي وقاص.. ولم يحدث قتال، إلا أن سعدا رمى بأول سهم في الإسلام... وفرَّ إلى المسلمين المقداد بن عمرو (الأسود)، وعتبة بن غزوان، وكانا قد أسلما وحبسا في مكة.

(٣)

وفي السنة الثانية للهجرة خرج الرسول الكريم ﷺ – قبل بدر – بقيادة ثلاث غزوات وسرايا، فقد خرج ليعترض عيرا لقريش عند (ودان)، فلم يدرك العير، وعاهد بني صخرة على الأمان والتناصر... ثم بلغه أن عيرا لقريش يقودها أمية ابن خلف في مائة من قريش ذاهبة إلى الشام فخرج لملاقاتهم في مائتين من المهاجرين حتى بلغ بواط، فوجد العير قد فاتته، ولم يلق كيداً... وكذلك خرج الرسول ﷺ ومعه مائة وخمسون في غزوة العشيرة، لملاقاة عير لقريش يقودها أبو سفيان، ففاته العير، ووادع بني مدلج وحلفاءهم ثم عاد إلى المدينة ينتظر رجوع القافلة... فرجعت وأفلت بها أبو سفيان... ثم كانت – بسبب هذه العير – غزوة بدر الكبرى...

ونلاحظ أن السرايا السابقة خلت من الاشتباكات الدموية؛ مما يؤكد طبيعتها ووضوح أهدافها التي أشرنا إليها سابقا.

(٤)

وقد أغار على المدينة كرز بن جابر الفهري، وهرب، فخرج الرسول في طلبه، ولم يدركه، وهذه تسمى غزوة بدر الأولى... ثم خرج عبد الله بن جحش على رأس سرية من ثمانين رجلا، حتى نزلوا (نخلة) في طريق البصرة بأمر الرسول ﷺ، ولقوا عيراً لقريش تريد مكة فيها عمرو بن الحضرمي، فقتلوه في آخر أيام رجب، وأسروا عثمان بن المغيرة والحكم بن كيسان... فكره الرسول ﷺ ذلك منهم وقال: «**لم آمركم بقتال**» وأفرج عن الأسيرين، وأرسل دية القتيل، ومع ذلك شهَّر المشركون بالمسلمين وقالوا: إنهم قاتلوا في الأشهر الحرم، فنزلت آيات سورة البقرة تدافع عنهم: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ [البقرة:٢١٧].

(٥)

وفي غزوة بدر الكبرى (١٧ رمضان ٢ هجرية) عدّل رسول الله ﷺ صفوف المسلمين، وكان في يده قدح يعدِّل به، وكان سوادُ بن غزية مستنصلا من الصف، فطعنه الرسول ﷺ في بطنه بالقدح وقال: **استو يا سواد**. فقال سواد: يا رسول الله، أوجَعْتَني فَأَقِدْني، فكشف النبي ﷺ عن بطنه، وقال: استقد، فاعتنقه سواد، وقبَّل بطنه، فقال: ما حملكَ على هذا يا سواد؟ قال: يا رسول الله ﷺ قد حضر ما ترى، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك، فدعا له رسول الله ﷺ بخير. وهذه لمسة إنسانية تدل على الطابع الأخلاقي الكريم للرسول القائد، الرحيم مع أصحابه وأعدائه.

ومع بداية المعركة أخذ الرسول ﷺ يتضرع إلى ربِّه في إلحاح وخضوع... فقد روى الإمام أحمد بسنده عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: «لقد رأيتنا وما فينا إلا نائم، إلا رسول الله ﷺ تحت شجرة يصلي ويبكي حتى أصبح، وذلك ليلة بدر... وهو يكثر من قول: **يا حي يا قيوم**، ويكررها وهو ساجد... وكان ﷺ يرفع يده ويهتف بربّه ويقول: **اللهم إن تَهْلك هذه العصابة لا تعبد بعدُ في الأرض، اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم نصرك**.. ويرفع يده إلى السماء حتى سقط رداؤه عن منكبيه، وجعل أبو بكر يقول له مشفقاً عليه: يا رسول الله، بعض مناشدتك ربك، فإنه منجز لك ما وعد».

وهذا الموقف - أيضا - دليل من الأدلة على الطبيعة الإيمانية لحروب الرسول ﷺ.

(٦)

وفي غزوة أحد، وبعد خيانة عبد الله بن أبي بن سلول، وعودته بثلاثمائة رجل (ثلث الجيش) قام النبي ﷺ ببقية الجيش – وهم سبعمائة مقاتل – ليواصل سيره نحو العدوّ، وكان معسكر المشركين يحول بينه وبين (أحد) في مناطق كثيرة، فقال: **من رجل يخرج بنا على القوم من كثب** (أي من قريب) **من طريق لا يمر بنا عليهم؟**

فقال أبو خيثمة: أنا يا رسول الله. ثم اختار طريقًا قصيرًا إلى (أحد)، ومرَّ الجيش من هذا الطريق بحائط مربع بن قيظي – وكان منافقا ضرير البصر – فلما أحس بالجيش المسلم قام يحثو التراب في وجوه المسلمين، ويقول: لا أحلّ لك أن تدخل حائطي إن كنت رسول الله. فابتدره القوم ليقتلوه، فقال الرسول ﷺ: **لا تقتلوه فهذا أعمى القلب أعمى البصر...** وترفع الرسول ﷺ عن قتل الأعمى، مع إساءته للرسول ﷺ والجيش، وهذه لمسة إنسانية نراها جديرة بالتقدير.

ومن المعروف أنه بعد انتصار المسلمين في موقعه أحد – في أول المعركة – خالف الرماةُ أمر الرسول ﷺ لهم بألا يتركوا مواقعهم قائلا لهم ولقائدهم عبد الله ابن جبير: «**انضح الخيل عنا بالنبل، لا يأتونا من خلفنا، إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك، لا نؤتين من قبلك**» (البخاري وأبو داود باب الجهاد)، وفي رواية للبخاري أيضًا: «**إن رأيتمونا يخطفنا الطير فلا تبرحوا، وإن رأيتمونا ظهرنا فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم...**» ومع ذلك نزل أربعون منهم، مُعرِّضين قائدهم عبد الله بن جبير وتسعة معه للإبادة.

وعندما أدرك هذه الثغرة خالد بن الوليد، انقض منها على المسلمين، ثم ركز المشركون جهودهم ضدَّ النبي ﷺ، وطمعوا في القضاء عليه، فرماه عتبةُ بن أبي وقاص بالحجارة فوقع لشقه، وأصيبت رباعيتُه اليمنى والسفلى، وشفته السفلى، وتقدم إليه عبد الله بن شهاب الزهري، فشَجَّه في جبهته، وجاء فارس عنيد هو (عبد الله بن قمئة) فضربه على عاتقه بالسيف ضربة عنيفة، شكا لأجلها أكثر من شهر، ثم ضرب على وجنته ﷺ ضربة أخرى عنيفة كالأولى، حتى دخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته الشريفة، وقال: خذها وأنا ابن قمئة. فقال رسول الله ﷺ له وهو يمسح الدم عن

وجهه: **أقمأك الله**. (فلم يلبث أن هلك عندما نطحه تيس أثناء عودته!!).

وفي الصحيحين: أنه ﷺ كُسرت رباعيته، وشج في رأسه، فجعل يسلت الدم عنه ويقول: **كيف يفلح قومٌ شجوا وجه نبيهم، وكسروا رباعيته وهو يدعوهم إلى الله**.

ومع كل ذلك كان لا يفتأ ﷺ أن يقول: «**اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**»، وفي رواية مسلم: «**ربِّ اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**».

ومع أن منظر الشهداء كان مريعًا يفتت الأكباد، فحمزة رضي الله عنه لم يوجد له كفن إلا بردة ملحاء، إذا جعلت على رأسه قلصت عن قدميه، وإذا جعلت على قدميه قلصت عن رأسه حتى مدت على رأسه، وجعل على قدميه الإذخر، ومع أن هندًا بنت عتبة مَثَّلت به وأخرجت كبده لتـأكلها ثم لفظتها...

ومع أن الداعية العظيم مُصعب بن عمير رضي الله عنه كفن في بردة إن غطى رأسه بدت رجلاه، وإن غُطي رجلاه بدا رأسه، وروي مثل ذلك عن خباب، وفيه: "فقال لنا النبي ﷺ: **غطوا بها رأسه واجعلوا على رجله الإذخر**". (وهو نبات)...

- مع كل هذا العناء الذي كابده الرسول ﷺ فإنه أمر أصحابه- بعد أن انصرف المشركون - بأن يقفوا صفوفًا، وقال لهم: **استووا حتى أثني على ربي عز وجل**. فصاروا خلفه صفوفًا، فقال: **اللهم لك الحمد كله، اللهم لا قابض لما بسطت، ولاباسط لما قبضت، ولا هادي لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما باعدت، ولا مبعد لما قربت، اللهم، ابسط علينا من بركاتِك ورحمتِك وفضلِك ورزقِك.**

اللهم إني أسألك النعيم المقيم، الذي لا يحول ولايزول اللهم إني أسألك العون يوم العيلة، والأمن يوم الخوف، اللهم إني عائذ بك من شر ما أعطيتنا وشر ما منعتنا، اللهم حبِّب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكرِّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين، اللهم توفنا مسلمين وأحينا مسلمين وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين، اللهم قَاتِلِ الكفرة الذين يكذبون رسلك، ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك[1].

ومع كل ما أصاب الرسول ﷺ والمسلمين من جراء مخالفة الرماة لأمر رسول

---

(١) رواه أحمد في المسند، والحاكم في المستدرك..

الله ﷺ الصريح الواضح - أولا - ومخالفتهم لأمر قائدهم الذي ولاه عليهم رسول الله ﷺ وهو عبد الله بن جبير -ثانيًا- وما نجم عن ذلك من هزيمة للجيش المسلم بعد انتصاره،ومع أن القوانين الوضعية الدولية كلها تطبِّق أقصى العقوبات- ومنها الحكم بالإعدام- على مرتكبي مثل هذه المخالفة إلا أن الأمر الإلهي الرحيم نزل على نبي الرحمة يقول له: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [آل عمران]، وبقوله له أيضًا: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [آل عمران].

وهكذا من خلف كل الآلام والمحن: كانت القيمُ الإنسانيةُ والربانية هي الحاكمة لكل التصرفات في أحد (شوال ٣هـ) فلم يسمح الرسول ﷺ لنفسه بأن يحمل مشاعر الانتقام من قومه، وأن يدعو عليهم كما دعا بعضُ الأنبياء على أقوامهم؛ بل دعا لهم في أحلك الظروف بالهداية، وحتى الرماةُ المسلمون، وهم السبب في هذه المحنة لم يسمح الله بانتقام منهم، ولقد لقي هذا رضًا من رسول الله ﷺ.. الذي نعته ربه بالرحمة واللين وعدم الغلظة، وأمره بالعفو عنهم والاستغفار لهم ومشاورتهم ـ جميعا ـ في الأمر، فالشورى ليست هي المسئولةَ عن الهزيمة، وإنما المسئول هم الرماة الذين عفا الله عنهم، وأمر الرسول ﷺ بالعفو عنهم.. فحتى في هذه المحنة الأليمة التي كابدها رسول الله ﷺ.. وحتى في مستوى هذه المعاملة البالغة السوء من المشركين ـ تقف القيم الإنسانية والأخلاقية النبوية ثابتة مؤكدة ـ في الحرب والسلم معًا ـ الصدق البالغ في قوله تعالى في وصفه نبيه محمد ﷺ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبياء].

* * *

(٧)

وبعد (أحد) شهدت السنة الرابعة للهجرة عددًا من السرايا تعرض المسلمون في

بعضها لعدد من النكبات، من أهمها (سرية الرجيع) التي كانت مؤامرة من المشركين ادَّعُوا فيها رغبتهم في الإسلام واصطحبوا معهم عشرة من القراء قتلوا منهم ثمانية وباعوا اثنين لأهل مكة فصلبوهما.. وتأتي (سرية بئر معونة) كارثة أعظم وأكبر، وكانت شبه مؤامرة، على النحو السابق، وانتهت باستشهاد سبعين رجلاً من الصحابة القراء..

كما شهدت هذه السنة ـ أيضًا ـ إجلاء بني النضير اليهود من المدينة، بعد أن حاولوا قتل الرسول ﷺ مرتين...

وفي السنة الرابعة للهجرة ـ أيضًا ـ خرج الرسول ﷺ لملاقاة أبي سفيان الذي كان قد توعد المسلمين باللقاء ـ بعد أحد ـ في العام القادم في بدر، وقد أقام الرسول ﷺ في بدر ثمانية أيام ينتظر أبا سفيان لكنه لم يأت، فعد هذا نصرًا للمسلمين، وبدءوا يستردون هيبتهم بعد أحد وآثارها..

وفي هذه السنة ـ أيضًا ـ قررت قبيلتا بني ثعلبة وبني محارب من غَطفَان الهجوم على المدينة، وعندما وصلت الأخبار إلى الرسول ﷺ خرج مع أربعمائة من المسلمين حتى وصل موضعًا يقال له ذات الرِّقاع، غير أن هاتين القبيلتين عندما علمتا بقدوم المسلمين خنستا واختبأتا في جحورهما، لذا فلم يقع أي قتال، ولكن النتيجة كانت نصراً في قائمة المسلمين أمام العرب وقريش[1].

(٨)

وفي السنة الخامسة للهجرة (شعبان) خرج النبي ﷺ بجيشه إلى المريسيع (على تسعة فراسخ من المدينة) ليواجه بني المصطلق وسيدهم الحارث بن ضرار، بعد أن تأكد من أنهم يجمعون لحربه... فهزمهم، وهربوا، وعاد المسلمون بأسرى كثيرين.. لكن الدرس الإنساني والأخلاقي المستفاد من هذه الغزوة تمثل في موقف الرسول ﷺ من عبد الله بن أبي ابن سلول الذي حاول استغلال خلاف بين حليف لأحد الأنصار، وأجير لأحد المهاجرين حول أيهما أحق بسقي بعيره من بئر هناك، فأسفر عبد الله بن أبي ابن سلول عن نفاقه عند العودة من هذه الغزوة عندما قال بمناسبة هذه الوقعة: أما

---

(١) محمد فتح الله كولن، الرسول قائدا (التنظير والتطبيق)، ص١١٦.

والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، وكان يشير إلى نفسه بأنه هو الأعز، وإلى الرسول ﷺ – حاشاه – بأنه الأذل، وعندما بلغ هذا النبأ ابنه، وهو الصحابي الكبير عبد الله بن عبد الله بن أبيّ جاء إلى الرسول ﷺ وقال له:(يا رسول الله، إنه بلغني أنك تريد قتل أبي(عبد الله بن أبيّ) فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلا فمر لي به فأنا أحمل إليك رأسه، فو الله لقد علمَتْ الخزرج ما كان بها من رجل أبر بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس فأقتله، فأقتل مؤمنًا بكافر، فأدخل النار، فقال له الرسول ﷺ: «**بل نترفق به ونُحسن صحبته ما بقي معنا**»، ثم إن عبد الله رضي الله عنه وقف لأبيه عبد الله بن أبيّ بن سلول عند مضيق المدينة قائلا: والله لا تدخلها حتى يأذن رسول الله ﷺ في ذلك، فلما جاء رسول الله ﷺ استأذنه في ذلك، فأذن له فأرسله حتى دخل المدينة [(١)].

وهكذا كانت إنسانية الرسول ﷺ وأخلاقياته العالية في مواجهة الأعداء، إكرامًا لذويهم المخلصين.

(٩)

وقد قدّمت موقعة الخندق التي وقعت في شوال من السنة الخامسة للهجرة كثيرا من المواقف الإنسانية الرائعة.. فقد انتصرت فيها الشورى، وانتصر في الشورى رأي العبد السابق (سلمان الفارسي) الذي اقترح إنشاء (الخندق) في مواجهة أحزاب يصل عددهم إلى عشرة آلاف مقاتل سوف يهاجمون المدينة.. استفادة من الأساليب الحربية للفرس الذين كان ينتمي إليهم..

وإنه لموقف إنساني رائع- كذلك- أن يشترك ثلاثة آلاف مسلم في حفر الخندق يقودهم الرسول ﷺ بنفسه، يتحمل حصة من العمل مثلما يتحملون، ويتحمل معهم الجوع أكثر مما يتحملون، ويقودهم إلى الأمل والتفاؤل في ظل هذه الظلمة المحيطة بهم، والتي زلزل فيها بعض المؤمنين زلزالا كبيرا وظهر أمر بعض المنافقين.

وقد كانت حصة كل رجل القيام بحفر طول ذراع من الخندق في عمق لا يستطيع الذي يسقط فيه أن يخرج منه مع فرسه، وقام بتوزيع العاملين عشرة عشرة، وقام بينهم

---

(١) محمد فتح الله كولن، الرسول قائدا (التنظير والتطبيق)، ص ١١٧-١١٨.

التنافس الكريم في الجد والتحمل، وكان الرسول ﷺ وهو يعمل معهم ويدفعهم إلى التنافس يسري عنهم – بإنسانيته المشرقة الوضاءة- وينشد وهم ينشدون معه:

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة   فاغفر اللهم للأنصار والمهاجرة

وأيضا كان الصحابة ينشدون:

نحن الذين بايعوا محمداً   على الجهاد ما بقينا أبداً

وكانوا مع الرسول ﷺ ينشدون أيضاً:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا   ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلنْ سكينة علينا   وثبت الأقدام إن لاقينا

إن الأولى قد بغوا علينا   وإن أرادوا فتنة أبينا

وكان ﷺ يرفع صوته: أبينا أبينا [(١)].

ولنا أن نتخيل، وأن نحاول أن نرسم في ذهننا- من وراء حجب التاريخ- هذه اللقطةَ الرائعةَ التي يجتمع فيها ثلاثةُ آلاف مسلم على الحب والولاء لدينهم وقائدهم.. وهم يعملون بشيء من التنافس على الثواب العظيم، ولا ننسى منظر القائدِ النبي الأعظم ﷺ الذي يعمل بينهم ويكسر الأحجار كما يكسرون، ويحملها كما يحملون، ويشتَرِك في الأكل إنْ وجدوا طعاما وفي الجوع إن لم يجدوا، وُينْشِد معهم الأناشيد المؤكدة لشكر الله الذي هداهم للإيمان، والثقة- بالتالي- في عبور الامتحان...

وبثقة كبيرة لا يمكن أن تتأتى- وسط هذا الامتحان- إلا من نبي معصوم ملهم يضرب أمامهم حجرًا قويا لم يستطيعوا كسره، قائلا: «**باسم الله**»، فيلمع بريق تحت الضربة فيقول: «**الله أكبر، أُعطيتُ مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمر إن شاء الله**»، ثم يضرب ضربة ثانية فيلمع بريق من ضربته فيقول: «**الله أكبر أعطيتُ مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض**» ثم يضرب الثالثة فيبرق أيضًا بريق تحت الضربة فيقول: «**الله أكبر أعطيتُ مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب**

(١) البخاري، باب مناقب الأنصار، مسلم باب الجهاد.

صنعاء من مكاني الساعة»[1].

إنها لقطة من أعظم لقطات التاريخ الإنساني حين يعمل ويأكل ويجوع أعظم رجل ونبي عرفته الإنسانية.. يعمل مع العبيد... ومع الأحرار... أبيضهِم وأسودهم، غنيهم وفقيرهم... والأكثر من ذلك أنه يُنْشدُ معهم أناشيد الإيمان، ويفتح لهم آفاق الأمل في ظل هذا الحصار الشديد.. عليه الصلاة والسلام.

يقول علامة العصر الداعية التركي الشيخ فتح الله كولن:

(لقد احتفظ الرسول ﷺ بالقيادة في يده على الدوام، ولم يترك جبهة القتال طوال أيام الحصار ساعة واحدة... تصَرف كأي فرد منهم، وشارك جيشَه في جميع مشاكله وساعات ضيقه، وهذا يؤكد كيف أن قيادَته كانت في الذروة على الدوام)[2].

وفي ختام هذا الحصار قال الرسول ﷺ لأصحابه: **«الآن نغزوهم ولا يغزوننا»**[3]، وقد صدَّقت الأيام قوله هذا كما صدقت كل أقواله ﷺ.

(١٠)

وفي السنة السادسة للهجرة- وبعد الانتهاء من الخندق وبني قريظة وقيام الخزرج بقتل أبي رافع سلام بن أبي الحقيق الذي كان من أكابر مجرمي اليهود الذين وقفوا مع الأحزاب وأعانوهم ضد المسلمين... ومع إجرام هذا الرجل فقد نهى الرسول ﷺ عن قتل النساء والصبيان... ولذلك قتلوه في بيته ولم يمسّوا أحدًا سواه بأمر الرسول الكريم ﷺ.

وبعد الانتهاء من هذه السرايا والغزوات نقف عند حدثين مهمَّين تجلت فيهما إنسانيةُ الرسول ﷺ وإيثاره للسلام والعفو والرحمة... وهما صلح الحديبية، وفتح مكة.

(١١)

صلح الحديبية وفتح مكة من أقوى الأدلة على الطبيعة الأخلاقية لحروب الرسول:

كان الرسول ﷺ قد وعد المسلمين بأن قريشًا لن تغزوهم في المدينة بعد الخندق...

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٢٣٠، وتاريخ الأمم والملوك للطبري ٣/ ١٦٧ -١٦٨، والكامل في التاريخ لابن الأثير ٢/ ١٧٩.

(٢) فتح الله كولن، الرسول قائدا (التنظير والتطبيق)، ص١٣٤.

(٣) البخاري المغازى٢٩، والمسند للإمام أحمد ٤/ ٢٦٢.

وقد كانت مشاعر المسلمين- لاسيما المهاجرين- قد تأججت تهفو لزيارة مكة البلد الحرام.. وطن المهاجرين الذين طالت غربتهم واشتد حنينهم.

إنهم يعيشون منذ ست سنوات على هذا الأمل، وبعضهم ربما نزح من الحبشة إلى المدينة مباشرة، دون أن يرى بلده مكة، فطالت غيبته أكثر.. ولهذا كان الرسول ﷺ يزرع فيهم الأمل ويعدهم بفرج قريب، بعد أن استنفدت قريش كل طاقتها.... وخابت كل جهودها... وضاعت كل أحلامها... وانتصرت القلة المؤمنة المظلومة...

يروي ابن إسحاق أنه في السنة السادسة للهجرة وعد رسول الله ﷺ أصحابه بالعمرة... ولهذا خرج الرسول ﷺ في ألف وأربعمائة من أصحابه إلى مكة ليس معهم إلا السيوف في القرب...

وقد وصل الرسول ﷺ إلى الحديبية، وهي مكان يبعد عن مكة ما بين ٥٠و ٦٠ كم تقريباً.

وقد عمد الرسول ﷺ إلى اتخاذ كل السبل ليقنع أهل مكة بأنه جاء معتمرًا، ولم يأت محاربًا، ومع ذلك فقد رفضوا تركه ومن معه من المسلمين يعتمرون، ويدخلون المسجد الحرام... ومع ذلك حافظ الرسول ﷺ على الصبر، والأخذ بأسباب السلام ما أمكن...

لقد اضطر الرسول ﷺ إلى التوقف في الحديبية وأمر أصحابه بالتوقف، على الرغم من إيمانه بنفسه وشجاعة أصحابه، كان يعلم أنه لو التجأ إلى الله تعالى وتوكل عليه وقاتلهم فسيغلبهم، غير أنه لم يفعل وفضل الانتظار، وعندما وصل المنع والعرقلة مرحلة معينة تبايع مع أصحابه... تبايع على القتال حتى الموت في سبيل الإسلام... هذه البيعة التي باركها الله تعالى من فوق سبع سماوات:

﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ ﴾ [الفتح].

والحقيقة أن قريشًا التي كانت تُظْهِرُ أنها تملك الكعبةَ اضطرت إلى قبول الأمر الواقع في معاهدة الصلح التي وقعت عليها كما وقع عليها الرسول ﷺ إذ قالت

للرسولﷺ:(وإنك ترجع عامك هذا فلا تدخل علينا الكعبة، وإنه إذا كان عام قابل خرجنا عنها فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثا معك سلاح الراكب، السيوف في القرب لا تدخلها بغيرها)، ومعنى هذا أن المسلمين شركاءُ في الكعبة أيضًا، وأن لهم دينًا حنيفًا على ملة إبراهيم، بينما كان المفهوم السائد آنذاك أن مكة والكعبة ملك للمشركين لاسيما لقريش، وأقنعوا الجميع بهذا، وكان على الجميع الانقياد إلى الشعائر التي وضعها المشركون، وما كان لأحد أن يضع شعائر خاصة ومختلفة، بينما كان من ضمن شروط معاهدة الحديبية حرية المسلمين في أداء الحج والطواف حول الكعبة بشعائرهم الخاصة بهم [1].

وبعد مفاوضات ظهرت فيها إساءات من رسل قريش، وآخرهم سهيل بن عمرو، وغضب لها أصحاب النبي ﷺ وتغاضى عنها الرسول ﷺ إيثاراً للسلام على الحرب، وقعت اتفاقية الهدنة والسلام لمدة عشر سنوات بين الطرفين..

وسرعان ما تبين للمسلمين أن إيثار الرسول ﷺ للسلام كان خيراً وبركة وفتحاً مبينًا.

لقد كان المفاوض من قبل قريش (سهيل بن عمرو) يَعُدّ كل تنازل يقتطعه من المسلمين نصرا كبيرا له؛ لذا فإنه كان يعترض حتى على أصغر المسائل، فمثلا عندما دعا الرسول ﷺ عليًّا ليكتب معاهدة الصلح مع قريش، قال له: اكتب (بسم الله الرحمن الرحيم). فقال سهيل: (اكتب باسمك اللهم) فكتبها، ثم قال اكتب: (هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو)، فقال سهيل: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، فأشار الرسول ﷺ لعلي رضي الله عنه أن يمحو كلمة (رسول الله) التي كان قد كتبها، وتردد علي رضي الله عنه ، إذ صعب عليه محو كلمة (رسول الله) فقام النبي ﷺ بمحو تلك الكلمة بنفسه بعد أن دلّه على مكانها عليّ، وقال:(اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو،) واصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس، ويكفّ بعضهم عن بعض، على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليّه ردَّه عليهم، ومن جاء قريشًا ممن مع محمد لم يرده عليه.

---

(١) فتح الله كولن، الرسول قائدًا (التنظير والتطبيق)، ص ١٤٢-١٤٤.

وقد قبل النبي ﷺ هذا الشرط الجائر لحكمة رآها على الرغم من تبرم بعض الصحابة وعلى رأسهم عمر بن الخطاب رضي الله عنهم.

* * *

وهكذا يرينا صلح الحديبية- بملابساته وشروطه- المدى الذي وصل إليه إلحاح الرسول ﷺ على طلب السلام؛ لأن ظروف الأمن والسلام هي المناخُ الملائم لدعوة الإسلام التي يراد لها الدخولُ إلى القلوب والعقول، ومن البديهي أن مناخ الحروب والقتال لا مكان فيه لتفتح العقول والقلوب على الحق... ولا على الحوار الإيجابي.. وكما أثبت التاريخ، فقد كان هذا الصلح - على ما فيه من إجحاف- فتحًا مبيناً... وفيه نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ [الفتح].

* * *

(١٢)

أما فتحُ مكة في الثالث والعشرين من رمضان من السنة الثامنة للهجرة، فهو الآية العظمى على مدى الأخلاقية النبوية الإنسانية التي التزم بها الرسول ﷺ مقدمًا أرفع نموذج للتسامح والتواضع والسموّ عرفته البشرية عبر تاريخها...

إننا لا يعنينا هنا رصد تطور الأحداث بعد الحديبية، فموضع ذلك هو الدرسُ التاريخي وكتبُ الحديث والسيرة، لكن الذي يعنينا هنا هو الوقوف عند الخلق الحربي الذي طبَّقه النبيّ ﷺ (الفاتح لبلده مكة)، مع التذكير- في البداية- بكل ما عاناه الرسول ﷺ من أهل مكة خلال أكثر من عشرين عاماً، منها ثلاثة عشر عامًا أمضاها وصحابتُه تحت مطرقة التعذيب والأذى والتشرد في الأرض بحثًا عن ملجأ آمن... وعندما هاجر لوحق ورصدت الأموال الطائلة لمن يغتاله، بعد أن فشلت مؤامرة قتله في داخل مكة.. ثم- أخيراً- الأعوام الثمانية التي قضاها الرسول ﷺ في مكة، وهم يلاحقونه ويتربصون بكل أصحابه، ولا تمرّ الأيام أو الأسابيع إلا وهم متآمرون عليه مع اليهود أو المنافقين، أو مُوعِزُون القبائل بترويعه في المدينة والسطو على مسارح المسلمين التي تسرح فيها دوابهم، أو مقاتلون له مباشرة طوراً ثالثًا...

وها هي السنوات الطوال قد مضت، وها هو أنبل الناس وأزكى الناس(الذي حورب واضطهد) يعود فاتحاً لبلده...

أجل: بلده مكة التي أُخرج منها وهو يذرف الدمع ويقول: (والله إنك لأحب بلاد الله إليّ، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت).

- إنها ذكريات أليمة كل الألم... بشعةٌ كل البشاعة... وإن أفضل الناس في مواجهتها هو الذي يلتزم (العدل)- على الأكثر- فيقتص لنفسه ولأصحابه، ويستردّ ما اغتصب منه ومنهم، وهو كثير، ويطلب التعويض الكافي عن الاغتراب والملاحقة طيلة هذه المدة الطويلة...

ولعلّ أقل ما يقبل ويغتفر لهذا الفاضل أن يدخل بلده شامخاً رافعاً رأسه بمجده الذي وصل إليه، وبحقه الذي انتزعه...

لكن الرسول ﷺ الأخلاقي الذي وصفه ربه بالخلق العظيم ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم]... لم يكن مثل أفضل الناس؛ بل إنه - لولا بشريته التي نؤمن بها، وعبوديته التي كان يعدّها وسامه الأرفع....

لولا البشرية والعبودية- لقلنا: إنه لم يكن من الناس، وهو يدخل مكّة.. لقد كان ملاكاً طاهرًا ارتفع عن أكبر مدى تستطيع أن ترنو إليه البشرية أو أن تطمح في الوصول إليه...

ونظر إلى آلاف الوجوه التي فعلت به الأفاعيل طيلة عقدين من الزمان، بعد أن دخل مكة من أعلاها، من كداء، وهو يضع رأسه- وهو راكب- على دابته- تكاد تلامس رأسه ظهر الدابة تخشعًا وخضوعًا لله، وإقرارًا بأنه صاحب الفضل في تدويل الأيام، وفي إعزاز الأذلاء، ولقد كانت رأسه تلمس واسطة الرحل من شدّة الانحناء وهو- مع ذلك- مشغول عن نفسه، وعن أية نظرات ترقبه وهو داخل دخول النبي المنتصر، وليس دخول(الملك) كما قال أبو سفيان للعباس: لقد أصبح مُلكُ ابن أخيك عظيمًا... فصحّح له العباس، وقال له: إنها النبوَّة... إنه مشغول عن الناس بقراءة سورة الفتح، بينما يخفق قلبه بأروع المشاعر؛ لأنه في طريقه إلى المسجد الحرام والكعبة، وقد فعل ما أراد... واستلم الحجر الأسود، وطاف بالبيت، ولم يكن محرمًا (البخاري: كتاب المغازي)... ثم جعل يطعن الأصنام حول الكعبة وهو يقرأ قوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ۝٨١﴾ [الإسراء]، ثم دخل إلى جوف الكعبة، فأزال آثار الوثنية من داخلها كما أزالها من خارجها، ثم دار في البيت يُوحِّد الله ويكبِّره...

وكل ذلك، وهم ينظرون إليـه.. إنهـم في وادٍ بعيـد عنـه، إنـه في الآخـرة، في المـلأ الأعلى، أما هم فيفكرون- هلعين- فيما ينتظرهم...متذكرين ماضيهم الأسودَ معه..

ونظر إليهم... وهم ينتظرون القضاء العادل.. لكنهم- مع ذلك- كـانوا يعرفـون أن محمداً هو محمد رسول الرحمة... إنه لـن يعـاملهم بالعـدل.. فلـو عـاملهم بالعـدل لانتهى كل شيء.. ثم فاجأهم النبّي الأعظم بالسؤال:

- **يا معشر قريش: ما تظنون أني فاعل بكم؟** وكأنما كان السؤال نفسه طوقَ نجـاة لهم... فسرعان ما أجابوه قائلين: خيرًا.. أخ كريم، وابن أخ كريم..قـال: «**فـإني أقـول لكم كما قال يوسف لإخوته: لا تثريب عليكم اليوم، اذهبـوا فـأنتم الطلقـاء لوجـه الله تعالى...!!**».

لقد ولدوا من جديد، ودبت في أوصالهم الحياة، وما كـانوا يتخيلـون أن ينقـذوا- هكذا- في دقيقة واحدة، وبعبارة واحدة، «**اذهبوا.. فأنتم الطلقاء**»، لكنـه سـمو محمـد ﷺ في حربه، سموه في عفوه، سموه في إكرام من ظلموه... وفي تأليف قلـوبهم... فـإن أكبر ما يهمه - كنبي أعظم- أن يدخل إلى قلوبهم... إنه لا يريد الطاعة- كملك- وإنـما يريد الطاعة مع الحبّ كنبيّ بعثه الله رحمة للعالمين... وقد تحقق له ما أراد!!.

ثم تتوالى آيات عظمته، فـيرفض أخـذ مفـاتيح الكعبـة مـن عـثمان بـن أبي طلحـة ويعطيها للعباس أو لعليّ (بعض بني هاشم قومه)، وقال: **اليوم يوم برّ ووفاء**.. فـالنبي الأعظم لا يعرف الانتقام.

وعندما كانت الجيوش الإسلامية تزحف على مكة في ظل أوامر صارمة بعدم إراقة الدماء إلا في حدود الدفاع عن النفس...أخطأ أحد القادة، وهو الرجـل العظـيم سـعد بن عبادة.. فقال: اليوم يوم الملحمة.. اليوم يذل الله قريشًا... فانتزعت منه الرايـة بـأمر الرسول ﷺ وأعطيت لابنه قـيس وصـحح الرسـول ﷺ العبـارة حتـى لا تـذهب إلى الناس وتروّعهم..قائلاً: **اليوم يوم المرحمة.. اليوم يعزّ الله قريشًا**.. وقد صدق.. فلـولاه ولولا دخول مكة في الإسلام لما كانت لمكة قيمة، ولما كان لقريش قيمة أبدًا!.

أمر آخر لا يجوز أن يهمل، وهو عفـوه ﷺ عـن جريمـة لا تغتفرهـا كـل القـوانين الدولية وهي خيانة عظمى بكل المقاييس.. لكنها- للأسف- سـقطةُ رجـل عظـيم لـه ماض عظيم في الدفاع عن الرسول ﷺ في أحد؛ وأيضًا في حمله بشهامة رسالة الرسـول

إلى (المقوقس عظيم القبط في مصر سنة ٦هـ)[١]... لقد أرسل حاطب برسالةٍ مع امرأة يخبر فيها أهل مكة بقدوم الرسول ﷺ إليهم.. وقد أخبر الوحيُ الرسول بما كان من حاطب، فأمر عليّ بن أبي طالب، والمقداد بن عمرو والزبير ابن العوام (رضي الله عنهم) بالانطلاق إلى المرأة المستأجرة لحمل الرسالة في موضع يقال له (روضة خاخ) في الطريق إلى مكة... فأمسكوا بها في المكان الذي حدده الرسول ﷺ وعادوا بها... فسأل الرسول ﷺ حاطبًا عن فعلته الشنعاء هذه، فاعتذر عنها بعذر قبله الرسول ﷺ - مع أنه لا يقبل في كل الأعراف الدولية- وقال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما رمى حاطبًا بالنفاق واستأذن في قتله: «**وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم**»...

وما نظن أن أية خدمات يقدمها الإنسانُ لوطنه تشفع له في الأمر الحربي الذي يصل إلى الخيانة العظمى، فيخرج منه بعفو كامل، لكن مقاييس الدين- لاسيما الإسلام- غيرُ مقاييس القوانين الوضعية، فكيف إذا كان المطبق لهذه المقاييس إمامَ المتقين، رحمةَ الله للعالمين، الإنسانَ الأعلى في تسامحه وعفوه ونبله وإنسانيته في الحرب والسلم على السواء.

(١٣)

كان بعض العجلين يعيب على الكاتب الكبير (عباس العقاد) إطلاقه مصطلح (العبقرية) على رسول الله محمد ﷺ، وقد ظنوا أن إطلاق هذا المصطلح يشتم منه رائحة نفي النبوّة، وقد أكرمني الله فرددت على هذا الظن في كتابي الصغير عن (شخصية الرسول أمام المقاييس الإنسانية)... فالأنبياء بعامة يفترض فيهم بداهة أن يكونوا في القمة من الذكاء... والقمة من الذكاء تلتصق بالعبقرية.. بل إن من الشروط الأربعة المطلوب توافرها ضرورة في جميع الأنبياء (الفطانة) إلى جانب (الصدق)، و(الأمانة)، (والتبليغ)...

لكن تتجلى عبقرية الرسول ﷺ في أنها (عبقرية إنسانية أخلاقية) تبلغ القمة في الذكاء والتخطيط للمعارك والحروب.. لكنها- في الوقت نفسه- تبلغ القمة في الحفاظ

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى ١/ ٢٦٠، وابن حجر العسقلاني، الإصابة، دار الجيل بيروت، ١٩٩٢، ١/ ٥٢٠.

على المستوى الأخلاقي، مهما تكن الظروف الضاغطة الاستثنائية التي تبيح (للعباقرة) العادين المجردين من المستوى الإنساني والأخلاقي الرفيع - أن يستبيحوا ما لا يباح، وأن يتجاهلوا القيم والأخلاقيات، وأن يطبقوا المبدأ الميكيافيلي اللاإنساني (الغاية تبرر الوسيلة)...

لكن سيرة محمد ﷺ الحربية، سواء في نطاق التعامل مع جنوده وأصحابه، أم في نطاق التعامل مع أعدائه، تبقى آية عظمى دالة على نبوته وأخلاقياته التي امتدحها الله في القرآن ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾ [القلم].

لقد اشترك الرسول ﷺ في نحو عشرين غزوة وانتصر فيها باستثناء ما وقع في (الومضة الأخيرة) في أحد.. وباستثناء ما وقع في (الومضة الأولى) في حنين... حين جمعت ثقيف وهوازن أكثر من عشرين ألفا ضد الرسول ﷺ بُعيدْ فتح مكة، وقد ثبت الرسول ﷺ في المعركتين ثباتاً لم يثبته أحد من الأبطال الذين معه، وكان ثباته على هذا النحو مظهراً لعبقريته العسكرية، ومعروف أنه في أحد وقع ما وقع بتأثير مخالفة الرماة لأوامره، فالمسئولية عليهم؛ لكنه استطاع مع هذا أن يتحمل أذىً شديدًا، وأن يُنقذ المسلمين بعد أن دفع الثمن غاليًا، وفي حُنين عندما ظهرت بوادر الهزيمة على إثر إمطار ثقيف للمسلمين بالنبال والسهام من الكمائن التي كمن فيها الأعداء وبدأت بوادر الهزيمة تظهر.. لكن الرسول الأعظم ﷺ بشجاعته التي تظهر متألقة في أصعب المواقف وأحرجها، وبفطنته الفطرية الكبيرة؛ استطاع أن يثبت في وجه الأعداء مناديًا بأعلى صوته: «**أنا النبيُّ لا كَذِب، أنا ابنُ عبد المطَّلب**»، وأمر عمَّه العباس أن يُنادي في الناس باسم رسول الله، وسرعان ما أجابوه: لبَّيكَ لبَّيكَ... وعادوا مسرعين إليه وسيوفهم في أيديهم...بعد أن أزال نداؤه ونداءُ عمه العباس الذهول والتراجع القصير الذي كان قد سيطر عليهم... وتحقق النصر للمسلمين في حُنين بفضل هذه الوقفة الشجاعة من رسول الله ﷺ...

والدَّرس الإنساني المستفاد هنا أننا لم نسمع أنه ﷺ حاسب أصحابه، أو أخذهم بشيء من اللوم والغضب، وقد ظهرت من بعض حديثي الإسلام بعض الأخطاء.. لكنه عليه الصلاة والسلام تجاوز عنها، وتألف قلوبهم، وأعطاهم من الغنائم أكثر مما أعطى المهاجرين والأنصار، حتى غضب الأنصارُ من ذلك، فاجتمع بهم - عليه

الصلاة والسلام- وخطب فيهم، وقال لهم: «**يا معشر الأنصار... تألَّفتُ بهذه الغنائم قُلوبَ أهل مكّة ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناسُ بالشَّاةِ والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم... فو الذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنتُ أمرأً من الأنصار... اللهم ارحم الأنصار.. الحياة مَحْياكُم والمماتُ مماتُكُم**.. فبكى القوم حتى أخضلوا لِحَاهُم... وقالوا: رضينا برسول الله قسْمًا وحظًّا. ثم انصرف رسول الله وتفرقوا[1]!!

وهكذا عالج الرسول ﷺ بسموه الإنساني موقفاً من توابع الحرب كان من الممكن أن يؤدي إلى فتنة كبيرة!!

* * *

(١٤)

ومن أخلاقه الحربية التي لا يمكن إغفالها احترامه لجميع جنوده وأصحابه، واستشارتهم واحترام رأيهم في أدق الأمور... ففي بدر استجاب لرأي (الحباب بن المنذر) وغيّر موقع وقوف الجيش، وكان قُبيل المعركة قد استشار المهاجرين والأنصار فتكلم أبو بكر الصديق والمقداد بن عمرو وسعد بن معاذ مؤيّدين دخول معركة (بدر)، فاتخذ قراره بالحرب قائلا لهم: «**سيروا وأبشروا.. فإنَّ الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم**» (متفق عليه).

ثم استشار في شأن الأسرى كما هو معروف.. وقد استشار في (أُحُدٍ) أيضًا، واستجاب لرأي الأكثرية وهو رأي كان يختلف مع رأيه... واستشار يوم الأحزاب واستجاب لاقتراح سلمان الفارسي بحفر الخندق، واستشار سعد بن معاذ، وسعد ابن عُبادة، وغيرهما حين جاءه الحارس الغفَّاري يعرض عليه الخروج من الأحزاب شريطة أن يُعطوه شِطرَ ثمار المدينة فرفضوا، فاستجاب لرأيهم، ورجع عن رأيه الذي كان يميل إليه... واستشار المرأة العظيمة (السيدة أم سلمة) بعد إقرار صلح الحديبية وغضب الصحابة فأشارت عليه بأن يقوم وينحر دون أن يُكلم الصحابة، فلما فعل ذلك قاموا يفعلون مثله وانتهت أزمتُهم النفسية بسبب مشورة (أم سلمة) أم المؤمنين رضي الله عنها ...

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير، حوادث سنة ٨هـ، وانظر مختصر سيرة ابن هشام،٢٥٦، لمحمد الزعبي وعبد الحميد الأحدب، نشر دار الوفاء، ص٢/ ١٩٨٢.

وهكذا كانت قيادته الحربية أخلاقية مع أصحابه أيضًا... يحترمُ عقولهم وإنسانيتهم ويخضعُ لآرائهم ليعلمَهُم قيمة الشُّورى في أدقّ الأمور المصيرية وأصعبها، فالإنسانية والأخلاق لا يقبلان التجزئة!!

(١٥)

يقولون: إنَّ القائد السَّويّ المثالي يجب أن يكون إنسانًا هادئًا منسجمًا مستقرًّا من الناحية النفسية، لا يتأثر ولا يغيّر وضعَه ولا أخلاقَهُ تحت تأثير الحواجز المختلفة.. فلا يَغرُّه أروع النجاحات، ولا تغيره أكبرُ الانتصارات.. وهكذا.. كان الرسولُ ﷺ القمةَ في ذلك.

ويقولون: إن القائد الناجح هو الشخص الذي بَعُد عن وضاعة النفس، واستمر على نهج حياةٍ بسيطةٍ متقشفةٍ، يعيش حياته بتناغم موسيقي هادئ، وتنتهي حياتُه بمستوى أعلى من البداية التي بدأها.. وهكذا كان الرسول القائدَ والنبي الإنسان في حياته، فكُلّما ملك الدنيا ودخل الناسُ في دين الله، وامتدت رقعة الإسلام، وازداد عدد المسلمين- ازداد تواضعًا وانسجاماً وكأنّ الدنيا تحت قدميه، لا يعنيه انخفاضها أو ارتفاعها، وحسبك موقفه وهو يدخل مكة خاشعًا لله، تكاد رأسُه تلامس ظهر راحلته.

ويقولون: إنّ القائد الناجح هو الذي يُحبُّ رعيَّته بحيث إنَّ كُلّ فردٍ منهم يشعر أنه أقرب إلى قلبه من الآخرين، وهو- أيضًا- الشخص الذي تقابله رعيته بالحب، كما أنَّ ثقته في الرعية وثقة رعيته فيه كاملة تامة [1]... وهكذا كان القائد العبقري والنبي الإنسان الأعظم... ولعلَّ حبَّ صحابته له لا يشبهه حب في التاريخ... وأما هو فقد وزّع الأوسمة على صحابته حبًّا وإجلالاً... فهذا (صديق) وذاك (فاروق)، وثالث (أمين الأمة)، ورابع(تستحي منه الملائكة)، وخامس (سيف الله)، وسادس(حواريّه)، وسابع(شهيد يمشي على الأرض).. وأما (عليّ)- ﷺ جميعا- فمولاه وأخوه.. وهكذا...

ويقول الشيخ المجاهد المعاصر العلامة الكبير/ فتح الله كولن(التركي نزيل أمريكا) [2]: لقد حفل التاريخ الإنساني بالعديد من القادة العظام، ولكن لا يوجد أي

(١) فتح الله كولن، الرسول قائداً (التنظير والتطبيق)، ص ١٦٣، ١٦٤ بتصرف.

(٢) المرجع السابق، ص١٦٥.

قائد جمع في نفسه كل الصفات التي اجتمعت في محمد القائد، والإنسان العبقري، والنبي الرحيم، أما القادة الذين جمعوا بعض هذه الصفات فقلة أيضًا...

لنتذكر (الإسكندر الأكبر)، و(هينبَعْل)، و(نابليون)،و (هتلر)، و(محمد الفاتح) و(السلطان سليم الأول)، و(السلطان بايزيد) (الملقب بالصاعقة)، و(جلال الدين خوارزم شاه)، و(صلاح الدين الأيوبي)، و(طارق بن زياد)، و(الشيخ شامل) الذي حارب الروس أربعين عامًا.. لاشك أن هؤلاء كانوا قادة عظامًا، غير أننا إذا قمنا بتقييمهم من زاوية الصفات التي تحدثنا فيها عن النبي الأعظم، لوجدنا أنه لا يمكن مقارنتهم أبدًا بقائد القادة محمد ﷺ...

أجل، هناك شخص واحد فقط في العالم كله، استطاع أن يجمع جميع صفات القيادة الناجحة، دون أي نقص؛ بل في أعلى الذرى وهو محمد ﷺ... ذلك لأنه كان رسولَ الله، وكان تحت رعاية الله وتأييده وتوفيقه في جميع الأعمال التي قام بها طوال حياته... ثم كانت أخلاقياته وإنسانيته ورحمته جزءًا لا يتجزأ من نسيج فكره وحياته.. فما أرسله الله إلا رحمة للعالمين... وبرحمةٍ من الله لان قلبه لكل من حوله، وكان حريصًا عليهم.. بالمؤمنين رءوف رحيم... يذب الناس عن الدنيا حتى لا يتساقطوا عليها تساقط الفراش.. ويسأل الله لأعدائه الهداية، وهم يحيطون به باذلين جهدهم لقتله قائلا: «**اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون**».. ثم يرفض عرضًا ملائكيًّا بالانتقام الجماعي منهم قائلاً: «**لعل الله يخرج من أصلابهم من يوحِّده ويعبده**».

فعلى محمد النبي الإنسان – في سلمه وحربه – أفضلُ الصلوات، وأزكى التحيات المباركات.

❋ ❋ ❋

الفهـــرس

* * *